دار قصص
وحكايات
للنشر
الإلكتروني
2020

رواية

شرايين رمادية في

الذاكرة المرة

حامد ثامر المسفر

شرايين رمادية في الذاكرة المرة

رواية

حامد ثامر المسفر

العنوان: شرايين رمادية في الذاكرة المنسية

النوع الأدبي: رواية

المؤلف: حامد ثامر المسفر (نبذة)

قوة السرد: كتابات إبداعية

المُدقق اللُغوي: الكاتب بنفسه

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج الفني: رمضان سلمي برقي

تصميم الغُلاف: رمضان سلمي برقي

سنة النشر: 2020

الحالة: حصرياً

رقم الطبعة: 1

رقم الكتاب بالدار: 78

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني2020

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الموقع الصفحة الجروب

نحن في عزلة مغطاة بأعظم الانكسارات عند حافات المدى البعيد، ننتظر النطق في صدى النزف بالشرايين، نحاول رسم خارطة الجسد المهمل بالطباشير على أعلى قمة بالشعور. كل ذلك... وأرواحنا تبدو كالحمائم تنام في عش الغياب.

حامد ثامر المسفر

إهداء .....

إلى بناتي عبير، فاطمة، أبرار... لكم كل الحب.

حامد ثامر المسفر

1

لليوم الثاني على التوالي، لم تهدأ أصوات الرصاص والمدافع، أخذت تقترب شيئًا فشيئًا نحو الأعماق، تصدر اهتزازات غير مستكينة منذ الأمس وبلحظات متفاوتة، تضرب بلا هوادة في العمق، فتنتج وميضًا من الأضواء يعقبها أصوات مقبوضة وأخرى مدوية بعيدة، وبعدها الدخان الذي يترامى على بعد الأفق سحابات سوداء تميل إلى السكون، ترسم الاضطراب والفزع ورائحة الموت في آن واحد.

منذ الأمس لم تتلق الفرقة الحادية عشرة مشاة إشارة من آمرية اللواء بأية أوامر للانسحاب، بالرغم من كل محاولات الاتصال العديدة، ولكن بلا جدوى، فقد مرت الساعات ثقيلة، وقد طغى الارتباك على وجوه الجنود السبعة الرابضين في قلب المهجع الأرضي يحفهم المجهول والخوف من كل ناحية، وهم يسمعون أصوات دوي المدافع التي وصل مداها إلى الخلف، مما اضطر بعضهم إلى الهروب في الظلمة الكاسحة إلى الموت المبكر واستكان آخرون للمجهول.

ـ أكو هواي مجال للشردة .

قالها آمرهم وانتظر نتيجة وقع كلماته على الجنود المتسمرين ريبة وأردف:

ـ يلا شباب قبل لا تنلاص علينا ..

لم تكن معاناة جندي الاحتياط "أنور ماشين" الذي ترك العيون المتربصة تترقبه وهو ينسل بجسده على الأرض نحو فتحة صغيرة في الخلف أقل من معاناة بقية الجنود الأربعة الذين تبقوا، فبالرغم من تحذيرات الجنود له بالعدول عن زحفه إلا أنه جثا على ركبتيه أمام الفتحة المنزوية في آخر المهجع وأخذ يتطلع بعينين ملؤهما الخوف والوجل، حتى خفقان قلبه لم يردعه من إخراج رأسه عبرها، طالعته في البداية رائحة الأرض الطينية الممزوجة ببقايا البارود والروث، كانت الرائحة كفيلة بإرجاعه إلى مكانه، لكنه أسند ذقنه على الحافة وفرج عينيه باتساع فلم ير شيئًا واضحًا من شدة الضباب والدخان المتصاعد وأشباح جذوع الأشجار المتكسرة، انتظر لحظة مرتبكة وهو يسمع صوتًا ممطوطًا لأنين جرحى من البعيد، تسمر قليلًا ريثما يتعقب مصدر الأصوات بعد أن شَد جسده المعقوف وهو يمعن النظر بقدر هائل من التركيز، كان الحذر يتسلل من جميع مسامات الجسد، حينها بدأت تسري بداخله طقوس من الرعب لمجرد أنه توقع أن يرى نهايته المحتومة تحت أنقاض المهجع الأرضي الذي قد يكون قبرًا له، فقد كان هجومًا كاسحًا عززته طائرات الهليكوبتر المتوافدة ، الرؤية حالت حتى من التفكير بالنجاة، حاول جاهدًا أن يرى منفذًا للخلاص، ولكن بلا جدوى، فقد كانت بعض الأشجار المواربة التي تكسو المكان حوله قد بدأت بالاحتراق، كان المنظر غامضًا ومرعبًا.

صمت الجنود يحيل المكان إلى استسلام غير نابض مركون بزاوية من العقل المشوش الذي قاسمه الموت على بعد شعرة من واقعه المرير، ترهبه أكثر أصوات المدافع المدوية مرة أخرى، وصوت هدير زناجير الدبابات على أرضية شبه يابسة ، لقد اصبح سبل النجاة غير وارد،استوقفته نبوءة الموت المؤجل الذي كان يترصده منذ الصغر، لكنه لم يكن يتوقع أن تكون نهايته ستكون هنا في هذا المهجع بعد أن رأى الكثير من مواقف الموت المشابهة، تكرار الموت الذي يلاحقه دائمًا هو ما كان يشغل عقله المرتبك ، أخذت شفتاه تتمتم بكلمات غير مفهومة، انتظرمليا يترقب الموقف بنفاذ صبر لولا أنه أحس بيدين تمسكان رجليه فجأة وتسحبانه إلى الداخل بقوة أعقبه دوي هائل أطبق على أذنيه، سمع صرخات الجنود تأتيه من مناطق عميقة ورأى خشبًا يتهاوى فوقه مع تراب كثيف.

أحس أنه هوى ببحر عميق، يسحبه تيار هائج إلى عمق سحيق عبر فجوات مظلمة لا متناهية، احس بحلقات أسطوانية أخذت تلتف حول جسده الذي يستسلم لها كلما غاب في القاع، أخذت يداه تمسك فراغات الماء وتعصرهما دون طائل، أراد شيئًا من فقاعات الهواء، جاهد بكل طاقته وهو يقاوم الغرق،لكنه أحس بأن يديه تلامس سطح خشن ، أراد أن يتشبث به ، رمى بكل ثقله على السطح ، تبين انه جدار ، أراد ان يغرس اضافره بكل قوة ، أصدر فمة صرخة حادة متقطعة أثارت انتباه الواقفين حول

محطة الباص التي رآها بالقرب منه عندما فتح عينيه ، أخذ ينظر إليهم بعيون من الدهشة والخوف ويداه متمسكة في جدارالمطعم الصيني، أشاح برأسه يمينًا ويسارًا ولم ير غير المارة الذين أخذوا ينظرون إليه باستغراب ، شاهد سيارات منسابة عبر الشارع المزدحم ذي العمارات الزجاجية الطويلة، كلب صغير نبح بقربه ومضى، بلاهة في وجهه رسمها فمه الذي أسال لعابًا ساح على ياقة قميصه التي مطها وأصلح من باقي هيأته بسرعة ثم انتشل حقيبته الجلدية المرمية على الأرض وأخذ يسير مبتعدًا بخطوات متسارعة قبل أن يلتفت التفاتة أخيرة لمحطة الباص في شارع ألبرت .

أنعطف سريعًا في أول شارع وجده أمامه بخطى متسارعة واختفى فيه ، طالعته بيوت متراصة ذات لون أبيض مائل للبني الفاتح، سار عبر صفين من منازل تحمل تصميمًا واحدًا ولكن بمسحة قديمة بعض الشيء، يسكنها في الغالب أصحاب الدخول المحدودة والزنوج ، أحس بدوار في رأسه ألم به فجأة ، توقف لحظات قبل أن يثبت قدميه على الرصيف ، أحس بأصوات قادمة نحوة مع الهواء ، أراد ان يبتعد بسرعة خوفًا من أن يلتف عليه صوت الطنين الذي بدأ يتوافد عليه بكل قوة من أماكن مجهولة عدة أخذ يسمعها تأتي من الأسفل وكأنها تمتد نحوه عبر أسلاك متشابكة وشرائح من معدن رقيق متذبذب تكاد ان تغلف جسده ، ما إن يرتفع الصوت إلى قمة رأسه حتى يختفي في الهواء، أغمض عينيه لبرهة، أخذ نفسًا عميقًا ، طوح رأسه بروية،

ولكنه سرعان ما فتح عينيه مرة اخرى على مشهد المنازل التي أخذت تتلوى أمامه حتى أنه حسبها سوف تسقط على رأسه بكل عنف ، حاول أن يتحاشاها بشكل سخيف عندما ارتمى على الأرض وقد كور جسده كالحلزون،

استسلم واستكان لبرهة قصيرة مستسلما لمصيره ، ولكن لم يحدث شيء ، لقد رأى كل شيء حوله ثابتا وطبيعيا عندما فتح عينيه ، انتفض وقام بعصبية وهو ينفض الغبار عن ملابسه، هز رأسه بتوتر بالغ وتطلع فيما حوله ثم قال في نفسه : (لا ... هذا غير معقول) .

انسل من أمام المنازل بحذروكأنه أراد ان يهرب من شيء يلاحقه ، ما ان بلغ شارعًا رئيسيًا عريضًا مزدحمًا بالمركبات حتى قطعه بوثبات غير متناسقة الى ان وصل الى الطرف الآخرعلى رصيف متكسر يلتحم بطريق ترابي ضيق يؤدي الى شارع اسفلتي طويل يفصل مساحات من العشب الى نصفين غير متساويين ، بداخلها زهور صفراء تنتشر بعشوائية ، سار به وهو يستعجل خطواته المتلاحقة ، ولكن ما لبث وان انتهى به الشارع الى سور حديدي متهالك عند أجزاء منه بعدها أقبلت عليه مساحات أخرى خضراء وافره تفصل مركز المدينة عن باقي المناطق الأخرى الجاثمة من البعيد خلف تلك المساحات التي تقطعها شوارع اسفلتيةعلى مداها الواسع فتحيلها الى مربعات ومستطيلات غير متساوية .

لم يكن الجو شتاءً ، كان شهر أيلول يعلن عن نهايات أيام الخريف التي رسمت ملامح أفقه تلك السحب الرمادية والأشجار التي بدأت أوراقها تميل الى اللون الأحمر والأصفر الداكن ، كان الهواء يسقطها بعفوية أسفل بعض الأشجار التي بدأت تتعرى وتكشف عن هزالتها ، كانت الأوراق تنشئ تناغم خلاب حلقات دائرية مزركشة أسفل الأشجار .

كانت لديه فرصة سانحة بالسير على قدميه بعد ان فقد الباص الذي كان سوف يقله الى منطقته ، أطلق لرجليه العنان وقد أقبل عليه الريح البارد الذي أخذ يهب عليه من جهة واحدة أحسها تتغلغل بأعماقه .

لقد استباحت لديه الأوهام والذكريات خلط بالذهن ، تتشابك معها الاحداث التي لا تؤدي الى صورة واضحة في الفترة الأخيرة ، أفكار وأوهام وخيالات متعاقبة عالقة في الرأس تختلج في النفس المثقلة بالهموم ، فلا تترك غير علامات استفهام كأعناق طيور اللقلق الطويلة ، حاول ان يطرد تزاحم المواقف والأحداث عنه، ولكنه لم يقو على ذلك ، فقد اختلط كل شيء ببعضه البعض ولم يكن لديه الكثير من التفسيرات والحلول ليهرب عن تداعيات فكره المشبوب .

سار وحيدا قاصدا الشارع الطويل ذا الأشجار الكبيرة العارية التي اصطفت على طول الطريق المؤدي الى عمارته التي تتميز عن باقي العمارات الثلاثة بطولها النسبي وتدرجات الطوابق التي تشكلت شرفاتها على هيئة مكعبات مظللة ، لقد رآى عمارته

من البعيد كحجر منسق يشد النظر تربض خلف مساحات خضراء مصفرة ، التف على الشارع التفافة مقوسة وهو يعلم بالمسافة الطويلة التي تمنى أن تكون أطول بكثير في عصر هذا اليوم ، فقد كانت لديه القدرة على المشي بعيدا حيث اللانهاية ، أراد أن يسير ويترك الرياح تملأ وجهه الرتيب ، قد تمسح أي صورة طارئة تأتيه بغتة أو أي حدث يعلق بالذهن .

الطباخ اليوناني "كردينوس" حين جثا على ركبتيه وأشبك أصابعه بقوة واستطرد يحييه تحية الأبطال لم تكن لديه أي نية سيئة ، أخذ يتكلم متجهمًا بشكل مسرحي من خلف شارب أبيض كث وعريض طغى على أطرافه السفلى لون قهوائي غطى شفته العليا ، (حذاؤك سيد أنور أحدّ ذكاء من عقلك البالي، أيها الفتى التعيس ذو الوجه البائس، لقد دلني على طبق التونا المعجون بدبس الرمان من دون أن تعلم).

كان أنور يغسل الفطر في مؤخرة المطعم، ولم يسمع صوت كردينوس الطباخ حين كان ينادي عليه عدة مرات من داخل الضوضاء التي خلفتها حركة المطعم المتسارعة إلى أن أتى بقربه وصرخ بصوت عال في أذنه: (أين أجد طبق التونا المعجون بدبس الرمان ... أرجوك) ، لم يتكلف أنور العناء بالرد عليه، لكنه وبحركة مفاجئة رفع رجله وأشار بحذائه نحو الرف الأيسر، حينها قفز الطباخ بدوره والتقط الطبق بسرعة ، ولكن قبل أن يخرج غمغم بكلمات يونانية غير مفهومة ودعس بحذائه الضخم بقوة على الدب الخشبي لـ " ديما " ابنة صاحبة المطعم وتناثرت قطعه على الأرض .

لقد أثار هذا الموقف ابتسامة خفيفة على وجه أنور الذي بدا متجهما في هذا اليوم ، أراد ان يعتذر له بعد ان فرغ من عمله ولكن الطباخ كردينوس لم يبالي به ، أخذ يقطع كبدة الدجاج ويخلطها مع الذرة ثم يضيف اليها رحيق السمسم .

*****.

أصوات الغربان وحفيف الشجر لم يشوبا سكون الطريق، حتى السيارة التي حفته، أخذ صوتها يتضائل ما إن ابتعدت عنه قبل أن يبتلعها الشارع الطويل الذي استعاد هدوءه من جديد ، عندما وصل إلى منتصف الطريق أنتبه إلى بيت مظلم وكئيب يكاد يكون معزولا ، كانت تدور حوله حكاية لم يستطع أن يكذبها الجيران ، كان بيت السيد طوني على شاكلته لم يتغير، السحنة القديمة نفسها لبيوت هولندا البرتقالية والانسياب الحجري للسقوف المثلثة ، البوابة التي امتدت بها المعرشات من الباب الخارجي حتى باب البيت الرئيسي كانت مقفلة بسلاسل حديدية صدئة ، ما ان رآه حتى انتابه شيء من الذعر بعد ان تذكر حكاية موت السيد طوني الغريبة ، لم يمض على موته سوى بضع سنين ولازالت حادثة حيوانات النسناس البري التي هجمت عليه وقطعته إربًا بليلة اكتمال قمر حزيران عالقة بذهن كل يعرفه حق المعرفة ، لقد كان حدثًا غريبًا جعل الجميع يعتقد أن الحيوانات قد يتلبسها الشيطان أحيانا عندما تجد إنسانًا بخيلاً سكيرا سيء السمعة كالسيد طوني، مما جعل الأهالي يخافون المرور

بمحاذاة المنزل الذي قد ساده الظلام منذ ذلك الحين، وظل التمثال الجبسي للسيدة مريم العذراء خارج البيت مسلطة عليه أضواء شاحبة زادت من رهبة المكان.

لا يعلم كم من الوقت سار وترك قدميه تتجاوز الطريق الجانبي الصغير المؤدي إلى عمارته عمدًا، اشتد الهواء البارد حاملًا معه رذاذًا خفيفًا، فكر حينها بالعدول والعودة إلى الوراء، ولكنه ارتأى بأن يحث الخطى ويكمل سيره نحو ملعب الغولف الذي غالبًا ما يقضي به أغلب ساعات يومه ، يجلس وقتا طويلا على أحد التلال المنتشرة في المكان الواسع الذي يزخر بالشجيرات المتناثرة فوق مساحات من العشب الخضراء أحرقتها حرارة الشمس وأصبحت شبه صفراء.

أخذ يسير بمحاذاة قناة مائية اصطناعية طويلة تمتد من بحيرة متصلة بنهر الريدو الكبير وتتجه نحو مركز المدينة، تسحب الماء الرقراق وتصبه في النهر الكبير، نهر" أوتاوا" الذي يعتبر الحد الجغرافي الفاصل بين الجزء الإنجليزي للعاصمة الكندية اوتاوا ومقاطعة كبيك الفرنسية، حفرها الأولون كأحد دفاعات مدينة أوتاوا لصد اعتداءات الجيش الأمريكي الغازي في السابق، أما اليوم فهي تعتبر الطريق المائي النابض، المراكب الشراعية الصغيرة تبحر عبر القناة وتأخذ وجهتها إلى مركز المدينة بانسيابية هادئة ، في بعض الأحيان تستفز أحلام السائرين على طول السور المحيط بها وتضطرهم للوقوف دقائق يتأملون انعكاس الغروب على سطح الماء ، هكذا هي القناة دائما في شهور الصيف المعدودة ، تبدوكأنها خيط طويل من الفضة يقسم

المدينة الى نصفين متعادلين ، ولكن عندما يأتي الشتاء وتتجمد المياه في شهر كانون الثاني تصبح الأرضية جليدية صلبة تستهوي هواة التزلج .

تسمر أنور طويلًا بعد أن وصل إلى ملعب الغولف ، وقف على تلة بالقرب منه ، أخذ ينظر إلى السماء التي بدأت تكسوها سحب متواترة وقليل من الظلمة ورذاذ خفيف، لفحه بعض الهواء الندي المنعش، أطلق حسرة ممدودة وتذكر كلمات صديقته راشيل عندما التقاها آخر مرة هنا قبل أن تغيب عنه (أنور، عندما ترى ذلك القارب، اعلم أن قصائد العشاق ترحل معه عبر القناة، يخيطون شراعه من حكاياتهم ويتركونه يذهب بعيدًا بلا دليل إلى ما لا نهاية ... ذلك القارب يبحث عن مرسى حقيقي) وقتها أمعن النظر بالقناة طويلًا بعد أن قالت ذلك بفتور، تطلع في الماء الرقراق ولم يجد أي قارب بالأنحاء مما دعاه إلى سؤالها :(عن أي قارب تتكلمين راشيل؟) ، لم ترد عليه في لحظتها، أبقت عينيها الحالمة متسمرة على شلال الماء الذي ينحدر من أعلى مرتفع صخري، كانت تجلس بالقرب منه وهي تضم قدميها إلى صدرها، استرسلت في البداية بتسابيح مرتجلة غامضة أطلقتها من فمها الصغير، أخذت تترنم بكلمات غير مفهومة على مهل من دون أن تعيره أي انتباه ، لم يفهم أنور منها شيئًا، تركت به ما يكفي من الحيرة والتساؤل ، أخذ يتطلع طويلًا في وجهها الدائري الذي تكسوه بعض من بقع النمش على خديها ووردة حمراء كبيرة ملفتة للنظر وضعتها خلف أذنها ، لكنه سألها باستغراب (راشيل ... ماذا تقولين؟) ، أخرجت لفافة من التبغ غريبة الشكل

من الجيب الداخلي لجاكيتها الأحمر الطويل، أشعلتها وأخذت نفسًا عميقًا ثم نفخته بقوة، بددت الدخان بعفوية في الهواء ، أردفته بنفس آخر أطول بكثير من الأول، وهي تضع اللفافة السمراء بين أصابعها التي أخذت ترتجف، بعد أن عانت فيما يبدو من صمت طويل، اعادت النظر بوجه أنور الذي لم يسقط ناظريه عنها ، اجترت كلماتها عنوة وقالت بحزم ووضوح (لقد عاد "مارسيل") .

نزل عليه الخبر المفاجئ كضربة في الرأس ثقيلة، أخذ الصمت الدخيل يحفه من كل جانب، يرتب له حدثًا لم يتوقعه، إذ تبين أن هناك شيئًا جديدًا طرأ على تصرفاتها التي لم يألفها أنور الذي سألها بحزم واستغراب (كنت قد قلت لي أنه قتل في أفغانستان!!) فردت وهي تشيح بوجهها بعيدا : (لم أسمع عنه شيئًا منذ سنة، ظننته قد مات) ثم أردفت (كلمني من التلفون قبل أسبوع، قال إنه يريد أن يراني) .

لقد بدا وكأن الشلال أخذ ينزف سائلًا غريبًا لزجًا أمامه ، يمتزج بالماء الذي تحول إلى اللون البني الداكن، كان زحامًا من هواجس خفية في الفؤاد أخذت تتوافد على صدر أنور الذي تفاجأ من الخبر، قبل أسبوع، أسبوعين، ربما لم يكن حتى قبل شهر، كان يتوجس من تصرفاتها في الفترة الأخيرة التي لم تكن على ما يرام، تغيباتها الكثيرة، الأعذار الواهية، كلماتها الغامضة، كيف لم ينتبه لذلك، كيف غفل عن ذلك وعزاه إلى انشغالها بأمها التي أصابها مرض الديدان الزاحف، لكنه سألها ببرود (وماذا ستفعلين؟) ، قالت وهي ترمي باللفافة بعيدا (لا أعرف، يجب أن أعود إلى البيت

الآن، سوف أراك غدًا) ، قالت ذلك ثم قامت وهي تضع يديها في جيوب الجاكيت الأحمر الطويل، مضت فترات من الصمت والترقب قبل أن يقوم أنور ويقف بقربها، هب الهواء بقوة وكأنه يريد ان يفصلهما عن بعضهما أكثر ، حين استدارت نحوه ، تقدمت وضمته إلى صدرها بحركة مسرحية متقنة، بينما ظل هو جامدًا في مكانه لم يتحرك، طبعت على خده قبلة سريعة هادئة ، لم يُبدِ هو أية ردة فعل تذكر، ولكن قبل أن تهم بالرحيل وتختفي ما بين الشجيرات القريبة قال لها أنور بنبرة يائسة حزينة: (راشيل، يبدو أن القارب لن يجد مرسى حقيقيًا بعد الآن).

لم يفهم ساعتها أي شيء من حماقات الرحيل التي اختفت خلف البوح الصريح، أحس أن علامات من الغموض المفضوحة أطلقتها أسراب من الضنون ، أخذت تحلق على مهل فوق وحدته القارصة، أحاسيس مغلوطة عبرت عنها صديقته راشيل بكل راحة وانسجام، فقد أصبحت تصرفاتها غامضة، لم يفهم أنها لم تكن إلا مشهدًا من مشاهد الخيانة، حاولت راشيل أن تلعب بها دور البطلة المظلومة، فلا بأس أن يستدير القمر بعد الآن الى وجهه المظلم ، ليس ثمة ما يدعو للشرود النافق، فقد كان تدفق تيار الحكايات أصبح مطعمًا بالشرود ، ولكن بالرغم من ذلك ، هذا فضاءها الرحب تحلق به أينما تشاء .

ها هو الحزن مرة أخرى، لم يترك له فرصة ولا راحة، يعتليه مرة ثانية ثم يرديه في أصقاع الأرض القارسة شجونًا ولوعة، قد تندثر بعض الحكايات الفاضحة، ولكن تبقى

الحكاية الأبرز هي التي ترسخ في الوجدان، تعود فتضرب في عقر الذاكرة التي تصففها وتعيد تحديد أحداثها بالضمير، وكأنها تقصد ذلك، لم يستوقفها يومًا أو يناشدها في التكفير عن خطايا السنين؛ لأنه لم يجد تفسيرًا واضحًا للكم الهائل من الذكريات والأحداث التي بدأت تراوده في الفترة الأخيرة، ذات أحجام وأبعاد لم يدركها إلا حين أراد أن يفك طلاسمها بحذاقة، ولكنه لم يفعل ذلك؛ لأنه أحس بتوقف عقله.

عيونه المسلطة على أضواء الشارع البعيدة لم توح له بفك أيةأحجية بدت له في الفترة الأخيرة معضلة شائكة، شيء غير عادي، ربما يكون الحنين المزمن للماضي البائس هو الذي دفعه بأن يكون على هذه الصورة من الوهن، أو ربما قد يكون كل ذلك مجرد لغط من مشاهد مسرحية قصيرة نشرت على حبل غسيل مضفور بالفؤاد، تبحث عن عاصفة هوجاء تقذف بها إلى ما بعد هذه القناة، قد تكون الحروب والرحيل والسجون والأصدقاء وأسرار لم تفصح عنها الذاكرة اللامتناهية، وشخوص رابضة في الخلجات هي التي أخذت تسكن بداخله ولن تخرج منه أبدًا، ولكنه أراد أن يعرف ما الذي حصل له في الفترة الأخيرة.

من جملة ما يتهافت على الذاكرة ابنته الصغيرة "صباح" ذات السبعة أعوام، لقد فقدها منذ زمن بعيد، لكنها ما تزال حاضرة في داخله دومًا، تراود عقله بلحظات قصيرة خاطفة في كل مرة، تذكرها حين كانت تنتظره لساعات طويلة بفستانها القصير الأخضر

حافية القدمين فوق تلة الرمان ، قرب المطحنة القديمة، عندما تراه يعود من البعيد بلباسه العسكري ويقترب منها بخطواته السريعة ليضمها إلى صدره

تهرب منه وتختبئ خلف النخيل، فتفضحها عنزتها الصغيرة دعدوعة، قافزة حولها بمرح وكأنها تشاركهم اللعبة، يركض خلفها في البستان وهي تحاول أن تسبقه، وبعد أن يعطيها مدى من الفرح ، يمسك بها ويداعبها ثم يحملها بيديه الاثنتين ويقذف بها إلى الأعلى وقبل أن تقع على الأرض يتلقفها ويضمها إلى صدره، ويلتف بها التفافة نصف دائرية قبل أن يعودا إلى البيت ليجدا زوجته أمينة تنتظرهما ببشاشة وفرح، عندما يأتي الليل، كانت تداعب شعره وترمي بيدها الحانية على كتفه، تحتضنه وتشم رقبته قبل أن تخلد للنوم فجأة على صدره وهو ينظر إلى وجهها الرقيق بحنان، كانت كل الفرح وكل الحزن الذي بدا أنه لا مسامات له حتى ينضح بعضًا من الراحة، كانت كل كلمات المواساة لا تكفي لسد ثغرات الألم التي زرعت في نفسه بعد رحيلها.

لقد افتقدها كثيرًا، تمنى وجودها بشدة ، لولا رحيلها لما حصل الذي حصل، فقد كانت كل أحلامه وامنياته ، دمعت عيناه التي عصرهما بقوة لبرهة ما لبث أن فتحهما ببطء على لوحة من الماء ارتسمت أمامه ، فقد بدأ المطر يهطل عليه رويدًا رويدًا، نظر إلى ساعته طويلًا، لقد تأخر الوقت وأظلم الليل، أطلق حسرة طويلة حاول أن يتبرأ منها قبل أن يتحرك عائدًا إلى البيت، لكنه وفي لحظة غريبة انتبه إلى التلة المواربة، جسد صغير يقف فوقها.

كانت ابنته "صباح" واقفة على التلة بثوبها الأخضر المبلول وشعرها المنكوش ، بقربها كانت عنزتها البيضاء دعدوعة خاملة، لم تكن تنظر إليه، كانت عيناها معلقة بالسماء، أجهد النظر طويلًا وهو يراها تحمل بيدها دمية صغيرة لدب قطني مبلول، أراد أن يخطو نحوها ويضمها إلى صدره كالأيام الخوالي، لكنها التفتت إليه برأسها الصغير فجأة ، ابتسمت ابتسامة رتيبة وقد بدت عيناها أشبه بالزجاج اللامع، أخذت تنظر إليه وكأنها تعاتبه، كانت صامتة وهي تطيل بنظراتها التي أخذت تألمه، ما لبثت أن بدت صورتها تتذبذب أمامه كما المصباح المعطوب، بعدها اختفت بسرعة وتركت على وجهه انزعاجًا مخلوطًا بشيء من اللهفة.

أخذ يفرك عينيه ، أعاد النظر إلى مكانها الذي بدا فارغًا، أدار رأسه في المكان، لم يكن هناك أحد، أختفت صورة أبنته ، تشكلت هوة عميقة في صدره، فراغًا أشبه بالحلم الفارغ الطويل، اكتشف حينها سر اللهفة في مسامات العمر والصرخات المطحونة بين أسنانه على الأمنيات، جلس على التلة، طوق قدميه بيدين ، لفهما بقوة حول جسده، ثم أخذ ينظر إلى نفس السماء الرمادية بعينين زجاجيتين لامعتين ولم يعبأ بالمطر الذي أخذ يهطل عليه بغزارة.

2

لازمه الأرق في ليلة أحسها الأطول على الإطلاق، مستلق على الفراش تلفه ملاءة حمراء تكسوها بعض البياضات المزركشة التي لم تعنِ شيئًا بالنسبة له في هذه اللحظات، عيناه بين الصحوة والنعاس ، لقد أمست قدرته على النوم ضئيلة، لم تكن نصف الساعة التي غفا فيها كفيلة بطرد الصداع المفاجئ الذي ألم به، صوت دقات عقارب الساعة أحسها تكسر عظامه، تنطلق في المكان الغارق بالظلمة كأنها خطوات وحش أسطوري يدور حوله، لقد تشكل الركود بداخله مزيجًا غير متجانس مع صوت المطر الذي ما زال يسمعه يهطل بغزارة .

أشاح بالملاءة بعيدًا عن جسده، انتفض بعفوية وجلس على حافة السرير بلحظة خاطفة، عطس ثلاث مرات متتالية انتفض لها جسده، تطلع حوله بالغرفة الواسعة فلم يجد أية حركة من الدمى المتناثرة التي ملأت المكان، لم يلمسها مذ أن كانت صديقته راشيل هنا آخر مرة، لعبت بهم كثيرًا كالطفلة، كانت تحتفظ بالجندي المطاطي الصغير الذي حمل سلاحه الطويل على كتفه مستعرضًا بمشيته المتوازنة وقد حرصت على ألا تفرط به حتى عندما استلقت بقربه ونامت، كانت غريبة الأطوار في تلك الليلة.

أخرج الهواء من فمه بقوة، وترك شفتيه تهتزان بعفوية مصدرة صوتًا سريعًا متقطعًا يائسًا، تطلع إلى النافذة ، قام واتجه نحوها، أزاح ستار تكسوه مجموعة من البط

البري المهاجر، حبات المطر تضرب على الزجاج فترسم شروخًا بلورية، لقد تسرب المطر في الأجواء وتغلغل بأعماق المنازل والعمارات البعيدة التي انزوت خلف غزارته بالرغم من وجود بعض الأضواء الخافتة التي رسمت في المحيط شيئًا من حياة. هواجس الليل قلما تبعث على الطمأنينة في نفس أنور الذي منذ أن وصل إلى كندا واستقر في مدينة أوتاوا أحس بالدائرة الرتيبة المتزامنة لساعات طويلة مفروضة ما زالت تكبله بقوة بين البيت والعمل والطرقات ومقهى الستار باكس، خلقت لديه جدارًا من العزلة مع من حوله ، حاول تكسيرها والتواصل مع المجتمع، ولكنه أخفق عدة مرات، فقد دخل مرقص وكر الثعلب في ليالي نهاية الأسبوع ورقص حتى انطرح على الأرض، صبغ شعره باللون الأخضر في الأعياد الإيرلندية، لبس الفانيلات القطنية الرديئة الصنع والتي رسم عليها صورة جيفارا كنوع من التغيير وسار بنصف جسد عار بين جموع المحتفلين بالعيد الوطني الكندي، أكل وجبات البوتين بنكهة الدجاج المملح وسندويشات ديك الرومي المدخن، ولكن بلا طائل، فقد بقيت الأيام والسنين تمر عليه فلا تذكر، وإن ذكرت فهي كالساعات المعدودةالتي حسب انه فرح بها ، تطبع على حياته حسرات وأحزانًا بانت من خلال قسمات وجهه القاسية، وحنينًا ظل على عتبة الذاكرة المكدودة.

لقد أصبحت غربته بداخل الأوردة جافة لا نبض بها، لسنين مضت وجسده مطروحا يشد وثاقه السرير بفكر خامل ، يبحث عن عن طريقة تعيد له الحيوية والنشاط بعيدا

عن الأوهام التي شكلتها الشخوص الراحلة عنه من غير وداع ، فحين يأتي الليل تتوافد عليه الخواطر التي لا تحصى ، تتراءى له الصور والأحداث أمامه على سطح الهواء الشاحب الذي قد يبدد بعضها العادي ، ولكن الأغلب الموجع يبقى محشورا في السماء .

أشاح براسه واستدار في الغرفة الصامتة ، سار نحو الأريكة وألقى بجسده عليها قبل أن يلتقط علبة السجائر، أخرج سيجارة وأشعلها، أخذ نفسًا عميقًا، حبسه عدة ثوان بصدره، وأخرجه بشكل متقطع في فضاء الغرفة، بدا الدخان كأنه يخرج من مدخنة قطار بخاري قد تحرك للتو، وكأنه يفعلها عن قصد منه، حبس الدخان مرة أخرى وأطلقه في الهواء بشكل متواصل وهو يتذكر ذلك اليوم البعيد حين انطلق به القطار من محطة الناصريةمتوجهًا نحو مدينة "بغداد".

كانت عربات القطار مكتظة بالأجساد الوافدة من محطات تمر على أشباه مدن صغيرة عدة تقع على طول شريط السكة الحديدية منذ انطلاقها من محطة "البصرة" الرئيسة وصولًا إلى مدينة الناصرية ، كانت هناك أصوات شخير متناثر تنبعث من الأجساد التي ترتمي في كل مكان حتى في الممرات، ثمة لغط خافت يأتي من البعيد، لم يبق من الأضواء المكسورة التي تستدل بها على الأجساد إلا القليل، توجس أنور في الظلمة، أخذ يتنقل بين المقطورات يبحث عن مكان للجلوس إلى أن وصل إلى الآخر ولم يجد أي مكان فارغ ، ولكن قبل أن يخطو خطوات إلى الوراء ويعود من حيث أتى

لمح كرسيًا صغيرًا في آخر الممر (يا الله ... أخيرًا) قالها في نفسه ثم اتجه نحوه، كرسي ذو عارضتين مهترئتين يستعمل أحيانًا لجلوس المعوقين، رمى بجسده عليه ودس حقيبته الجلدية تحت قدميه، أخذ نفسًا عميقًا ثم زفره عنوة، لم يكن مريحًا بقدر كاف حتى يتسنى له أخذ قسط من النوم، ولكن بالرغم من ذلك أسند رأسه إلى الخلف وأغمض عينيه ما لبث أن فتحهما على صوت محصل التذاكر يأتيه بصوته الأجش الذي أثار زوبعة من الهرج والضوضاء عندما أصر على إبراز التذاكر التي أخذ يتفحصها بشكل حازم وسريع، مع مصباح يدوي كبير وشرطي ضئيل البنية يتبعه أينما ذهب، لم يدم ذلك سوى دقائق معدودة، بعدها بدأ الجو يميل إلى الهدوء بعد خروج المحصل مع بعض أصوات من اللعنات والشتائم، أسند أنور رأسه مرة أخرى إلى الخلف، أغمض عينيه واستسلم للنعاس رغم تهافت بعض الركاب على الحمام الوحيد الذي ارتفعت منه رائحة البول.

في ذلك الليل رحل وحيدًا إلى بغداد، ترك القرية والبستان وأباه وشواهد القبور الأربعة خلفه، ذهب هاربا ليبحث عن تفسير يستدرجه إلى حلول لفك الأصفاد التي كانت تقيده منذ زمن بعيد، أراد أن يتخلص من واقعه المرير الذي لم يختاره ، الحروب والاعتقالات والجوع ، أراد أن يرحل بعيدًا إلى حيث توصله أقدامه بعيدا عن الوطن ،

وقد رسم المستقبل المجهول على ماء النهر والسحاب وأوراق الشجر، كان مغمض العينين حين ولج في الزحام.

مضى وقت الرحلة بطيئًا وعينيه بين الصحوة والنعاس، حين توقف القطار فجأة، أفاق على أصوات الناس الذين أخذوا يتدافعون بقوة وعفوية نحو الأبواب بغير ترتيب، اكتظ المكان بالأجساد المتلاحمة، الصاعدون والنازلون للمحطة التالية، صراخ وأصوات ، سباب وشتائم متطافرة، أحس بألم في رقبته التي حاول أن يدعكها بيده، أدار رأسه قليلًا، انتبه إلى بعض الأماكن التي أخذت تفرغ، وقبل أن يأتي ركاب جدد يشغلونها ، قام وارتمى على أحد الكراسى التي كانت قريبة منه، أودع حقيبته برف في السقف، ثم أطلق صوتًا كالصفارة من فمه واستكان، كان مريحًا بعض الشيء، أسند ركبتيه على مؤخرة الكرسي الذي أمامه، أصفد يديه على بعضهما وقبل أن يغمض عينيه متجاهلًا الأصوات التي بدأت تخف أثاره صوت بجانبه ، كان أشبه بحشرجة متقطعة ثقيلة.(أحنا وين هسه ...؟) ، حاول أنور أن يلمح شيئًا من وجه الرجل الذي غطى نفسه ببطانية عسكرية خضراء التفت حول جسده حتى أحالته كالشرنقة، لكن أنور رد عليه دون أن يعيره أي اهتمام (ما أدري... يمكن المحمودية) حينها انتفض الرجل بسرعة وكأنه لدغ للتو، أبعد عنه البطانية وأخذ يلتفت يمينًا ويسارًا مستغربًا بعينين اجتهد في فتحهما بصعوبة، لكنه سرعان ما بدأ يميل إلى الهدوء حين تيقن من المكان ، أحنى

رأسه قليلًا، مسح على وجهه بيديه وأدار رأسه للنافذة، أمعن النظر في الخارج وقال دون أن يلتفت الى أنور، (لا ، هاي مو المحمودية) بعدها أرخى الرجل جسده على الكرسي، تمتم بكلمات لم يفهم منها أنور شيئًا وأردف بصوت عال ، (ما باقي شيء، ساعة وحده ونوصل ... هانت) ، ثم بدأ الجو يميل إلى الصمت والهدوء، فقط كان صوت عجلات القطار يحتك ببطء في السكة الحديدية معلنًا عن تحركه من جديد.

****

النغمات الصاخبة بدأت، غزت كل مسامات المكان، سرت بأوصال الأولاد والبنات رعشات تحثها الدفوف والطبول بعنف، أخذ الجميع يزحفون في الساحات المواجهة للنهر يرقصون على أنغام الچوبي ، مجموعات متشابكة تتراقص بعفوية وفرح، لم ير أحدهما الآخر ساعة ما جلسا ضمن الجمهور في صدر الحديقة العامة، وجدا نفسيهما فجأة غير بعيدين عن بعضهما البعض على كرسيين زينا بالورود البلاستيكية بداخل إطار ذهبي مزخرف يرتفع إلى الأعلى، وينحني فوقهما كقبة من الورق الباهت، الهواء الدافئ يمر على الأنوار الساطعة، فلا يغير شيئًا من نور المصابيح التي تطغى في المكان بألوان شتى، ويمر أيضًا على وجهيهما، فيزيده ارتباكًا عبر تعابير ملفعة بالاستحياء والخجل الذي رمى بهما شعور بالتفكير في المرحلة التي ما بعد هذا العرس البهيج.

تذكرها أنور عندما أخذت تنظر إلى وجهه وهي تزيح خصلة من شعرها قبل أن تعود وتطرق بصمت، عندما امتدت يده نحو يدها المرتعشة خلسة وأخذ يلامس نعومة أصابعها انتابه شعور صارخ أعلى من صوت المطرب الشعبي الذي صدح بالأغنية (السيه وليد السيه واشبو الحدر ع الميه)، أخذ يعلو به الغناء كلما زادت حدة الطرب، كان صوت المطرب كما صوت ضفدع عجوز يأتي من غابات بعيدة ومجهولة.

كان يتطلع إلى وجه زوجته أمينة في يوم زفافه، لم يصدق أنها تجلس في قربه الآن، تلبس الفستان الأبيض، ليست كما رآها أول مرة في القرية الواقعة على بعد عدة كيلو مترات من مركز مدينة السليمانية ، تذكرها عندما رآها أول مرة حين أقبلت نحوه وهي تمد له بيدها رمانة التقطها من دون أن يشعر، كان يراقبها في كل صباح ومساء، رآها تتراكض حافية القدمين على الأراضي المبلولة بثوبها الرث، تحاول أن تسترد بعضًا من خبز الدوق الذي سرقه الصبية، وجدها تحلب البقر في زاوية البيت، وتجمع نباتات الجت للأغنام، وتتفقد الدجاج، كانت كما نخلة الزهدي المنكوشة حين تسير بكل شموخ واعتزاز نحو البساتين، تلك النحيفة ذات الشعر الفاحم، لقد انتفخ كل شيء بجسدها، وتمخض عن ثنايا ناضجة، تكور نهداها وأجزاء من جسدها، شفتاها بدت أكثر احمرارًا ووجنتاها، أشد ما كان يميزها عيناها الخضراوان التي رسمت الخجل حين أطبقت جفنيها عليهما.

عندما خليا مع بعضهما في الغرفة، وقفت أمامه خجلة مطرقة الرأس، هائمة في عالم يجهله، هبت الريح الدافئة عبر النافذة المفتوحة التي حملت معها الغروب وشيئًا من الارتباك، اختلط الخجل مع حر تلك الليلة التي أخذت تحول قطرات العرق إلى خطوط تسيح على جبينهما، سحبت يديها العالقة في يديه وجلست في بلاهة متعمدة على طرف السرير، تركت أنور يتجه نحوها دون أن تنبس بأية كلمة، عندما جلس بقربها، لم يسقط ناظريه عنها، ما لبث وأن اقترب منها أكثر حتى أصبح وجهه ملاصقًا لوجهها، زادت حرارة الجو حين أقدم وقبلها على خدها، انحدرت أنفاسه الملتهبة إلى أن وصلت إلى أطراف شفتيها التي أخذت ترتجف ما لبث وأن التحمت شفتاهما بقبلة طويلة تعالت من خلالها الأنفاس التي وصل مداها أبعد من رعشات سرت بجسديهما كما الزلزال ، بعدها تمدد جسداهما على السرير، والتحما بسيل من القبلات المحمومة ما لبث وإن انصهر الجسدان ليذهبا إلى مكان غير معلوم.

مضت ساعة كاملة والقطار لم يتوقف عند أية محطة تذكر، من بين الصمت المطبق يتعالى الشخير من آن لآخر في أماكن متفاوتة، تطلع أنور عبر النافذة ولم يرَ غير السواد والظلام، تململ قليلاً، مسح وجهه بقوة، أصلح من جلسته المتراخية، ثم أخرج علبة السجائر من جيب قميصه، سحب سيجارة وأشعلها في حركة مدروسة، ولكن جاءه الصوت من القرب متثاقلاً ، (منين أجيت أنت؟) ، رد عليه أنور بنفس

النبرة المتثاقلة وقال دون أن يلتفت التفاتة كاملة نحوه ، (من الناصرية) ، مضت لحظات من الصمت قبل أن يقول الرجل بصوت أكثر حدة ،(الشجرة الخبيثة) ، قالها بقوة بعد أن صك أسنانه وأخذ يتفحص ردة فعل أنور الذي بدا عليه عدم اللامبالاة وأردف ، (ضنيتك راح تضوج) لكن أنور رد عليه بنفس اللامبلاة ، (ليش أضوج ... هي مو هيچ)، لكن الرجل انتفض وأشار بإصبعه نحو وجه انور بحزم الواثق ،(اسمع يا أبو الشباب ، أنا أعرف عن الناصرية أكثر ما تعرف أنت وأكثر) فما كان من أنور الا انتبه له وقال ، (كلش زين ، چا منين انت) بعدها أخذ الرجل يضحك ضحكة متقطعة وهو يقول ،(أنا هم من الناصرية) .

قال ذلك وهو مستمر بضحكته ، يعلو بها حينًا وأحينًا تضيع تحت رشفات من الهواء كاد يفقدها، أخذ يسحبها عنوة من تحت شدقيه، تطلع بعينين كادتا أن تدمعا، وأسهب بالحديث عن قريته الواقعة بأعماق مدينة الناصرية في الأهوار، ملتقى نهري دجلة والفرات، قال إن بيته يقع داخل المسطحات المائية التي تحاوطه من كل جانب، تحدث عن تنقلاته من مكان إلى آخر بقارب المشحوف الصغير الذي دائمًا ما يتجول به ليصطاد الأسماك، تحدث عن حبه إلى الطيور المهاجرة التي تأتي من البعيد وتحط قرب مساحات مائية واسعة بألوان شتى، وهو يحاول دائمًا أن يقتنص العديد منها بدراية الصياد الماهر حين يجعلهم يلتقطون الحبوب المتبقية بعد موسم

الحصاد من داخل فخاخ نصبها لهم، قال إنه دائمًا ما كان يخاطبهم، يسألهم عن وجهتهم حين يكونوا بين يديه ومن أين أتوا قبل أن يطلقهم في الفضاء مرة أخرى ، قال أنه يعتزل الصيد حين يأتي الشتاء ، يتابع الطيور وهي تفرد أجنحتها وترحل مودعة مساحات القصب والبردي، تعبر الأراضي الملحية والتلال الواطئة، وتغيب نحو الجنوب حيث الدفء، حينها لن يتبقى سوى طيور الخضيري والحذاف والبريش تملأ سماء الأهوار ومستنقعاتها الضحلة بعيدًا، تطير وتحط فوق ظهور الجاموس المتآلف ، كان يريد أن يسهب بالوصف، ولكن ملامح وجهه تغيرت فجأة حين تكلم بكل أسى عن قريته البائسة التي رحّلت الحكومة أهاليها قسرًا إلى أماكن غير معلومة، تحدث عن الماء الذي أخذ يجف شيئًا فشيئًا بعد أن سيروا النهر الصناعي وتركوا سمك "البني" ينازع الحياة في الأطراف.

كان عمره يتراوح بين الأربعين والخامسة والأربعين، ذا سحنة أقرب للهندية، وجه دائري وشعر كثيف يميل إلى البياض، يلبس نظارة طبية سميكة مطروحة على أنف مفلطح يرتسم تحته شارب خفيف كأنه لزق فوق شفتين غليظتين ملفتتين للنظر، كان مرحًا يتمتع بالحيوية والذكاء، لماحًا وذكيًا، يحب الحياة على طريقته الخاصة، عرف نفسه بالأستاذ "غافل حسين مطرود"، مدرس للفيزياء في مدرسة في منطقة المحمودية البعيدة عن مسقط رأسه مئات الكيلو مترات، تحدث بإسهاب عن سنوات دراسته

التي قضاها في العاصمة السوفيتية موسكو، وعن تناقضات الحضارة والمناخ والثلوج والبرد الشديدين، عن سيارات الموسكوفيتش والفولغا، والمنازل الخشبية والطرقات الملحية، وأيضًا تكلم عن جمال البنات هناك وخصوصًا صديقته الأوكرانية "بتروشيا" التي قال عنها أنها النقية التي قضى معها أجمل أيام حياته حين كان شابًا ذا خصوبة، أخذ يصف جسدها الرشيق، وشعرها الأصفر الطويل، وعينيها الواسعتين وكأنه يرى أمامه حلمًا لم يحب أن يستيقظ منه، لم ينس أن يتكلم عن ليالي المجون والرقص واللعب، وكيف كان يحمل قنينة الفودكا في جيبه أينما يحل ويرتحل.

لم يترك مكانًا للرد أو التعليق، فقد مضى الوقت سريعًا ولم يأبه بتزاحم الركاب الذين أخذوا ينسلون عبر الممرات بعد أن توقف القطار في محطة المحمودية، لم يدع مجالًا للرد، أراد أن يسترسل في الحديث لولا أن أنور وضع يده على فمه ونبهه بصوت عال عن محطته التي لا بد أن ينزل بها، عندما انتبه إلى حركة أنور قام مفزوعًا، حمل حقيبته وبطانيته واتجه إلى باب المقطورة، وقبل أن يخرج استدار وانتبه إلى أنور وكأنه تذكر شيئًا مهمًا قد نسيه ثم قال له: (وين أشوفك المرة الجاية) ، لكن أنور طوح له بيديه، بحركة أشبه برمي كرة مطاطية من مرتفع عال، قال وكأنه لا يريد أن يسمعه أحد غيره ،(يمكن ما راح تشوفني بعد هاي المرة هنا)، بعدها عاد الرجل

وأمسك ذراع أنور، عصره بقوة، ارتبك بعض الشيء، لكنه تدارك تصرفه وقال ،(تريد تروح للخارج؟) فرد عليه أنور بحذر(بعد ما بيها مجال ، راح افلت) .

كان أنور حذرًا في كل شيء، لم يكن يريد أن يتكلم عما ينوي القدوم عليه، لذلك ظل صامتًا، ولم يجبه على سؤاله في بادئ الأمر، مما دعا الرجل إلى أن يشد على ذراع أنور بقوة، ويقترب منه أكثر وكأنه يريد أن يفضي له بسر في أذنه، كلماته كانت أيضا حذرة عندما قال قبل أن يعود ويتجه إلى الخارج القطار (اذا قدرت تروح روح ، لا تبقى هنا دقيقة وحده ، روح افلت) بعدها نزل من القطار، وقف واجمًا في الخارج وهو يركز بوجه أنور المنكس من خلف زجاج نافذة القطار، لم يلوح له بيده بعد أن بدأ القطار بالتحرك بطيئًا مواصلًا مسيرته، ولكن عندما التفت إليه أنور للمرة الأخيرة ليودعه، لم يجده هذه المرة لوحده، فقد كان هناك ثلاثة رجال التفوا حوله وهو متجمد في مكانه، اثنان منهما يلبسان الزي العسكري والآخر مدني، أخذوا يتكلمون معه بحدة وغضب وهو صامت يتطلع بوجه أنور بنظرات أكدت كلامه (افلت ... افلت) ما لبثوا وأن سحبوه معهم إلى طريق آخر، حينها بدأ القطار يزيد من سرعته.

لقد شكلت الأحداث والذكريات زحامًا يتخبط في ذاكرة انور، أخذ يتذكر وجوه الشخوص الوافدين وكأنها أشباح من هواجس خفية تتطاير في جو الغرفة الخامل، يجيئون ويذهبون وهو ممدد على الأريكة في الظلمة، لكنه أراد أن يطرد كل الأطياف

من مخيلته عندما أصلح من جلسته، عطس ثلاث مرات متتالية أحسها تحتقن بالأعصاب وتكاد أن تفجر رأسه الذي بدأ يتصبب منه العرق الذي ملأ باقي جسده وأخذ يغسل البدن، أيقن بأنه سوف يكون بحال سيء بعد أن أحس بسريان الألم في جسده المسترخي، جلوسه الطويل تحت المطر عند ملعب الغولف أثر على صدره الذي بدا ثقيلًا ، كان يود أن تكون صديقته راشيل معه في هذه اللحظات، أخذ يترقب مجيئها في أية لحظة، ما زال أمله بعودتها باقيًا رغم كلماتها الأخيرة التي اعتبرها فاحشة (أنور لقد أصبح جسدي ملك الطبيعة، الحب لمن قست قلوبهم على أنفسهم، لقد ركلت المألوف منذ زمن بعيد) .

تذكرها عندما كانت تغني كما اعتادت أن تفعل ذلك وهي تقف أمامه، كان رنين صوتها ينساب عبر الهواء الساكن فيصل إلى مسامعه كالنغم الذي تنثره الأوتار الحزينة على سطح شفاف، إذ أنه كان يتصوره يأتي من ماض سحيق وهو يحاول أن يسمعها مغمض العينين، دائمًا ما يتخيل أن صوتها كان يجذب أشباحًا بأشكال شتى يلبسون أقنعة ملونة تتطاير حول جسدها، يعبرون بركًا من الماء الذي غطى سطحه الزنبق الأبيض، يرددون أناشيدَ تبعث الدفء في المكان، كان لقربها طعم آخر غير كل المرافئ القديمة التي تنتظر القوارب بشغف لا يضاهيه حنين حقول القمح الصفراء ساعة الغروب ، لقد أحس أنور بالفراغ بعدها، أدرك أنه لا بد أن يجد طريقًا لتغيير

نمط حياته الرتيبة، أراد أن يغير كل شيء حوله ويبدأ من جديد، لكنه بعد أن تعب من التفكير أمسك ورقة بيضاء وقلمًا، بدأ يخط خطوطه المتشابكة على وجه الصفحة، دائمًا ما تكون هذه الخطوط المتعارضة تنتج عنها أشكال من المثلثات والمربعات المختلفة الأحجام التي يملأها بروية، فتبان على شكل مزخرف، كان دائمًا ما يمارس هذه العادة حين يريد أن يفكر بشيء له نتيجة.

3

البيض بالمقلاة، المقلاة على النار، النار تحول السائل اللزج إلى بيض مقلي، أضاف الملح وقليلًا من الفلفل الأسود في الوقت الذي بدأ البخار يتصاعد من إبريق الشاي بعدها أغلق جميع منافذ الغاز وانهمك يحضر وجبة الفطور في صباح هذا اليوم الذي أحسه غير كل الأيام، صداع في الرأس، أنفه حمل الألم في داخله سائل يغلي، عيناه بدتا حمراوين زائغتين، وجسد بدا أنه منهك، لم يعبأ بالخلل الناتج عبر فتحات أنفه في بداية الأمر، فلم يكن الزكام هو وحده من بين الكم الهائل من الأوجاع المزمنة التي توزعت توزيعًا عشوائيًا على باقي جسده المترهل، أحس بألم طارئ في الصدر، لم يكترث له في بداية الأمر، ولكنه حين اشتد عليه الألم كان لا بد له أن ينتبه ويأخذ حالته على محمل الجد.

جهاز التسجيل يصدح بأغاني البلوز منذ الصباح الباكر، من أية شقة يا ترى، ربما يكون من شقة الشاب المكسيكي المريب ذي الشعر الطويل وصديقته الإيطالية التي ضبطوها تمشي عارية في الممر مع جرو الدولفي الصغير في أحد أيام اكتمال القمر، أم أنها من شقة طلاب البعثة السعودية الذين طالما يعودون بمثل هذا الوقت المبكر

من سهراتهم الليلية الكثيرة ، فمن غير المعقول أن تكون من شقة العجوز "دارسون" الجنرال البريطاني المتقاعد ذي الأنف الطويل والعين الواحدة.

تناول ثلاثة أقراص من المسكن بعد أن فرغ من طعامه، شرب الشاي على مهل وأشعل سيجارة، أخذ نفسًا عميقًا، ولكنه سرعان ما أطفأها بعصبية بعد أن أحس بوخز في صدره، قام واتجه نحو النافذة، عندما أزاح الستار أدار عينيه بالأنحاء، ما زالت السماء مظلمة بعد أن توقف المطر، سكون في كل مكان، لا يوجد أناس ولا سيارات ولا حتى قطط أو كلاب، ولكن بدا بعض النور الضئيل يتضح من البعيد، ينساب بخجل بين الأودية والتلال التي رآها أنور واضحة أمامه وهو يتجه في طريقه لتخطي الحدود الفاصلة بين العراق وتركيا، كان الضباب يطغي على أضواء القرى الشاحبة البعيدة، فيحجب كل أمل بالحياة، ولكن لم تعد الحدود التركية العراقية بعيدة، ما هي إلا بضع ساعات ويكون قد فر إلى الخارج.

(كاكه من ورا هذا الجبل ، راح تلاقي من يدلك على الطريج) هذا ما قاله المهرب مام سردار بلكنة عربية مكسره ، وهو خلف مقود السيارة التي أوصلتهم بعد عناء طويل إلى ما قبل الحدود، حين نظر أنور إلى الأمام رأى الجبل الصخري رابضًا بتقاسيم غير متساوية، كانت تدرجاته القاسية تشعره بالرهبة والخوف وهو يركز على البيوت التي بنيت من الطابوق والحجارة على السفوح، بعضها شيد بمتانة وتراص والبعض الآخر

يبدو كما ركام من الحجارة يقبع به بعض المتلصصين وقطاع الطرق ، فيما بدا من البعيد بنايات لقواعد عسكرية للجيش الكردي البيشمركة.

(جو خوا نه براني تهتونب نيه)، لم يعرف أنور ماذا قال مام سردار بلغته الكردية وهو يلف مقود السيارة بعصبية، لكنه أكمل الإنصات له رغم تذمره الدائم بين حين وآخر، احتمله أنور على مضض ولم يعلق على رائحة فمه التي تشبه رائحة الكراث الذابل، عند أول الجبل، هكذا اتفق مع المهرب الذي أقله بسيارة نقل صغيرة متهالكة طوال الليل، كان يقف بين حين وآخر ويطفئ الأنوار خوفًا من أية نقطة تفتيش مفاجئة تفسد مسيرة الرحلة نحو الحدود أو أي طارئ عارض، مروا على أكثر المناطق وعورة، كانا قد التفا بالأمس حول قاعدة عسكرية كانت تتربص بالمهربين، فطالعتهما الصخور المتناثرة التي أعاقت الوصول إلى مبتغاهم لساعات.

منذ وصوله إلى مدينة زاخو آخر منطقة في الشمال العراقي، لم يجد أنور من يخاطر به للوصول إلى الحدود إلا مام سردار العجوز الذي أرغمه ابنه الكبير "أوديز" ذو الأربعين عامًا على خوض هذه التجربة من أجل أن يوفر قسمًا من مهره الذي لا بد أن يقدمه إلى ابنة الجيران التي أحبها حبًا كبيرًا خلال الأسبوع القادم، لم يكن لدى الأب باع طويل بتهريب الأشخاص، لكنه صرح عن عدة مهارات من مغامرات أخرى كان يتفاخر بها دائمًا أمام أنور، قال إنه كان يأكل عشر حبات من الفلفل الأحمر سويًا

دون أن يشرب الماء خلفها، وقال إنه وقف في الخارج عاريًا بلا ملابس ببرد ليالي شهر كانون الثاني لساعات عندما خسر لعبة الصقلة، كانت جل مغامراته عندما تحدى الجميع بأن ينام في البيت المهجور الذي كان يشاع عنه أنه مليء بالجن والأشباح في أطراف الجبل، والوقوف وجهًا لوجه أمام المرأة ذات الرجل المسلوخة التي تسكنه، كان يريد أن يثبت لأهالي القرية أنه يستطيع أن يفعل أعمالًا خطيرة من ضمنها التهريب بمبلغ لا بأس به وخاتم فضي ذي شذرة زرقاء أهداه أنور لعروس ابنه القادمة.

****

لم يعتد أنور على السفر كثيرًا، لم تتجاوز حدود سفره بعض المحافظات الجنوبية والشمالية وثلاث مرات إلى العاصمة بغداد بقيت راسخة في ذاكرته، في المرة الأولى كان قاصدًا لاستخراج شهادة الجنسية مع أبيه الذي ما إن وصل ورأى العمارات الطويلة حتى أثار تساؤلاً غريبًا على مسامعه عن كيفية الوصول إلى الطابق الأعلى من العمارة، الأمر الذي دعا أنور إلى أن يقول: (يمكن يستعملون المصياده) أما سفرته الثانية كانت مع صديقه "منشد" وهم في طريق عودتهم من الوحدة العسكرية التي كانت في مدينة كركوك أيام الحرب، قضوا يومًا كاملًا وهم يتجولون في أسواق وطرقات بغداد، يجلسون على ضفاف النهر ، عند المساء يطلبون وجبة من السمك المسقوف والمخلل النجفي والبصل الأحمر، لقد تكلموا كثيرًا في ذلك الوقت، حلموا

بالسكن في مدينة بغداد بعيدًا عن القرية والفلاحة في الأرض وجني بعض المواشي والدجاج ورص تمر الزهدي بالسلال، لقد كانا يحلمان بصوت مسموع، قال له منشد: (أتمنى أسكن بشقة بوحده من هاي العمارات على الشط، وسياره فولغا حتى لو نص عمر، وأتزوج حرمه بغدادية شعرها اصفر وطويله وتعرف تطبخ الدولمه) .

رحلة أنور الأخيرة كانت الأسوأ من بين كل السفرات على الإطلاق، عندما أصر منشد على الذهاب إلى الكاولية موطن الغجر الذين يبيعون الهوى، وهم في لباسهم العسكرية، كان منشد يحثه على السير نحو شارع ضن أنه المطلوب، لكنه كان مخطأ، وهج الظهيرة في ذلك اليوم بدا يصدر حفيف من لهب يمر على الأجساد فيلهبه ، أخذت الحرارة تسقط بلا رحمة على البيوت والأجساد المتبقية في الطرقات ، بالرغم من ذلك ، طفقا يبحثان عن مكان تجمع الكاولية بهمة ونشاط ، ولم تُجْد إلحاحات أنور لثنيه بالعدول عن نواياه، ولكن منشد سحب انور من يده بقوة وأخذ يقنعه بالسير خلفه ولا يبالي إلا بالنتائج المرضية، وجد نفسه ينصاع له بكل رضا المستكشفين، تتسابق رجلاه بالوصول إلى نهاية المغامرة، ربما كانت رغبته في الاكتشاف أشد حماسة من ممارسة الجنس ، ولكن بعد أن أعياهم التعب، كان لا بد لهم أن يسألوا أحد المارة عن مكان تواجدهم ولو كلفهم ذلك بعضًا من نظرات الازدراء، على استحياء سأل منشد أحد المارة عن مكان تواجد الكاولية، كان رجلًا في منتصف

العمر، تبسم لهم بخبث حين أخذ يدلهم على الطريق المؤدي إلى مكان تواجدهم وهو يشير إلى بيوت قديمة متراصة بداخل منطقة في الأطراف وبالأخص الأبواب الحمراء منها وقد بدا لهما الوصف سهلاً بعد أن تركهم الرجل وغادر وهو ينظر إليهم باحتقار.

حين أخذا يراوغان بين الأزقة في لهفة، وصلا إلى بيوت مبنية من الطابوق الرخيص المتآكل، أبوابها مختلفة ألوانه، كان هناك باب حديدي أحمر وحيد في آخر الزقاق، عندما اقتربا منه بعد عناء طفيف ترددا في طرقه عند البداية، ولكن منشد حزم أمره وأخذ يدق على الباب وهو يصلح من هندامه، أخذ يتبسم بوجه أنور الذي بدا عليه الخجل والإحراج، انتظرا قليلًا ولم يجب أحدًا، فما كان من منشد إلا أن فتح أصابع يده وربت بقوة مرة أخرى على الباب، مضى وقت طويل قبل أن يفتح الباب ويخرج منه رجل قصير صلب البنية، أشعث الرأس ذو وجه طولاني وشارب ضعيف يمر كخيط دخان أسود أسفل أنفه الطويل، يلتف حول جسده الذي بدا كبرميل حديدي ثوب قصير تساقطت على بعض أجزائه بقع من زيت سيارات وسخ وبعض من صلصة العنبة الصفراء، لقد شجعت هيئته الرثة على اختلاق منشد لسؤال لم يخطر على بال أنور حين قال: (مو هذا بيت أم علياء ؟) .

كان الرجل يتفحصهما باستغراب وبعينين ذابلتين، أخذ ينظر إلى وجه منشد الذي اختلطت قسمات وجهه بين الجرأة والخجل، قبل أن ينطق الرجل بأية كلمة بادره منشد بالحديث وقال: (هي ليله نخلصها ونمشي) حينها تبسم الرجل بحذق وعرف القصد من وجودهما أمامه، شرع الباب وأوسع لهما الطريق دون أن يتفوه بأية كلمة، تركهما في باحة البيت الواسعة وذهب إلى الداخل، ثلاث غرف بالواجهة تحتويها باحة مملوءة بقطع غيار السيارات، وبعض من مخلفات حديدية متناثرة، أحس أنور ببرودة المكان وهو ينظر بكل تأنيب إلى وجه منشد الذي استبشر خيرًا عندما أخذ يهز رأسه بشكل سريع ويضرب على كفيه وهو يفركهما بقوة بعد أن خص أنور بنظرة واثقة هي أقرب للنجاح والظفر، كان قد وعده بليلة حمراء قد تكون حديث القرية لسنين عديدة أو قد يضطر إلى بيع بعضٍ من الخراف ويعيد الكرة لاحقًا، ولكن بعد مضي وقت ليس بالقصير سمعا جلبة وأصواتًا عالية تأتي من داخل أحدى الغرف التي خرج منها رجال ونساء عديدون يحملون العصي الخشبية والمواسير الحديدية، هجموا عليهم مرة واحدة، عندما انتبها إلى الجمع الغاضب الذي أتاهم بغتة تنبها أنهما في خطر محدق إن هم بقيا أكثر من ثانية في هذا المكان لذلك أطلقا لرجليهما العنان وهم يهمون بالإسراع نحو الخارج، كانت أرجلهم أسرع من التفكير بالوقوف والرد على المهاجمين الذين أخذوا يقذفونهم بالأحذية والعصي، كادت المطرقة الحديدية التي أتت من الخلف أن تشج رأس منشد أو ترديه قتيلًا، ولكنه تفاداها عندما ولج بسرعته العالية

أحد الفروع الضيقة، وغاب فيها، لقد كان هذا آخر عهده في بغداد وآخر عهده بصديق الطفولة والعنفوان منشد الذي هرب إلى البعيد ولم يعد منذ ذلك الوقت.

عندما أطفأ مام سردار محرك السيارة، أخذ يتمعن بما حوله من خلف الزجاج، أصاخ السمع قليلًا وقال دون أن يلتفت إلى أنور: (كاكه تشوف هذا الجبل اللي چدامك) وأردف بعد تطلع بوجه أنور المصغي ،(لازم تمشيه وحدك ، ساعه وحده بس راح توصل للطرف اللاخ بالحدود التركية) لكن أنور قال متسائلا ،(بس ما أعرف أحد هناك !).فرد عليه العجوز سردار وقال ،(هما راح يعرفوك ... هاي منطقة مهربين) بعدها تفحص مام سردار بوجه أنور وقال بلغته الكردية ،(هو أي سة ركه وتنت بؤدة خوازم) بعدها تدارك موقفه عندما وجده لم يفهم ما قاله وأعقبها بابتسامة رسمها على وجهه لأول مرة منذ أن خرجا ثم قال ،(قصدي... أتمنى تتوفق كاكه).

حمل أنور حقيبته وترجل من السيارة، مشى خطوات قليلة قبل أن يودع مام سردار الذي قال له (ده بي بضم) بعدها أدار محرك السيارة وعاد بها من حيث أتى، ما لبثت وأن اختفت خلف الجبال واختفت معها رائحة الجاز التي ملأت أنف أنور الذي وقف وحده في الظلمة ، تلفت يمينًا ويسارًا قبل أن يشد حقيبته على ظهره بإحكام، ويبدأ المسير إلى الأمام نحو الجبل، لقد أصبح الغيب يشغله مناصفة مع ذكرياته، لم يقو في ذلك الوقت على النظر خلفه حتى لا تحتويه الدموع بلحظات هي الأقرب إلى

الحنين، فما من وجهة حددها أو مكان يلوذ به، فقط أراد أن يخلف الدروب القاحلة المظلمة وينطلق بعيدًا عن ويلات الحروب والحصار والجوع والألم وتهديدات القتل بعد أن دُمرت حياته بالكامل، أراد أن يذهب ويبتعد عن واقعه وكأنه يفتح شراع سفينة يجلس بها وحيدًا يبحر بلا وجهة معينة وبلا ربان.

(سلامًا يا أبي) ، عندما التفت أنور إليه في آخر مشهد رآه فيه وجده قرب الباب جالسًا القرفصاء، كان يحدق بعينين صامتين في القبور الأربعة المتصافة أمامه، أنين سمعه في داخله لما وطأ يقبل رأسه وهو يودعه في آخر اللحظات، كانت دموعه تسيل على خديه ولم تبرح عينيه شواهد القبور، قبر أمه وأخيه نوار وأيضًا قبر زوجته أمينة وابنته صباح، لقد ترك أباه يعاني الوحدة، في الصباحات يهيم بين الأزقة والدروب، وفي الليل يقبع بين جدران المقامات والأضرحة، تتلاطم من حوله وجوه وخيالات خلت به إلى عتمة مترامية الأطراف، يراها وحده ويحادثها، يرجوها ويستعطفها بالعودة، قالوا إنه تخلى عن روحه للشيطان في الفترة الأخيرة، نكر الذات وأخذ يمشي على غير هدى من أمره، يهيم في عالم آخر، التصق جلده المدبوغ على عظامه وأصبح نحيفًا هزيلًا تتناثر على وجهه لحية بيضاء كثة حتى بدا من غير ملامح تذكر، يبكي ويضحك أحيانًا من غير مبرر، يخط بعود قصب على الأرض خطوطًا مبهمة أشبه

بالكلمات الصينية، وقد أصبح مشهد إعدام ابنه "رائد " يتراءى له أمام ناظريه في كل حين.

كانوا في ذلك اليوم سبعة، أتوا في وضح النهار ببزاتهم العسكرية، الأخضر الزيتوني دائمًا، متجهمين، سابعهم مدنيًا ذو شارب غليظ وقسمات وجه قاسية، عرف نفسه بآمر شعبة في الحزب عندما قرأ حكم الإعدام، سريعًا كان الحدث، سحبوه إلى ساحة مواجهة للبيت، أحكموا وقوفه وأسندوه ثم شدوا وثاقه على جذع النخلة، أرادوا أن يكون عبرة لغيره من الذين لا يتبعون خطوات الشيطان، رسالة لكل من تسول له نفسه أن يعارض الدولة ولو بكلمة، لم تفلح الصرخات والرجاءات والدموع من أمه التي أخذت تصرخ بهستيرية وهي تقبل أحذية الجنود بأن يتركوه حيًا وسوف تأدبه هي على فعلته، لكنهم لم يلتفتوا إليها ، رصاصة واحدة في الرأس كانت أسرع من كل التوسلات، فقد خرت جثة "رائد" على الأرض، وارتمى معها جسدان في المقابل، أمه التي فارقت الحياة على الفور وأبوه الذي ركز بعينين منفرجتين على الدم الذي أخذ يسيل بالقرب منه.

وداعًا، سوف يغادر أنور يبحث عن بقاياه، في عيونه دموع من حنين وقلب يكسوه الحزن، لن تشغله تفاصيل الرغبة بالعودة إن هو نفذ إلى الطرف الآخر؛ لأنه إن عاد لن يجد شيئًا أمامه سوى الموت، مسح أنور دمعة سالت على خده، لوح لهم جميعًا من

فوق الهضبة وقال: (فيمان الله جميعا، راح تضلون بقلبي للأبد)، ثم اتجه نحو الجبل الذي بدأ يصعده بسرعة، حيث التفت عليه الظلمة واختفى بين الصخور.

عندما فتح جهاز التلفاز، انتقل بين المحطات العديدة التي حملت نفس الأخبار، الانفجارات والدمار والقتلى والنازحين والمخيمات والتشرد، أصبحت كل هذه الأحداث سمة الأوطان الغالبة للشرق الدامي وعنوانًا بارزًا للأخبار المتوافدة، وكأن قنبلة اليوم التي انفجرت بعد تحرير بغداد هي ذاتها قنبلة الأمس التي انفجرت في عصر الإنسان الأول حين أقدم الإنسان على قتل أخيه الإنسان بدافع الوجود، ملحمة الضد ونقيضه، الرفض ورفض الآخر، التعصب والتعصب المقابل، فلم يعد هنالك بعد اليوم فرق بين الأسود والأسود الآخر ، حين رن جرس الهاتف، فتح أنور جهاز المحمول ليجد على الطرف الآخر كردينوس الطباخ الذي قال له بشيء من اللباقة:

–أنور، هل تستطيع أن تأتي إلى العمل اليوم، نحن بحاجتك.

كان صوته يميل إلى التوسل، فهو يعلم أن اليوم عطلة أنور الأسبوعية، لكنه أردف عندما وجد أنور صامتًا وقال:

– سوف نعوضك في يوم آخر، هذا ما قالته السيدة ثريا.

أراد أنور أن يعتذر عن المجيء، فهو لا يقوى على العمل اليوم بالذات، الزكام وصداع في الرأس وآلام في الصدر، لكن اليوم الجمعة، عطلة آخر الأسبوع، قمة الحركة.

ـ أنا لست على ما يرام كردينوس، أحس بوعكة صحية.

قال ذلك بلطف وهو يستمع إلى صوت الطباخ كردينوس الذي جاءه متوسلاً.

ـ لا يوجد أحد غيرك عزيزي نلجأ إليه، فالعامل السوري تعرض لحادث سير.

- حسنا .

قال كردينوس وهو يلاطفه قبل أن يغلق المكالمة.

ـ بالمناسبة، لا تنس أن تلبس حذاءك الذكي، في المرة السابقة دلني على طبق التونا المعجون بدبس الرمان، واليوم فتشت ولم أجد طبق الفلفل البارد المحشو بالرز المصري.

احتقن وجه أنور الذي استاء مما سمع، وأغلق جهاز الهاتف بعصبية، لكن خبر صديقه العامل السوري وما تعرض له أجبره على تغيير رأيه، أخذ يميل إلى الهدوء، ثم قام ولبس ملابسه على عجل، حمل حقيبته الجلدية وعزم على الخروج.

(لقد أسفر الانفجار عن قتل ثلاثين مواطنًا وجرح العشرات)، أغلق جهاز التلفاز ثم خرج وأقفل الباب من ورائه بالمفتاح، كان صوت الموسيقى ما زال مرتفعًا، الغناء هذه

المرة عربيًا (فوق عالي السما يا أحلى بلد)، تبسم وسار عبر الممر، وجد السيد دارسون في طريقه يتمشى في الممر كالعادة، ممسكًا بحمالته الحديدية التي يجرها معه أينما ذهب، والتي تحمل جهاز القلب الإلكتروني الذي تخرج منه الأنابيب الرفيعة والأسلاك الملونة التي تحاوط جسمه الضئيل، تطلع الى وجهه ، هو ذات الوجه الرفيع الذي غطت عين من عينيه رقعة سوداء مربوطة حول الرأس الأصلع ، عندما ألقى عليه التحية، لم يتلق منه أي جواب، وعندما أراد الخروج من باب العمارة الرئيس سمع صوته يناديه.

ـ سيد ماشين، هل بدأ الهجوم البري على برلين يا رجل.

لم يفهم أنور مغزى كلامه، لكنه تبسم له، رفع كتفيه الى الأعلى من دون ان يتكلم وتركه ينظر إليه بعين واحدة من الاستغراب.

٤

جلس قرب النافذة المطلة على شارع "البرت" في وقت الظهيرة، بعد فترة الغداء، تخف حركة سير السيارات والناس نسبيًا وتبدأ في هذا الوقت حركة المطعم تميل إلى الهدوء أيضًا بعد عناء كبير من الحركة الصباحية التي تكون في ذروتها قبل منتصف النهار إلا من بعض الزبائن الذين يتوزعون على طاولات متباعدة في صالة المطعم الواسعة، كردينوس الطباخ والسيدة ثريا اللبنانية صاحبة المطعم أخذا ينظمان بعض الحاجيات والكراسي استعدادًا للفترة المسائية، لم يقو أنور على مساعدتهما، فالساعات التي قضاها في غسل الصحون كانت ثقيلة وكفيلة بأن ترديه على الكرسي الخشبي ككومة من لحم غير متناسقة.

أخذ أنور يتطلع بفتاة الإعلان التي كانت تضحك بملء شدقيها فرحة في الصحيفة التي أمامه، تغري الأنظار بجسد شبه عار ممدد على الشاطئ، وهي تلبس ملابسها الشفافة، قرأ الإعلان الذي كان يحتوي على مواصفات الفتاة الجسمية والعروض الجنسية التي تثير الانتباه فضلًا عن أرقام لتليفونات بخطوط بارزة، لكنه أحس بحركة الصحيفة التي أخذت تتمايل وتتزحزح أمامه فجأة، تحركت الحروف والأرقام أيضًا وأخذت تهتز أمامه ثم ما لبثت وأن تطايرت فجأة على وجه أنور الذي جفل وأبعد

جسده إلى الخلف، أسند ظهره على استقامة الكرسي الخشبي الذي أحدث صوت صرير تنبهت إليه النادلة "روزي" من بعيد.

ـ أنور، كوبًا من القهوة.

حين أدار رأسه نحوها بحركة نصف دائرية أومأ برأسه لها وعاد يتطلع إلى الصحيفة مرة أخرى، وأخذ يركز على صورة الفتاة التي ما زالت على هيأتها متمددة على الشاطئ وعلى نفس ضحكتها الفرحة والأرقام ثابتة ، أشاح برأسه وعاد ينظر عبر النافذة بشرود، لفت انتباهه رجل كبير في السن، يقبع بجانب مقهى "الستار باكس" قد بدا من ثيابه المتسخة ككومة من فحم مبلول على الرصيف المقابل، أشد ما كان يميزه لحية بيضاء طويلة منسابة، وشعر طويل متناثر يخرج من أسفل قبعة طويلة الأطراف بدت مثل قبعة رعاة البقر، لم يكسر جمود وجهه بعض المارة الذين أخذوا يرمون بقطع نقدية صغيرة داخل صفيحة معدنية صدئة وضعها أمامه.

ـ واحد كريمة وثلاث ملاعق سكر ... كالعادة.

ـ شكرًا لك روزي.

حين وضعت روزي كوب القهوة خاصتها على الطاولة، أرادت أن تجلس قبالته لولا أن صوت السيدة "ثريا" صاحبة المطعم الذي كان يناديها باستعجال من خلف فتحة بالمطبخ .

–روزي الطلب جاهز ... طاولة رقم سبعة .

لم تكن روزي على قدر كافٍ من الجمال، ملامحها المقبولة أوحت بأن لها ميزة أخرى من جمال لم يكتشفها أنور، أسنانها شبه المتكسرة بانت على شكل غير متناسق من أثر ممارستها لوي قطع الحديد الصغيرة بأسنانها التي بدت متآكلة، اعتادت على ذلك منذ الصغر، في الأربعين من العمر تقريبًا، اضطراباتها المعوية تنعكس دائمًا على وجه شبه متجهم، ولكنها نشطة وسريعة، ذكية وحذقة، عندما تحب أن تتكلم فإنها دائمًا ما تتحدث كثيرًا عن مدينتها الأرمينية التي نسيها الزمن وبقيت على الهامش، تتكلم عن ذكريات جدتها التي تروي لها الاضطهاد في عهد الحكم العثماني والإبادة الجماعية التي تعرض لها الشعب الأرمني وهي تخيط الجوارب القطنية بمسلات حديدية ، دائمًا ما تثير زوبعة من المشادات الكلامية مع باقي طاقم المطعم، جريئة وتتجادل كثيرًا وتتناقش مع كردينوس الطباخ الذي دائمًا ما يستدرجها ويثير غضبها عندما يتحدث عن أصولها القوقازية التي أتت من أواسط آسيا، لكنتها الإنجليزية المتعثرة التي عندما تختلط مع لغتها الأم تصبح على شاكلة طفل صغير يتعلم النطق لأول مرة، هي واحدة

من أربع نادلات يعملن في المطعم، رغم غياب الأخريات أو انقطاعهن عن العمل بسبب ظروف متفاوتة، تبقى هي ثابتة منذ فترة طويلة مما جعل السيدة ثريا صاحبة المطعم تتمسك بها بالرغم من تذمرها من المناوشات المختلقة التي تثيرها روزي بين طاقم بقية العمال، ولكنها تتلذذ في بعض الأحيان برؤية المناوشات والصراعات الخفيفة على أنها تضفي جوًا من المرح في وقت الاستراحة، لكنها طيبة القلب ورقيقة في بعض الأحيان عندما تميل إلى الهدوء بعد أن تكون قد أكلت السبانخ الممزوج بالثوم والخل والفلفل وتلتهمه كالطفلة المتوحدة في زاوية من المطعم.

كان أنور سارحًا عبر النافذة يتابع المتسول القابع على الطرف الآخر من الطريق، حين اهتزت الطاولة فجأة أمامه، ارتعش كوب القهوة، هواء بارد لفحه من اتجاه النافذة الموصدة، قطب جبينه واستعد لأمر طارئ، حاول الوقوف على قدميه، ولكنه تجمد على الكرسي عندما سمع صوتًا رفيعًا يأتي من السقف يناديه باسمه، حين رفع رأسه عاليًا ، كان هناك جسد هلامي لمرأة معلقة تسبح في الهواء، جسد سيدة جميلة تتطلع إليه وحده بعينين زرقاوين، وجهها يميل إلى اللون الزهري يعلوه تاج مرصع بأحجار لامعة، مثبت فوق شعرها الأصفر الطويل المتجعد الذي بدا منثورًا على ثوب أبيض فضفاض صاف وشفاف يمتد من الأعلى إلى الأسفل، حين كانت تقترب نحوه شيئًا

فشيئًا أخذت تفتح ذراعيها وتمدهما بكفين مفتوحتين عندها انتبه أنور إلى رسغها الذي نقش عليه فرجار هندسي بداخل دائرة.

أخذ أنور يتطلع فيما حوله مذهولًا، أشاح برأسه داخل الصالة، لا أحد سوى روزي تصفف بعض الأطباق خلف الطاولة الخشبية الطويلة، حاول أن يناديها ولم يقدر وكأن لسانه عقد، ارتبك وأدار رأسه نحو المرأة ببطء يريد أن يتحقق من صدق رؤياه، ما زالت تحلق في المكان أمامه، تطلع في وجهها مدهوشًا بعينين منفرجتين وهو يسمعها تناديه باسمه بشكل حالم "ماااااشين" لكنها وبعد أن سبحت في الهواء عادت ترتفع مرة أخرى نحو الأعلى ببطء، حلقت عاليًا وأخذت تقترب من السقف الذي لم يمنع ولوج جسدها من خلاله وتبددت كالبخار ، اختفت وكأنها لم تكن ، أدار أنور رأسه مرة أخرى نحو روزي النادلة بذهول، وأخذ ينادي عليها بتثاقل ،عندها أقبلت روزي نحوه وجاءته على عجل ، كانت تحمل معها بعض الصحون ، وقفت بقربه، أشار بإصبعه إلى الأعلى وتمتم بكلمات مبحوحة بدت غير مفهومة بالنسبة لها.

ـ هل رأيت ... ما رأيت.

لكنها اقتربت منه أكثر حتى كادت أن تلصق خدها بخده تريد أن تسمعه بوضوح، قالت وهي تقرب أذنها نحوه.

ـ هل تود تغيير القهوة؟

لكن أنور قال بكلمات متسارعة مخفوقة قبل أن يبلع ريقه على مرحلتين.

ـ هل .. رأيت ... المرأة.

ولم يزد على ذلك، ترك روزي واقفة أمامه واجمة تنظر إلى كوب القهوة الراكد، بعدها رفع رأسه إلى الأعلى، ركز ناظريه في السقف واستقر بلا حركة لبرهة حينها مطت روزي شفتيها بامتعاض ما لبثت وأن عادت بنفس الخطى السريعة إلى مكانها تصفف الصحون، وأخذت تنظر باستغراب إلى أنور الذي ما زال يتطلع حوله ببلاهة في صالة المطعم يبحث عن تفسير لما حدث ، حين أدار رأسه نحو النافذة واستقر بصره على العجوز المتسول القابع في الطرف الآخر من الشارع، وجده ما زال جالسًا بصمته، ولكن حين ركز على شعار مقهى الستار باكس الدائرية، لم يكن الغريب اختفاء صورة رأس المرأة ذات الشعر الطويل والتاج المرصع داخل الشعار، ولكن الأغرب من ذلك عندما رأى العجوز المتسول يقف فجأة وقد زم أمتعته على ظهره، ما لبث وأن فتح ذراعيه على اتساع، وأخذ يرفرف كالطيور محاولًا الطيران، بعدها مضى يتقفز إلى نهاية الشارع، واختفى بداخل الزحام وما هي إلا بضع لحظات حتى رآه أنور مرة أخرى يعود، ولكنه كان يحلق في السماء بين العمارات الطويلة إلى أن اختفى في السماء ، حينها انفرجت أساريره من الضحك بهستيرية ولم ينتبه إلى السيدة ثريا صاحبة المطعم

والطباخ كردينوس وهما ينظران إليه في استغراب ومن خلفهم تقف روزي تحاول كتم ضحكتها بيديها الاثنتين.

****

انكب يودع آخر دفعة من الأطباق داخل ماكنة الغسيل معلنًا عن نهاية عمله لهذا اليوم، شعر بآلام في رقبته ومفاصله، ارتعشت يداه وأحس بوهن جسده وعظامه، أسند ظهره إلى الحائط ولم يقوَ على إكمال العمل أكثر من ذلك، فقد خارت قواه من شدة الألم، لكنه تحامل على نفسه حين نزع المريول ورماه على كومة الأطباق وسار عبر الممر الذي يفصل المطبخ عن صالة المطعم يريد أن يخرج ويستنشق بعض الهواء، لكنه وجد كردينوس الطباخ بمواجهته يحمل بين يديه طبقًا من أكلته الجديدة ويمدها إليه، أخذ يتكلم عن مكوناتها ويقول بحماسة.

ـ تتكون الطبخة من كعب بقرة مطحون، ومصران معزة برية مع الباذنجان المهروس، لا بد أنها سوف تعجبك.

عندما قربها نحو أنف أنور تغلغلت عبر خياشيمه رائحة نفاذة كرائحة الجير الذي تطلى به الشوارع الاسفلتية، قال له أنور بازدراء.

ـ إنها تبدو كمخاط ديناصور.

في هذا الوقت طالعتهما السيدة ثريا مسرعة في المنتصف، كادت أن تصطدم بأنور الذي جفل منها، لكنها تفادت ذلك عندما أسندت يدها على حافة الفرن الساخن ما لبثت وأن رفعتها بسرعة بعد أن أحست بلسعة الحرارة، مما دعاها إلى الابتعاد والارتماء على صدر أنور الذي احتضنها بيديه الاثنتين ومنعها من السقوط، لكنها تداركت ذلك وأصلحت من وقفتها وعادت إلى الوراء قليلاً.

ـ أنا آسفة، لقد كنت عجولة بعض الشيء.

لم يستطع الرد ، احس ان الهواء قد انقطع وان أنفاسه صعبه ، لكنه تحامل نفسه وقال بصوت اشبه بالمبحوح .

ـ سوف أذهب، لن أقوى على القدوم غدًا ... أنا تعبان جدًا.

ـ هل أنت مريض.

ـ رغمًا عني أتيت هذا اليوم.

حينها أخذت السيدة ثريا تمسح بيدها على جبين أنور بحنان وأدارتها حول خده وقالت بشيء من الرقة.

ـ حرارتك مرتفعة جدًا، لا بد لك من طبيب .

حنونة طيبة، نشطة ودؤوبة، تلك هي السيدة ثريا، أشد ما يميز وجهها الأبيض شامة بطرف خدها الأيمن، بدت ككوكب صغير في سماء صافية، عيناها الغائرة كأنها عالقة في أفق بعيد تكسوهما هالة من الشحوب والسواد، شعرها القصير لم يكن دليلاً على صغر سنها، ولكنها تقول دائمًا أن هذا مناسب بالنسبة للعمل، لقد جاءت هاربة من وطنها أبان الحرب الأهلية اللبنانية مع زوجها الطبيب البيطري "توني"، استقرا في العاصمة اوتاوا بعد معاناة رحلة الخلاص من الموت، ولكن معاناة الغربة لم تثنيهماعن تكوين هذا المطعم الذي هو نتاج كفاحهما خلال عشر سنوات من العمل الدؤوب، قضوا سنوات طويلة في الغربة قبل أن يعود زوجها لوحده إلى لبنان مرة أخرى لزيارة أبيه المصاب بداء النقرس في قريته المطلة على البحر الأبيض المتوسط، وقد ترك في أحشائها طفلتها الوحيدة "ديما" التي أتت بعد جهد جهيد، ولم يعد منذ ذلك الحين، لقد قتل هناك غدرًا حسب ما تناقلته الأخبار، وظل سبب موته غامضًا، لم تفصح السيدة ثريا ساعتها عن سبب موته الحقيقي، لكنها بعد مضي وقت ليس بالطويل أزاحت كل صور زوجها من على الجدران، واستبدلتها بصورة ورقة بنت الديناري مكبرة، خلعت عن يدها إسوارة ذهبية وربطت صليبًا فضيًا صغيرًا حول رسغها الأيمن، وأخذت تسرح في عالم آخر أيامًا طويلة، راق لها شرب الكاكاو الممزوج بقليل من الكحول تضعه بكوب شاي فارغ، أخذت تأكل اللوز الأخضر بشراهة، تقضي أغلب ساعات يومها تعمل بجد في المطعم من الصباح إلى الليل، حتى أصبحت كماكنة

غسيل الأطباق التي يعمل عليها أنور، ثم تعود بعد ذلك إلى بيتها منهكة في الليل، خائفة متوجسة من كل ما حولها محبطة وحزينة، تترك حسراتها الطويلة على الأعتاب، وتخلد للنوم سريعًا بعد أن تكشف عن موقع بنت الديناري في أوراق اللعب، ثم ترقد بسلام استعدادًا لصباح يوم مضني جديد.

قبل أن يهم أنور بالمسير تاركا خلفه السيدة ثريا واجمه، استوقفته روزي النادلة قرب الباب تحمل بيدها كوبًا من الماء، وباليد الأخرى حبات من الأسبيرين، وأمرته بأن يبتلعها وقالت:

ـ ربما ستخفف حبات الأسبيرين هذه شيئًا من الآلام.

حينها شكرها على عطفها بعد أن ابتلع الحبات على عجل وقال إنه سوف يكون على ما يرام إن هو عاد إلى البيت سريعًا، لكن روزي قالت له بكل حدة لم تخلُ من عاطفة قبل أن تستدير مسرعة وتختفي بالداخل:

ـ يجب أن ترى طبيبًا، سوف آتي معك إلى المستشفى، انتظرني.

ـ لا لا داعي لذلك، آلام بسيطة.

أخذ يسير بعجلة نحو محطة الباص التي وصل إليها سريعًا، تعثر في حافة الدرج عندما أراد الصعود وكاد أن يسقط، لكنه تحامل على نفسه بخطواته الثقيلة، وارتقى

الدرجات، أحس بالخدر في جسده عندما صعد وارتمى على أول مقعد وجده فارغًا أمامه، أخذت سرعة الباص تزداد كلما ابتعد عن مركز المدينة مخلفًا وراءه المباني والعمارات التي بانت كقطع إسمنتية مستطيلة قد قذفتها السماء على الأرض الواسعة بعشوائية، أخذ أنور يتطلع عبر نافذة الباص وهو يتذكر كيف رشحته الأقدار في الوصول إلى كندا، هذه هي البلاد التي هاجر إليها وأحبها وقرأ عن تاريخها كثيرًا، الأراضي الشاسعة التي اعتقد أن لا حدود لها، تتقاسمها ولايات تكاد تحمل نفس الملامح لا تربطها سوى خطوط سريعة عبدت من أجل المسافات الطويلة، الأشجار الكثيفة، الأنهار والمسطحات المائية الواسعة وجبال الجليد التي تقبع في القسم الشمالي المتجمد الذي دائمًا ما يكون غير مأهول بالسكان، لأن أغلب السكان يقطنون في القسم الجنوبي من البلاد.

أخذ أنور يتصور كيف كان كريستوفر كولومبوس عندما اصطدمت سفينته بحافات الأرض البكر ، ليجد شعوب الأوراك والتاتينو في طرف من العالم القصي أشبه ما يكون منسياً أو خارج نطاق المعقول ، لقد صدم كولومبوس بالجمع العري البسيط الذي استقبله بالرز على ورق المانجو العريضة عندما وطأ جزيرة سان سلفادور ، رأى شعوبا بدائية أشبه بالهنود ، كان أشد ما يميزهم تلك السحنة التي تميل الى الاحمرار ، فقد كان لا يعتقد بعدم وجود حياة أبعد من حدود أوروبا والشرق .

هكذا بدأت شمال أمريكا ببساطة ، الأقدار التي فرضت عهداً جديداً لأوروبا التي بدأت تزدهر فيها التجارة ، وبدأ تاريخاً جديداً ترسخت به عقلية الاستيطان والاستقرار واستغلال الثروات ، واستصلاح الأراضي المكتشفة بعد طرد الهنود الحمر ، فقد بات من الواضح أنهم وجدوا أن كل تلك الأراضي الواسعة ما هي إلا بديل للحلم الأوروبي الجديد ، لقد كانت الحركة متسارعة في أمريكا الشمالية من أجل بناء الوطن البديل في فترة قياسية وصلت الى مراحل غير مسبوقة من التطور السريع ، في الوقت الذي توقف التاريخ في الشرق المتوسط ولم تتوقف المتغيرات في أمريكا الشمالية ، أخذ أنور يتسائل في قرارة نفسه ، كيف قبل الإنسان الأوروبي التحدي بالرغم من كل الصعوبات التي كانت تواجهه في بناء دولة على هذا القدر من التطور بسرعة قياسية ليرفع علماً خفاقاً فوق الجبل المتجمد يزينه شعار ورقة القيقب الحمراء.

تمنى أنور أن يصل إلى الشقة بعد أن نزل من الباص بأسرع ما يمكن، تحامل على نفسه وانطلق من خلال ممر ضيق مختصر يصل به إلى الباب الخلفي من العمارة، لم يعبأ بالشجيرات التي أخذت تهتز في أجزاء منها، لكنه توقف فجأة عندما رأى شبح جسد امرأة يخرج من خلف الشجيرات، وأخذ يقترب نحوه ببطء، انتظر ثوان معدودة، أراد بها أن يحسم صدق ما رآه، تفحص الوجه بعينين زائغتين وبدأ يراها من وراء لوحة بدت كالغبش، وقال بصوت غير مسموع: "راشيل".

أراد أن يعانقها ويضمها إلى صدره، كان يود أن يقول لها أن رحيلها عنه قد أربكه، وأصبح غصن متيبس على إحدى الغيمات التي لم تمطر بعد غيابها، لقد بدت كلماته وحروفه وأشواقه يكسوها الغبار، فبعد أن رحيلها عنه أصبح بلا رداء أمام الفصول المتقلبة في عزلة الغياب ، لقد رآها وهي تضع يديها داخل جيوب معطفها الأحمر الطويل، الهواء الذي بدأ يسري في المكان أزاح جزءًا من خصلات شعرها الناعم، أمالت رأسها قليلاً على كتفها ولم تبدِ أية علامة رضا، لكن ملامح وجهها انقلبت عندما رأت أنور يتهاوى ويسقط على الأرض.

٥

أصبحت المواقف ليست لها عناوين أو بلا عنوان يذكر ليومين مضيا وهو على رقدته على السرير في المستشفى بين أضلع الجو المضغوط بالرتابة والمرض، تغرب الشمس وتطلع كل صباح والجسد هو الجسد جامد لا يتحرك، عيناه كانتا بين الصحوة والنوم، أخذ يرى كل ما حوله ضبابيًا مغوشًا لا يحمل أية ملامح تذكر، حين دخلت عليه الممرضة على عجل، ووقفت بقربه أخذت تقيس الحرارة والضغط بكل تأن، طبعت على وجهها ابتسامة خفيفة قبل أن تخرج ثم قالت:

ـ لا تقلق ... عارض عادي.

ما إن خرجت حتى رفع القسم العلوي من جسده الذي أزاحه إلى الأعلى قليلا ، أسند ظهره على قائمة السريرومدد باقي جسده الى الأمام ، أخذ ينظر إلى الساعة التي أمامه، العقارب خطان أسودان متعاكسان، أحدهم يضرب بقياس منتظم يثير في النفس دقات مملة تلج في الأعماق، والثاني بدا كوجهه الساكن الذي لم يعكس أية ملامح ارتياح تذكر، فقد كان كما الحالم الشارد بأفكاره التي بدت كخيوط قطنية متفرعة تتشابك أجزاء منها في الأطراف وتتكور بلا تنسيق، لم يشغله الشك بأن شيئًا ما غير طبيعي يحدث له في الفترة الأخيرة، المرض الطارئ وهذه الأوهام والخيالات تأتيه على غير إرادة منه، لم يجد السبيل لتداركها أو حتى فك رموزها، منذ الصغر وحتى

عندما بلغ أشده وأصبح شابًا فتيًا يساعد أباه في بناء البيوت الطينية لأهالي قريته الواقعة على أطراف مدينة الناصرية، يصفف صفائح الحديد معه ويضعها قرب بعضها بعضًا كبديل لجدران البيوت الطينية التي يغلف بها قسمًا كبيرًا من الأحواش.

تذكر ذلك اليوم عندما كان صغيرًا لم يتجاوز العاشرة من العمر في قريته الواقعة على بعد كبير من مركز المدينة ، كان يومًا غير كل الأيام، أخذت الريح تهب بأوقات غير منتظمة، تهيج الغبار وتضرب ببعض صفائح الحديد التي كانت تشكل أسوار البيوت الطينية، أخذت بالميلان مع مرور الوقت من كثرة تراكم التراب الذي حملته الريح الذي أخذ يخرج صفيرًا طويلًا وآخر متقطعًا، الجو في أشد الحاجة للركود في وقت الظهيرة اللاهب، شهر تموز لا يطاق، يفرض الحرارة في أزقة الحارات الضيقة التي بدأ صوت الصبية يسمع من خلالها، أخذوا يلعبون بالرغم من حرارة الجو الخانقة، كانت عيناه تترقب الأصوات وهو جالس يأكل بقايا خبز التنور المحروقة من الأطراف عند زاوية البيت في الخارج، حين أجال النظر بين البيوت المتناثرة التي أمامه لم يجد غير الصمت، فقد اختفى فجأة صوت الصبية الذي لم يعرف أين موقعه بالتحديد.

لاك ما تبقى من الخبز وأرهف السمع، تموجت عيناه في الأنحاء عله يرى شيئًا يحدد الأصوات التي أخذ يسمعها مرة أخرى، ولكن بلا جدوى، فما كان منه إلا أن فز واقفًا، ثم انطلق باتجاه بيت الحاج طنش وأخيه نقماش المتصافين برغم الأرض التي

بدت كصفيح ساخن تلهب قدميه الصغيرتين العاريتين، وكأنما أشواك مدببة توخزهما بشدة، مما يضطره على أن يلوذ بظلال البيوت دومًا، بحث لاهثًا في الأزقة ولم يجد أحدًا، لكن لغط الأصوات عاد من جديد، غير بعيد عنه، توقف قليلًا، حاول أن يرصد الصوت بإمعان، أجال ناظريه في المكان ما لبث أن انطلق مرة أخرى يركض نحو بيت حسنية الدلالة الذي أسند جسده الهزيل على جداره الخلفي لاهثًا وإذ به واقف أمام فرع ضيق لا يوجد به أي باب لمنزل، فقد كانت جدران البيوت الخلفية تحاوطه من كل جانب.

عندما سار إلى المنتصف ، توقف فجأة ، وفي لحظة خاطفة اشتد عصف الهواء الساخن والغبار اكثر من ذي قبل ، بدأ صفير صفائح الحديد يعلو من جهات عدة، أخذ يتمعن في زوبعة بدأت تتشكل أمامه كحبل ضخم مبروم يصعد إلى الأعلى، وقد بان من خلفها شبح رجل واقف في أول الزقاق، يلبس جبة سوداء فضفاضة يلعب بأطرافها الهواء، كان ينظر إلى وجه أنور الذي تسمر في مكانه خائفًا وجلًا، تعلو وجهه الدهشة والاستغراب، لم تسعفه قدماه على الهرب حين رأى جسد الرجل يقترب نحوه ببطء من دون أن يحرك قدميه، فقد كان جسده مرتفعًا قليلًا عن الأرض، وكأن الريح تحمله، لقد بدت ملامحه تتضح كلما اقترب أكثر وأكثر، لحية سوداء خشنة بوجهه الدائري الذي تعلوه عمامة سوداء تلتف على رأسه بإحكام، لم يروعه الرجل الذي أخذ

حجمه يزداد كلما اقترب منه، ولكن الذي شده وأدهشه أكثر ذلك السيف الطويل الذي حمله بيده عاليًا، كان حادًا ولامعًا، مشطور إلى نصفين في القسم الأعلى من قمته، حين رآه يهوي به على رأسه أطبق يديه على وجهه بقوة وصرخ من شدة الخوف ، حينها أقبلت عليه الممرضة مهرولة عندما سمعت صوت صرخة أنور، تتبعها ممرضة أخرى يدفع بها الفضول وأخذن يتفحصنه والأجهزة بعجلة.

ـ ما الذي حدث، هل أصابك مكروه؟

حين أبعد أنور يديه عن وجهه، تطلع في الغرفة حوله بذهول، واستقرت عيناه على الممرضة التي أمسكت رسغه ووضعت يدها الأخرى على كتفه.

ـ أين أنا؟

ـ أنت في المستشفى، منذ يومين.

ـ ما الذي أتى بي إلى هنا.

ـ امرأة ... قالت إنها صديقتك.

ـ راشيل.

ـ كان اسمها روزي على ما أظن.

- روزي؟

ـ لا تقلق، لقد تعدينا مرحلة الخطر، أنت في صحة جيدة.

ـ مرحلة الخطر، هل لي أن أعرف سبب وجودي هنا بالضبط.

تبسمت الممرضة بوجهه وهي ترفع رأسه قليلًا إلى الأعلى وأخذت تصفف الوسادة التي أسندتها تحت رأسه، وقبل أن تودعه وتخرج مع رفيقتها قالت:

ـ ساعة واحدة سوف يكون الدكتور المناوب هنا.

تنفس بصعوبة بعد أن استلقى على الوسادة، أدار رأسه وتطلع بزاوية النافذة، عيناه ترمق قرص القمر الرمادي الباهت ذا النقاط السوداء التي أحس أنها مجرد نقاط لا تبدي أي معنى مسلط على جسده الرث الذي يحتويه سرير بين جنبات مستشفى ترتفع منه رائحة الدواء وردود مبهمة من الممرضة.

أخذ المجهول والتناقضات يعبثون معًا بالأقدار، يقذفون جسده تارة في وسط الدروب الخاوية وتارة أخرى يودعونه في زاوية ظلماء محكمة لا يعرف الخروج منها بسهولة، تذكر تلك اللحظات حين رأى أضواء البيوت التي بدت متناثرة عشوائيًا كحبوب من القمح في الطرف الآخر من الحدود العراقية التركية، لقد أخذت الأنوار تنطفئ في أجزاء منها وكأن هنالك بالفعل طيورًا مفجوعة أخذت تلتقط حبوب الأضواء حبة حبة

لتزيل الطمأنينة من داخل أنور الذي قال في نفسه وهو يرى الحدود التركية أمامه: (ساعة وحده وبعد هاي هي) .

حين تدارك نتوءات الصخور الصلدة بانت الانحدارات نحو الأسفل عميقة عندما بدأ ينزل بحذر من خلال صخور مصطفة ومتدرجة، ولكنه قبل أن يهم بالسير عبر طريق صخري رفيع ، سمع حركة غير بعيدة عنه وخطوات أقدام متسارعة، توقف واستكان قليلًا وهو يرى بعضًا من أحجار صغيرة قد تهاوت بقربه مع بعض من الرمل، سمع لغطًا متفاوتًا مع صوت صفارة قصيرة ملأت المكان بشيء من التنبه والخوف بعدها سمع صوت رجل يقول: (هذا هو سيدي... لقيناه هنا).

تنبه إلى مصدر الصوت، كان حادًا حاسمًا ينذر بالخسران والهزيمة، حين رفع رأسه إلى أعلى الصخرة الكبيرة رأى رجلًا يلبس اللباس العسكري، يشهر سلاحًا في وجه أنور الذي أخذ يتلفت ليسمع وقع أقدام قادمة من الظلمة، تيبس في مكانه بعد أن رأى اثنين من العساكر يهرولان نحوه، فكر في الهرب لحظتها ولكن أحد العسكريين حسم الأمر بصوته الحاد، حين قال له وهو يصوب البندقية نحوه بحزم: (أوكف لا تتحرك والا ارميك) بينما أخذ الآخر يقترب نحوه، لقد أيقن أنه وصل إلى مرحلة لا يجدي فيها الهرب، آثر الاستسلام ووقف مذهولاً وهو يرفع يديه عاليًا، ولم يبد أية حركة تنم على العصيان ، حينها بادره العسكري الذي اقترب منه كثيرًا بضربة من

مؤخرة البندقية على فكه وأرداه أرضًا ما لبث أن تعاون عليه الاثنان وسحبوه من ياقة قميصه على الأرض الصخرية.

لقد مرت الأحداث متسارعة على أنور الذي أخذ القسط الكافي من الاستجواب بين زنازين السجون والتعذيب القاسي والإهانة، الجوع والعذاب والحرمان، من سجن إلى سجن، استسلم لمصيره المحتوم، في آخر المطاف ، تهاوت به الأيام والشهور في زاوية من زنزانة باردة قذرة، تفوح منها رائحة البول والقاذورات، كان يجلس القرفصاء وحيدًا، بعد ثلاثة أشهر من التعذيب المتواصل وكأنهم كانوا يثأرون من جسده بكل ما تحمله سنين البغضاء من غل دفين، لقد حملوه حملاً وألقوا به في زنزانة ضيقة لوحده، صار لا يقوى على وضع قدميه على الأرض، انزوى ككتلة من اللحم بزاويته المظلمة المعتادة، آلام في كل جزء من جسده تثيرها أوجاع بدت علامات من خطوط حمراء ومرتفعات متقيحة على الجلد، ضاقت نفسه وتكونت في الصدر فقاعات من هواء أخذ يخرجها عنوة على فترات متقطعة، وفي رأسه انطباعات متعفنة تصورها كدود شريطي طويل يخرج وينطلق من خلال أذنيه وعينيه وفتحات أنفه وترتفع إلى الأعلى، فتصطدم بالسقف وتتلوى لتعود فتملأ المكان وتحاصره من كل جانب حتى تكاد تخنقه.

أمسى صوت أسئلته الهادرة تراوده بلا أجوبة مقنعة في سجنه هذا الذي لم يجد له أي نقطة التقاء منطقية في وجوده بين جدرانه، لماذا أراد الهرب من وطنه في الوقت الذي كان لا بد له أن يبدأ من جديد برغم كل الجراحات، كان الأجدر به أن يحمل البندقية ويواجه على أن لا يهرب، فالنتيجة يعرفها مسبقًا، الموت في كل الأحوال، ولكن كيف طاوعته نفسه في ذلك الوقت على أن يرتضي بالخنوع والاستسلام وهو يربي دجاجاته وبعض الماعز وبقرة بليدة غير حلوب في بستان يقع بأطراف المدينة ولم يتحرك، كيف اعتبر أن الأيام والسنين كفيلة بالخلاص وهو ينتظر الخاسر من المعركة التي أخذ يتذمر منها بعد أن أحرقت آخر آماله بالسلام ، لقد لبس بزة عسكرية بدرعها المتين وانتظر رصاصة طائشة في الرأس المكشوف، وانصاع للهزيمة عندما لعب الشطرنج بلا قلعتين على رقعة من التناقض، اقترض مبلغًا من المال واشترى حبات الفول التي غرسها في الأرض القاحلة وهو يعلم أنها لن تنبت شجرة وتفرد أغصانها إلى السماء، كيف لم يستيقظ من نومه عندما أقشعوا سحابات مثقلة بالمطر من فوقه وارتضى بأن تحرقه شمس الاستبداد، لقد انصاع لكل ذلك وأَنس البغل الذي لم يرتض بوجوده وأخذ يسير خلفه، كيف وكيف وكيف، تمنى الموت في هذه اللحظة ويكون نسيًا منسيًا.

كانت الآمال والأحلام في خلاصه من السجن واهية، أخذ يتواصل مع فراغات الصمت بكل استسلام وهو يرى أن سبيل النجاة لم يعد من ضمن أفكاره، فقد أخذ يحسب نفسه مجرد شعرة رمادية بجسد معزة برية اصطادوها وأكلوا لحمها البارد بعيدًا بصحراء قفرة، كانت كل الاحتمالات عاجزة عن رد ذلك القدر الجارف المحتوم للنهايات، دار في رأسه أمران لا يتناسبان مع نوازع الخلاص، إما الاستسلام الشامل نحو قدر قد رسمته الأيام عنوة من أجل نهايته القادمة، وإما أن يبذل روحه للشيطان وينهي حقيقة وجوده بالانتحار.

****

أراد أن ينام رغم آلام جسده المكور، حاول أن يمدد رجليه، الألم يضرب بالأعماق فيثنيه عن المحاولة، استجمع قواه وانتفض بعفوية، جلس على السرير وأدلى برجليه على طرفه، تنهد وهو ينظر عبر نافذة المستشفى بسكينة، الليل بدأ يملأ إطار النافذة، لم يبد قرص القمر المكتمل أي حراك في الزاوية، حمل في داخله ذلك الوشم الأسطوري عديم المعنى، أخذ أنور يدور بناظريه في فضاء الغرفة، تنبه أنه في أشد الحاجة إلى سيجارة ترافق وجعه، تحرك بتثاقل نحو الباب وأخرج رأسه، طغى على الردهة صمت رهيب، سار بمحاذاة الجدار حتى وصل إلى خارج الباب الرئيس يبحث عن أحد المدخنين، كان أحدهم جالسًا يدخن على مصطبة في الطرف المظلم، حين

توجه نحوه سأله إن كان لديه سيجارة إضافية، لم يمانع الرجل الذي بدوره أخرج له واحدة ببطء شديد جدًا، التقطها منه أنور وأشعلها بلهفة بعد أن التفت إلى وجه الرجل بسرعة خاطفة، فقد تنبه إلى هيأته المألوفة، الشعر الأبيض المنكوش، الجسد الضئيل المعقوف وحمالة القلب الإلكتروني الحديدية التي لا تفارقه أبدًا وتلك العين المغطاة بشريط أسود ، أنه العجوز السيد دارسون الذي تبسم بوجهه، أخذ ينفخ دخان سيجارته على علامة كتب عليها ممنوع التدخين ما لبث أن قال بصوت أجش بدا كالخشب المسحوب على الحصباء.

ـ ممنوع التدخين ... ها.

كان ينظر إلى الأمام، ولم يلتفت إلى أنور الذي قال:

ـ كل شيء في هذا البلد قانون، إنه يحاصرك من كل ناحية يا رجل.

لم يعقب السيد دارسون بأية كلمة على ما قاله أنور، فقد ظل صامتًا يفكر وهو يسحب دخان سيجارته بروية، منذ خمس سنوات والسيد دارسون جاره في العمارة التي يسكن بها وبنفس الطابق الأرضي، عجوز في العقد التاسع من العمر ، أشد ما كان يميزه أنفه الطويل والشريط الأسود الذي يغطي عينه ، ذو أصول بريطانية، لقد كان يتحدث عن مغامراته في مناطق عدة ، قال أنه نجا من الموت في أكثر من موقف في الحروب التي خاضها، حرب البوير في أفريقيا، حرب باشنديل في بلجيكا، استبسل عندما كان

على الجبهة الفرنسية في معركة لاسوم، تلقى الرصاص في كل جزء من جسده، في رأسه وفي عينه التي طارت، وفي قلبه وأذنه ولكنه لم يمت، وقف شامخًا وكأنه يتحدى الجميع، قاوم أمراض الكوليرا والدفتيريا حين كان سفيرًا في دولة أنغولا أيام الانتداب البريطاني ، كان يرفض نصائح الأطباء الذين نصحوه بعدم العودة الى أرض المعركة في الحرب العالمية الثانية، ولكنه كان يرفض بشكل قاطع، عندما سرح من الجيش قررت الحكومة البريطانية إرساله إلى مصر، غير أن طائرته استهدفتها القوات الإيطالية، فأسقطتها في البحر المتوسط، وكان هو الناجي الوحيد، اعتقلته الحكومة الفاشية، وأودعته السجن لسنتين، ثم أفرجت عنه، ولكنه أسرع بالعودة إلى الجبهة، مما اضطر الحكومة البريطانية إرساله إلى الصين ممثلاً رسميًا، وقلدته الأوسمة الشرفية والفروسية، ولكن بعد أن سرح من الجيش وتقاعد أتى هنا إلى كندا، أصبح وحيدًا بعد أن توفيت زوجته ورحل عنه ابنه الوحيد مع عشيقته الأفريقية إلى أمريكا، غطس بحقل من الخرافات والخيالات التي كان يستعيد من خلالها شخصيته العسكرية الصارمة التي أحبها، أصيب بمرض القلب، قصور حاد بأداء الشرايين التي لم تعد تعمل بشكل طبيعي، مما دعا إلى أن يستبدلوا قلبه بآخر الكتروني ينظم الضربات عبر أنابيب رفيعة تدخل إلى صدره من خلال فتحة قميصه المفتوح، حاوطت جسمه الضئيل الأسلاك الملونة الطويلة التي تلتصق برسغه دائمًا، كان جهاز القلب الالكتروني الذي علق على حمالة حديدية يجرها معه أينما ذهب هو رفيق وحدته وسبب بقاءه على قيد الحياة،

لقد اختزل الجهاز كل تاريخه وجعلته رهينة الأسلاك، كان جالسًا كالأحدب حين التفت إلى أنور وقال بنفس الصوت الأجش:

ـ هل سألتني عن أحلامي.

لم يجد أنور جوابًا شافيًا لسؤاله المفاجئ، ولكنه أخذ يتمعن مستغربًا بوجهه المتجعد الذي بدت خطوطه العريضة في الجبهة كمسارات عثة تائهة، وخطوط طولية تنحدر من أسفل العينين إلى أعلى الفك السفلي، وعينين صغيرتين دامعتين تكادان تختفيان خلف جلد مترهل، لكن أنور تركه يسترسل بحديثه بعد أن قذف بعقب السيجارة بعيدًا وأردف.

ـ بالمناسبة أنا اسمي السيد دارسون.

ـ أعرف ذلك.

أخذت عيناه تتضاءلان أكثر حين ركز بوجه أنور، حتى كادتا أن تختفيان خلف شعر حاجبيه العريضين، هز رأسه وتململ، ولكن أنور بادره بالسؤال.

ـ بماذا كنت تحلم سيد دارسون.

حينها تطلع بوجه أنور مليًا وكأنه يستمد منه الخذلان ثم قال:

ـ تصور يا صديقي أنني لم أجد نفسي في كم الأوهام التي كانت تشعل رأسي دائمًا، لكنني منذ أن سرحت من العسكرية إلى اليوم لم أتوقف عن الحلم بأن أخلد في هذه الدنيا.

ـ أعمالنا هي التي تخلدنا .

ـ نعم، هي أعمالنا السيئة، لقد كنت سفاحًا بشعًا، أحب الحرب كثيرًا.

بعدها صمت فجأة وأخذ ينظر إلى الشجيرات المتباعدة بعينه الواحدة، وقال بعد أن اضطربت شفتاه، وأخذ جسمه يرتجف ويداه.

ـ عندما أراك في المـرة القادمة سوف أروي لك قصـة البعوضة التي أرادت أن تصبح جنرالًا في الصحراء.

أسند يديه على المصطبة وبدأ يقف إيذانًا منه بالرحيل، أخذ يسير ببطء نحو الباب الرئيس، ساحبًا بيده حمالته الحديدية وكأنه يدفع ببقية حياته لبضع أيام معدودة، وقبل أن يلج إلى الداخل استدار وقال بصوته الأجش .

ـ أتعرف أسطورة السيدة "سبيلا" يا صديقي؟

ـ لا، سيد دارسون.

ـ حين لم يعد لها عمر معين تمنت أن تموت وهي في قفصها معلقة في السقف.

وأردف بعد أن بذل جهدًا كبيرًا بكلامه.

ـ أتعرف من أنا يا صديقي؟

كان أنور صامتًا وهو يرى السيد دارسون يعني ما يقول بصوت بدا أكثر ثقلا .

ـ أنا أخو "سبيلا" العجوز، من الآن بإمكانك أن تناديني بالسيد "سيبيل".

بعدها أخذ يضحك وهو يدفع الباب ويغيب في الداخل ، سحب أنور نفسًا عميقًا من سيجارته وهو يشيع السيد دارسون بنظراته ونفثه بكل عفوية في الهواء البارد، لكنه أحس بألم في صدره، ضربة كومضة مشعة أوقفت الهواء بالتدفق عبر القصبات، لم يتحرك بل سحب الهواء على مهل وببطء شديد أخرجه من الداخل على دفعات، أخذ يسعل على فترات حتى هدأ قليلا ، عض على شفته وبدا الامتعاض جليًا يرتسم على وجهه، لم يكمل سيجارته التي وصلت إلى المنتصف بل رمى بها بعيدًا وأرخى جسده ، لحظات الألم المطلقة غيرت من شكل جسده على المصطبة، أخذ جسده يتكور كالحلزون، تخيل أنه يتحول ككرات قطنية صغيرة ما إن تهيجها الرياح حتى تلقي بها إلى مكان غير معلن، استكان قليلا وهو مستسلم الى الهواء الذي بدأ يهب بشدة ، لا يعلم لم تذكر راشيل في هذه اللحظات، تسائل في قرارة نفسه ، هل كان غيابها عنه افتعال منها أم كان رمزًا من رموز الجحود والغدر، لم يتزحزح ذكرها عن

مخيلته ولم يكابر بتذكرها، فهي على باله دائمًا، نعم كان رحيلها عنه كرحيل الأحبة في يوم ماطر، لقد تركته على الهضاب وحيدًا يلوح بيده إلى الغيوم التي أخذتها.

عندما أدار أنور رأسه، رأى راشيل واقفة عند باب المستشفى الرئيسي ، لمحها قبل أن تغيب في الداخل بمعطفها الأحمر الطويل، لقد دلفت بخطى سريعة، أحس بالوخز في صدره يكبر، ولكنه انتفض من شدة المفاجأة واتجه إلى باب المستشفى الرئيس بخطوات متثاقلة، رآها تتلفت وتختفي في الردهة المواجهة، تبعها بأنفاسه المتلاحقة وهو يسند يده على الحائط، كاد ان يسعل ، كتم فمه بيده ، اللهفة والشوق أرغمت رجليه على الإسراع، بصعوبة أصدر صوتًا مبحوحًا من الصعب سماعه ساعة ما رآها تصل إلى منتصف الردهة "راشيل ... راشيل" لكنها انعطفت برشاقة حول زاوية الممر وغابت، أحس أنور بطول الطريق، أراد أن يلتقيها، لا بد أنها جاءت لزيارته، سوف لن يدعها تذهب بسهولة هذه المرة، سيستجدي بقاءها ويرمى جسده بأحضانها ويشكو لها البعد، سوف يسحق الكبرياء ويبكي إن لزم الأمر، يصرخ، يتألم من فراقها ، لقد رآها عندما دخلت من باب غرفته، حاول الإسراع بأقصى ما يمكن حتى يسد عليها الباب بجسده ويحبسها في الداخل، ولكنه حين وصل إلى باب الغرفة وهو يلهث قابضًا بيده على صدره، مد رأسه وأجال ناظريه في المكان، لكن المفاجأة أنه لم يجد أحدًا، فقد كان المكان فارغًا.

٦

(يلا، قوم وياي إلى قاضي التحقيق) ، قام أنور في صمت وانصاع للسجان بكل هدوء، أحس بألم قدميه حين داس على الأرضية الإسمنتية، تحامل على نفسه، ولكن الشرطي لم يمهله بأن يخطو بعض الخطوات التي أحس بحاجتها بل سحبه بعنف إلى الخارج وأعصب عينيه بخرقة سوداء، كاد أن يسقط على الأرض لولا أنه اتكأ علي الجدار وأخذ يجر قدميه بتثاقل خلف الشرطي الذي سحبه عبر ممر طويل سمع من خلاله أصوات أنين وفحيح وأصوات صلوات وأدعية تأتي من خلال زنازين صفت على الجانبين، لازمته روائح مزرية لا تطاق قبل أن يصل إلى آخر الممر، صعد بعض الدرجات وعبر ممر آخر أحس بدفئه البسيط، ثم صعد درجات أخرى طويلة هذه المرة أفضت به إلى ردهة واسعة توقف بها برهة بعد أن سمع صرير باب يفتح، حين أوقفه الشرطي أزاح الخرقة السوداء عن عينيه اللتين فتحهما ليجد نفسه أمام فتحة باب واسعة، دفعه السجان دفعًا من خلالها ثم ألحقه بضربة على مؤخرته سارعت بتخطيه فتحة أخرى أفضت به إلى غرفة واسعة لا يوجد بها سوى كرسي واحد وطاولة من الحديد صلبة، يلتحم بطرفها مكبس يستعمل في تثبيت المواسير الحديدية.

تركه لوحده واقفًا على قدميه الحافيتين على أرضية باردة، أحس أن الآلام تصلُّ عليه، لكنه رفع يده وأخذ يتحسس فمه، كان هناك دم متخثر على طرف شفتيه، لقد ظل فمه ينزف أيامًا طوال من أثر ضربة البندقية القوية على فكه السفلي دون أن يجد السبيل لإيقاف تدفق الدم الذي كان يخرج باستمرار، مما شكل شرخًا حادًا واضحًا على طرف فمه، أدار رأسه في المكان الفارغ، قبل أن يستنتج شيئًا مما هو به، في هذه الأثناء دخل اثنان من الشرطة مسرعين من باب في زاوية الغرفة، جلس أحدهم على الكرسي بعد أن ألقى ملفًا على الطاولة أثار بها الغبار بينما اصطف الآخر بجانبه.

عندما سأله المحقق عن معلوماته أجاب أنور بدفعة واحده (أسمي أنور حسين ماشين ، خمسة وعشرون سنه ، اسكن الناصرية ، الفرقة العسكرية الحادي عشر مشاة في السليمانية ، أني عندي معاملة تسريح من الخدمة العسكرية لأسباب إنسانية، أني .....) ، وقبل أن يكمل أنور كلامه، رفع المحقق عينيه نحوه وصرخ بصوت عال وقال (أنچب) ثم تمعن بروية في وجه انور وهو يضرب في مؤخرة قلمه على الطاولة ضربات متقطعة بعدها ابتسم باستهزاء، لوى رأسه يمينًا وشمالاً، أصدرت رقبته صوت طرقعة عالية، زفر وعاد يكتب على الأوراق بعفوية وهو يقول : (وين چنت بحرب الكويت ؟) .

لم تكن المرة الأولى التي يقف بها أمام محقق، الأسئلة والأجوبة تتكرر للمرة العاشرة، ولا سبيل بأن لا يرد أو يدافع عن نفسه، كان وحده يواجه ووحده يدافع، فقد أصبح هو المتهم والمحامي والمحقق في نفس الوقت، لكنه اليوم واجه سؤالاً جديدًا لم يطرأ على باله حين بادر المحقق بالسؤال ،(وين چنت بحرب الكويت؟).

****

كانت السماء مغطاة بدخان آبار النفط المحروقة عندما كان هناك ، لون السواد يطغى على كل الأماكن، دروب المنطقة التي لا يعرف لها اسم خاوية مهجورة ومملوءة بالخوف، صوت صراصير الليل المتواصل زاد من رهبة الأمر، في أية لحظة قد تقصف الطائرات الأمريكية التي كانت تحوم في السماء وابلًا من القذائف فتحيل الجنود المرابطين والمتمركزين إلى قطع وأشلاء متفحمة ومطمورة في داخل الخنادق التي بدت كأنها مشاريع لقبور جماعية.

لقد تطلعت عيون الجنود ببعضها البعض حين تكلم آمر الوحدة "نشوان" بجملته التي كسر بها حالة الصمت وهو يقبض بيده على أسفل بطنه ،(أنور، ما سمعت شي بالراديو عن أمر الانسحاب ؟) فرد عليه أنور قائلا (لا ما كو هيچ حچي ، بس أغاني حضيري أبو عزيز)، لكن الآمر نشوان شد بيده على بطنه، قال وهو يجز بأسنانه على الكلمات،(أني محصور هواي ، يمكن أسويها هنا ، بطني دا توجعني ،ما أقدر اتحمل

بعد والله أسويها) بعدها أمسك سلاحه بيده، قام وتفقد المكان بعينيه ثم أخذ يعدو مقوس الظهر مبتعدًا نحو زاوية بالأنحاء قريبة بالوقت الذي بدأت نغمة ما قبل النشرة الإخبارية تصدح، سمع الجنود أصوات ضراط الآمر نشوان وبعض روائح بطنه الكريهة التي أتلفها كثرة أكله للفاصولياء واللهانه ، أنصت الجنود مليًا للنشرة الرئيسية التي جاء في بدايتها صوت المذيع الجهوري يعلن عن أمر بدا هامًا جدًا (أيها السيدات والسادة ... بيان هام من رئاسة الجمهورية)، تسمر الجنود بمكانهم متشابكين بحلقة دائرية حول جهاز الراديو وأمعنوا السمع، لقد جاءهم البيان سريعًا كالصاعقة بعد أن شدد المذيع على عبارة النصر العظيم (على جميع القطعات الانسحاب من محافظة الكويت).

بانت بوادر الخطر تلوح بالأفق المعبأ بالدخان الخانق ورائحة البنزين، تطلعت أعين الجنود ببعضها البعض وتداركوا لحظات الخوف والتساؤل وانسلوا بحذر واحدًا تلو الآخر مبتعدين عن الخندق، طلق ناري أجفل الجنود المتلصصين ما لبثوا أن رأوا الآمر نشوان يجري لاهثًا باتجاههم قادمًا بسرعة من الظلمة، ولكن قبل أن يرمي بنفسه داخل الخندق، جاءته رصاصة مجهولة بالظهر أطاحت به على الأرض ، حينها انتشر الجنود يتخبطون في الزوايا والدروب، وأخذوا يفتحون نيران بنادقهم عشوائيًا في جميع الاتجاهات، لقد أخذ المكان يعج بتبادل إطلاق النار من جهات عدة ومجهولة

من خلف الجدران المهدمة وأعمدة النور المطفأة، ولكن لم يمض إلا وقت قصير حتى توقفت الإطلاقات فجأة، وبدأ الجنود التوغل بحذر وتوجس بداخل الحارات إلى أن وصلوا إلى الشارع الرئيسي الذي تكمن خلفه سيارات مؤن الجيش، كان مظلمًا أيضًا وغارقًا بالسكون، تساءل أنور في قرارة نفسه ما الذي سوف يحدث لهم إن هم أخفقوا في عبور الشارع الذي كان أملهم الوحيد بالنجاة، فقد أحس بالخطر المحيط بهم من كل اتجاه يقترب منهم شيئًا فشيئًا، لقد بدا ذلك جليًا حين أخذ ينظر إلى أسطح المنازل المتراصة بحذر، عندما نظر إلى سطح أحد المنازل وإذا به يلمح ضوءًا لمصباح يدوي يهتز في ألأعلى ، حينها أعطى رفاقه أمرًا بالعودة إلى الدروب بإشارة من يده، وما أن استدار الجنود إلى الوراء حتى كانت إطلاقات أسلحة نارية تأتي من جهات مجهولة قد فتحت عليهم من جديد بعشوائية وكثافة، وقد بدأ أزيز الرصاص يسمع عن قرب.

لم يكن أمام أنور غير مدخل ضيق يضم في داخله عدة أبواب موصدة، سارع إلى الباب الأول الذي وجده مقفلاً، حاول فتحه ولم يستطع، طفق يبحث عن مخرج من هذا الجحيم الذي أخذ يزداد، استدار واتجه إلى باب آخر خشبي كان مغلقًا أيضًا في وسط المدخل، ضربه بقوة بسطاله الضخم ولم يفتح، رجع إلى الوراء قليلًا قبل أن يعقبها بضربة أخرى أقوى بكثير من الأولى على أثرها فتح الباب، ولكن بلحظة عفوية

جاءته رصاصة طائشة من الخلف ولجت بكتفه الأيمن، أسقطته على الأرض، لكنه تحامل على جراحه، وأخذ يحبو إلى داخل البيت، كانت هناك باحة واسعة تحدها ثلاثة أبواب خشبية لغرف موصدة تمنى أن يرتمي بإحداهن ، لكنه أخذ يزحف إلى أن وصل باب الغرفة الأولى، فتحه لاهثًا وولج داخلها وأغلقه برجله واستكان، هو ميت لا محالة ان استدلوا على مكانه ، سوف يجدونه من خلال خيط الدم الذي تركه خلفه ، لكنه استسلم إلى المصير المجهول بأنفاس تعلو في متاهة الظلام الذي حوله، لم تكن أنفاسه العالية هي وحدها التي أخذ يسمعها فقط في الظلام، بل كانت هناك أنفاس أخرى مكتومة وحركة أشخاص مرتبكة حذرة تأتي من الداخل، إذ تنبه إلى وجود الأصوات التي سمع منها صوت بكاء طفل غير بعيد عنه، وصوت نسائي رفيع أصدر شهقة مسموعة ، فما كان من أنور انه قال بصوت ثقيل ،(إذا چان أحد يسمعني ... لا تخافون أنا مصوب)، كانت لحظات من الانتظار قاسية، شيء ما أجبره على الطمأنينة بعد أن سمع بكاء الطفل يزداد، توجس أنور للحظات بعدها رأى نورًا طفيفًا أضاء جزءًا من الظلمة، لقد كانا رجلًا وامرأة متشابكين في زاوية الغرفة، يضمون في وسطهم طفلين بدأوا يبكون من شدة الخوف، حينها تنهد وأرخى بجسده على مرتبة إسفنجية كانت بقربه وغاب عن الوعي.

هـم جديد يقحم العقل بالمثول أمام الذاكرة المملوءة مآسي وذكريات مريرة تتسارع بها الأحداث والويلات التي تبدو أنها تحمل سحنة واحدة من الدمار ، تقدم الإنسان مشروعًا للموت والفناء بغير إرادة منه، فسرعان ما تجترنا الأحداث إلى نفس ذلك المسرح الدامي وبقعة الضوء المسلطة على دمية مصنوعة من خرق قماش ملونة بالمتناقضات والمحشوة نشارة خشب وتبن، والتي تستسلم بكل انصياع للخيوط التي تدلت من يد خفية تتلاعب أصابعها بنسق عفوي بحركة الدمية .

بعد أن أكمل المحقق كتابته بسرعة، أغلق الملف بعصبية، حمله معه واتجه إلى نفس الباب الذي دخل منه يتبعه الشرطي الآخر، وبدأ المكان يغوص بالصمت من جديد ولكن بعد دقائق من الانتظار ،أجفله صوت الباب الذي فتح مرة أخرى بسرعة وصفق الجدار، لم يدخل المحقق هذه المرة لوحده، بل كان هناك شرطيان آخران ضخمان يسيران خلفه، كانا عريضي البنية شديدي القسمات، حمل أحدهم ساطورًا حادًا بيده ووقف قبالته، بينما أخذ الشرطي الآخر مكانه بجانب أنور الذي أحس أن هناك أمرًا مريبًا ينتظره، فيما جلس المحقق على الطاولة الحديدية وأدلى برجليه للأسفل، أطال النظر في وجه أنور الذي تغيرت ملامحه قبل أن يرفع ورقة بيده ويقرأ بصوت عال (اسمك أنور ماشين، عمرك خمس وعشرون سنة، تحمل رقمًا عسكريًا رقم ١٢٠٤٤٠٦٠، تسكن الناصرية وتود التسريح من الخدمة لأسباب لم تصرح بها،

تنتمي إلى جماعة ينوون الخروج على قوانين الدولة، وعمدوا على إشعال ثورة ضد الحكم السائد، قمت بقتل بعض الرفاق الحزبيين وسرقة المواد التموينية، وعندما حرر الجيش الوطني البلاد منكم لم يكن هناك طريق أمامك إلا الهرب خارج البلاد وتكوين شبكة ضد الدولة وقلب نظام الحكم) بعدها أكمل المحقق قراءة القرار بكل عجالة، (لقد قبضت قوات الحدود الباسلة عليك وأنت تنوي الهرب خارج البلاد مع بعض الأسلحة، لذلك قررت المحكمة العليا إلقاء أشد العقوبة عليك وهي السجن ثماني سنوات جزاء فعلتك النكراء هذا وليحفظ الله الرئيس المهيب الركن صدام حسين).

حين انتهى من قراءة ما في الورقة قفز من الطاولة، كاد أن يسقط على وجهه، ولكنه أسند يديه على الأرض، وتريث للحظة حتى بدا شكله كالكلب، تدارك ذلك بأن قام ونفض الغبار عن بنطاله، وأعطى أمرًا بإشارة من يده إلى الشرطيين الذين أمسكا يد أنور اليسرى وأدخلوا أصابعه عبر فتحة المكبس الحديدي وضغطوا عليها بالمفتاح الشاقولي وأثبتوها بشدة حتى كاد أن يصرخ من شدة الألم، لم يكن ألم يده هو الذي جعله يصرخ بشدة، ولكن كان الصراخ يختلط بالألم والدموع والرهبة حين هوى الشرطي بالساطور على أصابعه التي تطايرت أمامه، صك على أسنانه وعصر عينيه بقوة، وتأوه بكل ألم بعد أن أبعد نظره عن يده الممدودة على السرير من دون أصابع في الوقت الذي أطلت الممرضة بوجهها من الباب وقالت:

ـ الدكتور المناوب في الطريق إليك.

لم تمض سوى لحظات حتى دخل شاب يافع تبين أنه الدكتور يتبعه اثنان آخران لم يميزهما عن بعضهم، فقد كان الرداء الأبيض والنظارات الطبية طاغية على كليهما، وقفوا جميعًا حول السرير بعدها بادر الدكتور بالسؤال.

ـ هل تدخن؟

لم يمهله الدكتور الجواب بل أكمل بكل صراحة صلفة.

ـ التهاب حاد بالرئتين قد يودي بحياتك إن أنت أهملته.

أخذ الدكتور يرمقه من خلف زجاج نظاراته المستطيلة ليرى وقع كلماته على وجه أنور الذي لم يبد أية ردة فعل تذكر، لكنه أردف قائلًا:

ـ منذ متى وأنت تحس بالألم في صدرك؟

ـ منذ زمن طويل توجد الآلام.

ـ يجب عليك قطع التدخين من الآن، لا تدخين بعد اليوم إلا إذا أردت الانتحار.

حين أدار الدكتور وجهه نحو الطاقم الطبي، بدأ يتناقش معهم بكلمات لم يفهمها أنور الذي بدا يترقب، ما لبث وأن استدار الدكتور نحو أنور وقال من دون أن ينظر إليه.

ـ سوف أكتب لك على نوعين من العلاج، إن أردت الخروج غدًا بعد الظهر، فلا مانع من ذلك، موعد نتيجة الفحص الأسبوع القادم، ولكن لا دخان بعد اليوم.

قال ذلك وأخذ يكتب على الأوراق بسرعة، حمل الملف وحمل معه سر مرضه الذي أفصح عن وجوده الآن، واختفوا جميعهم من الردهة، بقي أنور على رقدته تتصارع بداخله الهواجس كما يتصارع معه حيز من الوهن والإحباط والخمول والانطواء، وقد بدا الطموح الذي رسمه أقل من مستوى الإنجاز الذي تضعضع كلما تقدم به العمر، كان جل طموحه أن يعيش حياة بلا حروب ولا مآسٍ بعيدًا عن الموت الذي هرب منه أكثر من مرة ليتفاجأ أن الموت ينتظره هنا على سرير بالمستشفى ، يعزز فكرة الاعتقاد بحقيقة وجوده المضطرب الذي لا يمتثل بالحياد عن المكتوب في حياته.

أحس أنور بهزة خفيفة ألمت به، ازدادت رويدًا رويدًا حين أخذ سريره يتموج، تمسك بالقوائم الجانبية للسرير، بدا وكأنه ينحدر إلى الأرض ويتهاوى هو والسرير إلى القاع بسرعة، وكأن نواة الأرض تسحبه إلى محيطها الدائري، صدرت منه صرخة مكتومة لم يسمعها إلا هو في داخله، أغمض عينيه وهز رأسه بعنف ما لبث أن فتحهما على مشهد الغرفة الساكن، انتفض واتجه مسرعًا إلى النافذة، ألصق خده ويديه لاهثًا على الزجاج بعينيه المفتوحتين، وهو يقول: (هذاغيرمعقول) .

٧

"أنور... أنور"، بصوتها القادم من أعماق الماضي وملابسها البيضاء الفضفاضة والتاج المرصع بالأحجار اللامعة أخذت تناديه وتقترب من عنده هابطة من الأعلى، الضوء الأخضر الصادر من خلفها اختلط بألوان لا حصر لها، أخذت تمتزج لتتحول إلى اللون الرمادي الذي ساد جو الغرفة، كان على رقدته في السرير يتصبب من جبهته العرق الذي سال على فوديه وانحدر نحو الأسفل ليسد فتحات أذنيه بالماء الأمر الذي جعله يسمع اسمه متموج كأنه يأتي من أعماق بحر منسي، حرك رأسه ببطء، حاول جاهدًا أن يفتح عينيه أكثر ليرى الوجه الضبابي والصوت الحالم الذي بدأ يقترب منه أكثر فأكثر، تحمله جزيئات من الترددات المقوسة وفقاعات من الماء ما إن تصل إلى السطح حتى تفقس وتصبح همسًا قريبًا من أذنه "أنور ... أنور".

عندما فتح عينيه بصعوبة رأى أمامه شكلًا لجسد مغوش، أخذ يركز على الشكل وهو يرفع رأسه إلى الأعلى، أطال النظر نحو الجسد الواقف الذي بدت معالمه تتضح ، انها روزي النادلة كانت تنظر اليه باستغراب مخلوط بحنان ما لبثت ان جلست بقربه على كرسي يلتصق بحافة السرير، ترقبه بعينيها الجامدتين، كانت تحمل بيديها باقة من الزهور الصفراء ولفافة صغيرة مطوية بكيس من البلاستك.

- صباح الخير أنور.

- روزي.

- كيف أصبحت؟

- الكوابيس والأحلام... لم أنم طوال الليل.

أحس بثقل جسده حين أسند يديه على جانبي السرير وأراد أن يجلس، تزحزح وأصلح من جلسته وانتصب بشكل قائم، أطرق قليلًا قبل أن يلتفت إلى وجه روزي الذي بدا مشرقًا تشوبه بعض القسمات الواضحة التي لم تخفف حدتها البودرة التي بدت كأنها طلاء من الجبس الأبيض، ركز ناظريه عليها وكأنه يراها لأول مرة أو ربما تكون المرة الأولى التي يرى وجهها عن قرب، فمنذ أن تعرف عليها في أول يوم عمل في المطعم بادرته هي بالسلام وسحبته إلى الصالة من يده، أخذت تنادي على عمال المطعم جميعًا بصوت بدت أوتاره تلتصق ببعضها (أيها السيدات والسادة، أقدم لكم اليوم العامل الجديد ... أنور ماشين) ، لقد كان جو المطعم في ذلك اليوم أكثر حميمية ومرحًا عندما هرع كردينوس الطباخ ووقف قرب السيدة ثريا صاحبة المطعم، اصطفوا جميعًا صفًا واحدًا مع روزي التي نادت على بقية العاملات اللاتي التحقن بهم، فضلًا عن غسان السوري الذي انضم إليهم مع بعض زبائن المطعم، الذين أشغلوا صالة المطعم الواسعة وأخذوا يرحبون به بصوت واحد عال وكأنهم قد تدربوا على ذلك منذ

زمن بعيد (أهلًا وسهلًا بك في مطعم أرض السحاب) بعدها أخذوا يضحكون جميعًا ويصفقون له بحرارة فيما ندت منه ابتسامة خجولة وهو يقف أمامهم ببلاهة في الصالة.

ـ تبدين اليوم أكثر جمالاً روزي.

ـ حقًا.

أطرقت بخجل مصطنع، عضت على إصبعها السبابة ونظرت له بطرف من عينها التي أخذت ترمش وقالت:

ـ ربما يكون وجودك هنا قد فتح عينيك لأشياء كثيرة كانت غائبة عن بالك.

ـ يقولون التهاب بالرئتين ولا أظنه كذلك.

ـ لا تقلق، إنه فايروس طارئ.

ـ الفايروس اللعين.

ـ أيام قليلة وسوف تعود إلى حياتك الطبيعية، هذا ما قاله الدكتور.

قالت روزي ذلك في مرارة بعدها صمتت وأخذت تتطلع عبر النافذة الى ضوء الشمس الذي أخذ يطلق أشعة صفراء تصل من خلال الزجاج فترسم نوعًا من الحياة في جو الغرفة، كان صباحًا مشرقًا زادت من حيويته العصافير التي تقف على حافة النافذة،

عادت روزي ترمق أنور بعين بدت مشفقة وعين على استحياء، ترددت كثيرًا قبل أن تقول:

ـ أنور، يجب عليك أن تهتم بنفسك... تغيرت كثيرًا بالآونة الأخيرة.

ـ أعلم ذلك روزي.

ـ لم تعد كما عهدناك ... تصرفاتك بدت غريبة.

لم يكن لديه ما يبرر تصرفاته في الفترة الأخيرة، ربما لن يصدقه أحد ان هو شرح ما يمر به ، لكنه أراد الإحتفاض بكل الأحداث لنفسه ، لذلك بادر روزي بسؤال أحس أنه حاسم :

ـ روزي ماذا قال لك الدكتور ... هل هو مرض خطير؟

سرت لحظة من الصمت أحسها تتسرب في عروقه كالسائل المر، أشبكت روزي أصابعها ولوتهم إلى الخارج مما أصدر صوتًا متكسرًا، لم تسترسل بالحديث بل تحسست باقة الزهور بيدها وقالت:

ـ هذه باقة الزهور أرسلتها السيدة ثريا.

لكن أنور لف رأسه عنها بطريقة غريبة، هرب بنظراته إلى النافذة، لقد علم أن في الأمر شيء لاتود روزي الإفصاح عنه ، الغيوم التي تلوح في الأفق البعيد أخذت تتغير إلى

اللون الرمادي، الغراب الذي حط على حافة النافذة أجبر العصافير على الهرب والطيران بعيدًا، ربما قال شيئًا عندما أخذ ينعق بعدها قفا هاربًا إلى البعيد أيضًا، لكن روزي قامت ووضعت باقة الزهور على منضدة بجانب السرير ووضعت بالقرب منها اللفافة الصغيرة المطوية بكيس البلاستك وقالت:

ـ لقد أرسل كردينوس الطباخ هذه اللفافة، طبخة لزانيا بالتوت البري، قال إنك تحبها.

لكن أنور من دون أن يلتفت إليها قال لها بنبرة حزينة:

ـ إذن هي ليست مجرد التهاب رئوي.

ـ لا بد أن أعود إلى العمل الآن، أخذت إجازة قصيرة، دع عنك الأوهام، فايروس قد يصيب الجميع .

وبعد صمت قصير كانت فيها نظرات العيون أبلغ من الكلام قال أنور متبسمًا.

ـ أبلغي سلامي إلى الجميع.

ـ أنور إن أردت أي شيء لديك رقم تلفوني، سوف أكون بجانبك دائمًا.

ـ شكرًا لك روزي.

ظلت واقفة برهة قبل أن تخطو خطواتها الأخيرة خارج الغرفة، ولكن أنور استوقفها بصوت أشبه بالمبحوح.

- روزي.. أنا أحتاجك أكثر من أي يوم آخر.

حينها ندت منها ابتسامة رسمتها عنوة على وجهها، هزت رأسها بروية وكادت عيناها تدمعان ما لبثت أن استدارت بسرعة ورحلت ، بعد ذلك عبأ أنور صدره بالهواء وأطلق حسرة طويلة، عقد يديه وراء رأسه رغم الأنبوب الذي ربط رسغه وارتمى بظهره على السرير وقد أخذت عيناه تتطلع بالسقف، لم يعتد على الحب والحنان وإن كان في نفسه المعطاءة أسرار قد يفضحها بريق عينيه عندما يشعر به الآخر، سمع كثيرًا من الكلمات الفاضحة والماجنة وكلمات مخفوقة بالعاطفة والشعور، ولم يفهم إلا مؤخرًا معنى ذلك الوميض المبيت بين حنايا جسده وعظامه التي تهتز دائمًا بغير طارئ عادي عندما يشعر بعاطفة امرأة تبادله الشعور بالحب الذي لم يمارس طقوسه الخفية إلا مع زوجته أمينة التي أصبح إحساسه بعدها يدنو من خيالات تنصب أمامه غريزة متدفقة لجسد امرأة تستهويه حتى لو كانت من الوهم يرسمها على حيطان قلبه بطباشير ملونة.

كانت جميع عواطفه مؤجلة رغمًا عنه فقد احتلت الآلام مكانها بشكل سافر بعد أن انتبه إلى أنه سائر نحو طريق لا يعلم نهاياته، لكنه رغم ذلك تبسم وانطلق بخيالاته إلى أبعد ما يتصور، وتمنى أن تكون هي الحقيقة، كان يبحث عن حدث يدفع به إلى أبعد ما يكون من الغريزة التي لم تطفأها بائعات الهوى في شارع مونتريال تدفعه بذلك نزعة من الإصرار على التغيير، لن تصبح حياته مملة وكئيبة إن لم يخرج نفسه من قوقعة

الأوهام ويغلق بابها بيديه إلى الأبد، وإن أتت حياته على وتيرة واحدة ويبدأ رحلة البحث عن شريك حقيقي لحياته، فقد يموت ألف مرة في اليوم وهو يمارس شيئًا يستهجنه، وقد يحيا ساعة واحدة من الفرح مع من يحب تغني عن العمر كله، لقد أخذ يفكر في وجود روزي بشكل جدي إن هو نجا من تلك الوعكة الصحية وخرج من المستشفى، سوف يسعى معها إلى حياة جديدة برغم معرفته بإخفاء أمر مرضه وكذبها عليه .

****

تساءل أنور في قرارة نفسه، كيف نجا من كل ملمات الحروب والسجون والموت والتعذيب في كل مرة، وها هو باق جسدًا يجلب الشؤم، أخذ يتذكر كيف عاد إلى الحياة من جديد عندما تم إطلاق سراحه من سجن (أبو غريب) بعد ثمان سنوات من السجن، ذلك المكان المرعب الذي يعد أسطورة الموت للشعب العراقي الذي يتحاشى حتى سماع اسمه، لم يودع سجانيه عندما فتحوا له باب الخروج، ولم ينظر إلى الخلف حينما أخذ يبتعد عن بوابة الموت، فقد أراد أن يصل بسرعة إلى موقف الباصات ويستقل الحافلة المتجهة إلى مدينته، حين أوقف سيارة الأجرة رمى نفسه بقوة وكأنه يريد أن يحتمي بداخلها، التفت إليه سائق التكسي بحزن وأسى وهو يتفحص وجه رجل نصف محروق، عظام اتضحت من خلال قميصه الممزق الرث،

والعلامات والخطوط التي طبعت كالوشم على صدره ، عندما تحرك السائق بعد أن سأله عن وجهته ، أجابه أنور بصوت بالكاد سمعه (أريد أروح الناصرية) ، حسبه في بادئ الأمر متسولا ولكن عندما سأله مرة أخرى عن وضعه قال له أنور بنبرة ضعيفة (توني خرجت من أبو غريب) حينها أخذ سائق التكسي ينظر له بشيء من الشفقة والحزن ما لبث وان قال (الحمد لله أنك تعيش حياة الوخ ... أنت محظوظ، اللي يطب جوا صعب يطلع).

لقد تبسم أنور لأول مرة عندما سمع كلمة محظوظ، أحسها كلمة غريبة عليه، كان يشعر أنها ليست كلمة في معادلة مسبوقة النتائج أو قانونًا ثابتًا يحدد المسار أو حتى سرًا يحظى به بعضهم، هي ليست وصفًا أو حالة استثنائية كغيرها من الحقائق غير المعلنة التي يتكلف بها الإنسان العناء الكبير في الفهم والإدراك، كان يقول إنها أقرب ما تكون إلى فسحة قصيرة من الأمل في حياة بعض البشر وفسحة طويلة الأمد في حياة بعضهم الآخر، لقد اختلطت عليه جميع الأوراق بعضها ببعض بعد أن تيقن أن لكل إنسان وجهة هو موليها رغمًا عنه، محصور في قالب متيبس من الطين المخلوط بالدم والرفث، تكون جميع الأعضاء فيه جامدة لا تتحرك إلا بشفرة من تراتيل أزلية خفية تبقيه حيًا إلى أجل غير مسمى، سوف يعاني الأمرين إن هو حاول تكسير القالب والخروج نحو طريق غير معبد يرسمه لنفسه برغم الطموح والإصرار والاندفاع لأنه

سوف يصل إلى أرض التيه لا محالة لأنه خالف مخطط القدر، كان لا بد له أن يولد رغمًا عنه ويعيش ويربى إلى أن يكبر ويهرم ثم يموت رغمًا عنه، كان يقول إن الحظ هو عكس القرار، سجية غير متوقعة ليس لها ميزان عادل.

حين توقفت سيارة الأجرة دفع السائق بابه بقوة، وأخذ يهرول داخل محطة الباصات ما لبث أن عاد وأمسك بيد أنور بصمت، سحبه معه في اتجاه باص كان موجودًا في ساحة الكراج وقال: (ذاك الباص راح ياخذك للناصرية، الله وياك... لا تهتم بالكروه) ، لقد كان الجو في شهر تموز أشد حرارة من ذي قبل، خانقًا ورطبًا رغم ساعات العصر المتأخرة، صوت زئير الباص الذي استقله يجبر باقي العربات عن التنحي وإفساح الطريق له وهو يقطع الطريق متوجهًا نحو الجنوب مخلفًا وراءه دخانًا أسودًا كالسحاب، رغم ذلك أغمض أنور عينيه، حاول أن ينام، ولكن بلا جدوى، فلم تزل الذاكرة طرية ولم تزل الأحداث القريبة تحاصره، إرهاصات الأمس هي حقيقة الموت البطيء الذي عاشه أنور لحظة بلحظة، ثمان سنوات سجن في غرفة تحت الأرض بلا منفذ هواء يذكر، كانت هناك فتحة صغيرة بأعلى الجدار لم تف بالغرض، لقد عانى منها بقية المساجين الذين شغلوا المكان من صعوبة التنفس، عانوا من العطش والجوع والروائح المزرية التي لا تطاق، الحمام الذي أخذ حيزا من الغرفة في ركن ضيق أضاف

إلى معاناتهم ما لا تتحمله طاقة بشر مما دعا إلى تفشي أمراض الربو والدفتيريا والجذام والصدفية التي لم تجد من يعالجها.

أخذ الباص يقطع القرى والمدن والشوارع الممتدة ومساحات من الأراضي الطينية غير المزروعة وأطلال من البيوت التي تكسو جدرانها المتروكة سوادًا، رآها من خلف زجاج النافذة بعيون شاردة ولب مضنوك، تزاحمت صور وجوه المساجين البائسة أمامه وهم يجلسون القرفصاء، تذكر أجسادهم الضئيلة التي يشدونها بأيديهم، حياتهم الضائعة، قصصهم وحكاياتهم التي حفظها أنور عن ظهر قلب فضلًا عن أحلامهم التي كانوا يتحدثون عنها بصوت مسموع، حتى أنهم لم يعد لديهم ما يتكلمون به فيلوذون بالصمت.

تذكر أنور ذلك اليوم الذي لن ينساه أبدًا حين احتشد المساجين بكل عفوية على الأبواب في أحد الأيام التي بدأت معها حركة غريبة من خلف الأسوار، امرأة في السجن، كان الكل ينظر إليها من خلف القضبان، أجمل فتاة رأوها على الإطلاق أو قد تخيلوا ذلك، كانت تلبس ثوب زفافها الأبيض وهي تسير مع سجانيها عبر الممر بكل ثقة صامتة، لم تكن مرتعبة من حتفها عندما أقبلت على الباب الأخير من بوابات الإعدام، وقبل أن يدفعوا بها وتختفي في الداخل أخذت تزغرد بصوت عال بعدها خلعت عن رقبتها قلادة كانت ترتديها ورمت بها نحو المساجين، كانت تشد على

رأسها حجابًا أسودًا تريد أن تثبت بأنها ذاهبة إلى الله بعفتها، لقد ارتد صدى صوتها من الجدران التي تركت حسراتها عالقة عليه، كانت صامدة وهي تذهب مع حزنها إلى المصير المرتقب، لقد اختفت في الضمائر منذ يوم رحيلها وتجلت كما النور وهي تصعد بروحها إلى السماء، ولكن أغلب المساجين رأوها تتمشى بثوب برتقالي عبر ردهات السجون حزينة صامتة بعد يوم واحد من إعدامها.

عندما رفع أنور يده وأخذ يتحسس وجهه، تذكر حريق السجن الكبير المفتعل الذي امتد حتى وصل إلى زنزانتهم، كان المساجين يحاولون الهروب، ولكن إلى أين المفر، فلم تكن إلا زاوية الغرفة التي ضمتهم هي أبعد مكان يهربون إليه، ارتصوا فوق بعضهم البعض ككتلة واحدة من اللحم، ولكن بلا جدوى، فقد طالتهم ألسنة اللهب، لقد عانوا الأمرين، اختناقات من الدخان الذي اجتاح الغرفة، وحروقًا بأجزاء من الأجساد التي أخذت تتلوى، لقد نال أنور حرقًا في الوجه الذي شكل علامة فارقة بين باقي وجوه البشر، ولم يلتهم الحريق سوى الأجساد المغلوب على أمرها، لم يعلموا ساعتها أنهم يهربون من الموت إلى الموت نفسه.

قلما تتبدل الوجوه والأجساد في السجون من حين لآخر، يذهب بعضهم إلى جهات غير معلومة ويأتي مساجين جدد يشغلون حيزًا من فراغ الغرفة الضيقة، سجين آخر قادم، كان حزينًا حين زجوا به إلى السجن وجلس بالقرب من الباب، وكأنه أحد منهم

لم يفارقهم منذ زمن طويل، تطلعت به الأعين وهو جالس القرفصاء بصمت، كان وجهه غير غريب عن أنور الذي حين ركز بقسمات وجهه ، اقترب منه أكثر حتى كاد أن يلتصق به، ملامحه قد تغيرت بعض الشيء، ولكن هو نفس الوجه الدائري ذو النظارات الكبيرة ذات الإطار السميك الأسود ، انه "غافل حسين مطرود" الذي لم ينتبه ساعة ما هز أنور ركبته محاولاً شد انتباهه، لكنه لم يلتفت إليه مما دعي أنور بأن يمسك لحيته بأصابعه ويدير رأسه نحوه بحركة أشبه بالحنان حينها تطلع الرجل في وجه أنور وقطب حاجبيه ما لبث أن ارتسمت على وجهه علامات التعجب وقال: (أنت منو تعرفني ؟) رد عليه أنور وهو يحاول استفزاز ذاكرته ،(أنا أنور ... القطار ... الناصرية الهور .. موسكو ... بتريشا النقية) ، حينها أخذ يتفحص وجه أنور مليًا، كادت أن تنزل منه دمعة مخلوطة ببسمة متكلفة، لكنه رد عليه وكأنه يكلم نفسه وقال: (يعني ماكو شرده) ولم يقو على الكلام أكثر من ذلك بل ارتجفت شفتاه وأدار رأسه بعيدًا، لم يعد بتلك الحيوية والنشاط والتفاؤل حين رآه أول مرة في القطار وهو يتحدث عن مغامراته في العاصمة الروسية موسكو، ذبلت عيناه المتقدتان من خلف زجاج النظارة العريضة،بانت عظام فكه السفلي كقارب المشحوف الذي تحدث عنه كثيرًا وهو يجول في ماء الأهوار يصطاد سمك البني بفالته، ظل صامتًا ليومين ولم يتكلم وكأن العاطفة والحزن قد اختلطتا في داخله بشدة، وأصبح لا يفرق بينهما، ولكن في صباح اليوم الثالث جاء العساكر واقتادوه إلى خارج الزنزانة ، بعد بضع

ساعات جاؤوا مرة أخرى وأخرجوا جميع المساجين إلى الساحة التي كانت تضم ثلاث غرف مبنية من الطابوق، طويلة كانت ، تفصل بينهم ممرات من الحصى والأحجار، يتكدس أغلب المساجين في الغرفة الأولى القريبة من ساحة ملعب كرة القدم التي تحولت فيما بعد إلى ساحة للإعدام، بينما خصصت الغرفتين الباقيتين للتعذيب.

أجلسوا المساجين على الأرض في مواجهة الجدار الذي اصطف حوله نفر من الجنود يلبسون البيريات الحمراء، ويحملون السلاح خلف ظهورهم، بعد برهة من الوقت أخذوا يخرجون المساجين من الغرف، ويصفون عدد منهم مكبلة أيديهم إلى الخلف على الجدار العريض، أخذ الجنود يحذرون من إغماض العيون التي أخذت تترقب ما سيحدث، وبعيون ملؤها الحزن والأسى والخوف أطلقوا عليهم الرصاص وبدأوا يتساقطون الواحد تلو الآخر، كان غافل حسين مطرود في الدفعة الثانية، وقف أمامهم شامخًا، ولم يهب منظر البنادق المصوبة نحوه، كان يريد يعريهم بنظراته، يوصل الرسالة الخالدة التي دائمًا ما يرددها (ترحلون أنتم ونبقى نحن في سفر الخلود)، لم يمهلوه دقائق يتشهد بها فقد خرجت الطلقات سريعة، سقط على أثرها صريعًا على الأرض، وبقربه سقطت نظارته العريضة من يده.

أدار أنور رأسه بعفوية نحو النافذة، ما زالت هنالك بقية من نور الصباح، أراد أن يترك ذكرياته ويخرج إلى النور، انتفض من السرير ووقف بثبات برغم الألم الذي بدأ يخف

، تحسس أنور حقيبته الجلدية التي لا تفارقه وكأنه يتمسك بجسد آخر يحمله معه أينما ذهب، أخرجها من داخل الدرج الخشبي ووضعها بجانبه، فتحها وتفحص أشياءه، دفتر ملاحظاته، تفاحة خضراء، جوربين من الصوف، تلفون نقال، شاحن التلفون ، تلقفت يده بعض الصور التي كانت في الداخل، كانت ثلاث صور لا يعلم لماذا يحمل وجعها دومًا معه، واحدة يقف فيها فوق الدبابة مع صديقه منشد بلباسهما العسكري ملوحين بعلامة النصر، والأخرى لوجه ابنته صباح وزوجته أمينة التي تمعن بها كثيرًا ثم أرجعها إلى الداخل بسرعة، أما الثالثة فقد جمعت أصدقاء فندق المستعصم حين كان هناك معهم في آخر مرة بأرض الشتات في الأردن، الأستاذ ماضي الدخيل مدرس التاريخ وعبد العال الوردي ذو اللطخة الحمراء وحسين طاهر القارورة، كانوا مجتمعين في آخر صورة لهم قبل أن يتركهم ويسافر إلى كندا، صورة أمسكها بيده بكل حنان، ثلاثة أشخاص لم يبرحوا الذاكرة فضلًا عن صديق الطفولة منشد، تراه كان يريد أن يكون وفيًا لذكراهم أم كان يريد فقط أن يعوض غربته بقصصهم التي لم تغادر حياته، ترى أين هم الآن، لقد انقطعت أخبارهم عنه عندما قالوا له آخر مرة أنهم سوف يعودون إلى الوطن بعد التحرير، أرجع أنور الصورة بقسوة إلى الحقيبة بعد أن أحس بثقل في صدره وشرع في تبديل ملابسه على عجل قبل أن تدخل عليه الممرضة وهي تقول :

ـ هل أنت ذاهب؟

ـ نعم، لم يعد لوجودي معنى.

حينها غابت عنه قليلاً ما لبثت أن عادت تحمل أوراقًا في يدها أسلمتها جميعهم إليه وهي تقول:

ـ اهتم بنفسك ... وداعًا.

التقط أنور الأوراق ووضعها بداخل الحقيبة، ثم أغلقها دون أن يرى ما فيها، قبل أن يخرج تبسم بوجه الممرضة وقال:

ـ موعدنا الأسبوع القادم.

٨

كانت أرضًا بورًا، عمد على زراعتها بكل ما امتلكه من طاقة ثلاث جواميس جلبها من الهور، أكلت كل العشب اليابس المغموس بفتات لحم قطة متفسخة وأخذت تحرث الأرض ليل نهار وكان له ذلك، الأرض غزاها الاخضرار في وقت قياسي بعد أن كانت سبخات من الطين ومستنقعات للحشرات، وقد أصبحت سنابل الحنطة والشعير لا تبرح الأرض صيفًا شتاءً ينعكس اصفرارها كالذهب الخالص على الغيوم البيضاء في أيام الصحو، قسم من الأرض كستها محاصيل الخيار والفجل والرشاد والنعناع، والقسم الآخر خصصه إلى حيواناته، لقد باضت الدجاجات في القن مرتين في اليوم ودرت الأبقار الحليب في الجرار حتى فاض على الأرض التي أصبحت تتسم في البركات المتزايدة يومًا بعد يوم والناس شهود، أخذوا يقطعون أراضي القصب والبردي، يأتون من أجل السمعة الخارقة التي أحاطت به بعد أن أزهرت نباتات في ركن من البستان بيضاء الشكل أشبه بزهر السوسن في أرضه، أخذ يهرسها بالتمر مع شحوم الخراف ويستخدمها للأمراض المستعصية وحالات العنوسة والعقم، لقد أخذ الناس يتركون عيادات الدكتور ويأتونه أفواجًا متتابعة من أجل نيل البركات والشفاء، لولا هو لما أصبحت هذه البقعة الجرداء منطقة يتوافد عليها الناس من كل صوب يطلبون

الاستقرار حوله بعد أن بنى بها بيتًا أشبه بصخرة نارية من غير مسامات تذكر بدت كفجوة سوداء في باطن الأرض تراه من فوق الصعيد السنامي الهائل كالندبة في الرأس الأصلع.

لقد ظل صبورًا، قانعًا، مواظبًا يعمل في الأرض بكل كد وجهد، يصارع الذئاب وخنازير البر ذات الأنياب الحديدية، وحيوان العشب ذو الثلاثة رؤوس والأقدام السبعة، وطيور الخضيري المفجوعة ، لم يخفت نشاطه حتى عندما عصفت به رياح السموم التي دمرت كل شيء في صيف كان الأشد سخونة، ولكنه أعاد كل شيء على حاله بإصرار وعزيمة وزرعها مرة أخرى ، لقد تكلم أبوه كثيرًا عن قصة وجوده في هذا المكان الذي عمره بيديه طوال سنين عمره، أخذ يروي لأنور حكايته بعد أن قذفت به العاصفة إلى أطراف مدينة الناصرية قادمًا من الصحراء، واستقر به المقام في هذا المكان، تحدث عن ماضي الأخوة الثلاثة الذين تركوا الصحراء البعيدة وارتحلوا رغمًا عنهم مع بعض قطيع من الأغنام وثلاثة حمير يحملون أسفارهم البسيطة، يضربون بالأرض الغامضة بعيدًا عن الديار التي خلفوها وراءهم.

كان الأفق فارغًا إلا من هلاك، بدت الرياح كأنها تنهك الأجساد الراحلة منذ أيام، لقد انسحب الأخوة الثلاثة دون أية كلمة ومضوا بعيدًا عن ديارهم التي ولدوا فيها يحملون بداخلهم دمًا يفور وعقلاً يحمل غيظًا، لم تكن لديهم وجهة معينة يقصدونها، فقط

أرادوا أن يبتعدوا بأسرع ما يمكن يبحثون عن شخص كان السبب بشتاتهم وهم يحملون في رؤوسهم ذكرى جثة امرأة مقتولة لا تغني ذكراها عن العمر المنهك شيء.

كانت أختهم الوحيدة صفية قد نذرت نفسها لخدمة الأخوة الثلاثة ولم تتزوج، كانت كرائحة المطر حين يتغلغل في عشب الأرض ويغمر البراري، كما العصفور التي تحلق على هدب السحر ولا تنام، لقد تركوها وحدها في ذلك اليوم المشؤوم وأخذوا يرعون أغنامهم بعيدًا وراء مسطحات الماء التي تجمعت في مواطن من الأرض متفرقة، ليتهم لم يتركوها في ذلك اليوم، فقد التف عليها ابن كبير القبيلة، يحمل العار والرذيلة في شهوته الحيوانية، سلبها العفاف رغمًا عنها بعد أن صارعته بشدة، كانت تقاوم بكل ما آتت من قوة، لكنه كان مصرًا على إيذائها والنيل منها، فعل فعلته وفر هاربًا إلى البعيد، عند عودة الأخوة وجدوها صامتة وهي ترتجف ووجدوا خيطًا من الدماء يفور أسفل أرجلها، حبسوها لأيام عدة مع الأغنام وأجمعوا على الانتقام في اللحظة من الفاعل، طفقوا يبحثون عن ابن كبير القبيلة أيام وليال عن مكانه ولم يجدوا له أثرًا، بحثوا عنه في كل مكان، ولكن بلا جدوى، لم يحتملوا سمة العار التي التصقت بهم، كانت عقولهم تغلي وهم يشدون بأيديهم على خناجرهم، حزموا أمرهم على الرحيل ولن يعودوا إلا برأس ابن القبيلة، وإلا لما طاب لهم العيش في الديار، أحرقوا خيامهم واتجهوا نحو صفية التي كانت على نفس صمتها، وجدوها مسلوبة الإرادة، مرهونة

بالمصير المرتقب ، لم يفارق يدها كتابًا لم تجيد أن تقرأ منه شيئًا، كان الوقت ليلًا حين سحبوها معهم إلى البعيد وأجهزوا عليها بضربة أردتها قتيلة، وفي الصباح دفنوها ورحلوا.

لقد أكلت منهم الأيام المضنية بكل مشاقها وعذاباتها الشيء الكثير، ولم تبق غير عظام بارزة مرسومة على الأجساد التي كانت تسير واجمة في الصحراء تقاوم الرياح التي أخذت تهب عليهم بقوة وكأنها تريد أن تسحبهم معها إلى السماء، لقد كانت العاصفة الهوجاء التي بدأت تكبر وتعلوا كفيلة بأن تفرق الأخوة الثلاثة إلى اتجاهات شتى لم يبلغوها من قبل، الأخ الأكبر ذُكر أن العاصفة أخذته معها وقذفت به إلى ما بعد طريق تجارة الشام حتى تعدى خليج العقبة، واقتادوه بدو سيناء وعبروا به القناة حتى قطعوا به الحدود الليبية واختفى بعد ذلك، أما أخيهم الأصغر فقد اقتادته العاصفة إلى ما بعد الخليج العربي، وقذفت به في أواسط الهند وبعد ذلك يقال إنه استقر في أدغال سريلانكا، فيما حملت الرياح الخراف عاليًا في السماء حتى حسبوا أن الكم الهائل منها تناثر فوق السحاب، أما الحمير الثلاثة فقد ظلت معلقة في السماء، ولم تحملها العاصفة إلى أي مكان، فقد كانت مربوطة بحبالها التي كانت مغروسة بأوتاد في الأرض، أما أبوه فقد قذفت به الأقدار إلى أطراف مدينة الناصرية التي أصبحت فيما بعد موطنه الجديد ومسلك حياته.

****

من فوق الصعيد السنامي العالي رأى أنور البيت المربع والبستان، جو شهر تموز بدا صامتًا بلا حركة، استنشق نسمات دافئة مرت على شعره الطويل ولحيته ، تدفق بداخله حنين ولهفة بالعودة إلى بيته من جديد بعد أن خرج من سجنه، تسمر لحظات وهو يتطلع في الأرض الواسعة التي تأمل أن يرى صورة زوجته من البعيد تخبز بتنور الطين في الخارج، تأمل أن يلمح جسد ابنته صباح وهي تتراكض خلف عنزتها أو حركة من أبيه الذي ما فتأ يسقي الزرع، ولكن كان الصمت يغزو المكان، قطب جبينه وهو يسمع صوت الغراب الذي أخذ ينعق على شجرة السدرة ما لبث وأن انحدر بخطى ثقيلة واتجه نحو البستان ، تعدى تلة الرمان والمطحنة وهيكل سيارة الفولكس المهدمة والبئر الى أن وصل الى البيت الذي حفه السكون ، وقف أمام الباب الذي وجده مفتوحًا، ما أن سار بضع خطوات عبر الباحة الفارغة حتى وجد نفسة أمام غرفة أبيه المفتوحة التي وجدها خاوية إلا من بعض الأغراض التي كان يكسوها الغبار، عاد واتجه إلى غرفة أخيه رائد التي كانت مقفلة ، تجاهلها واتجه إلى غرفته بلهفة وما أن وصلها حتى تفاجأ أنها كانت مقفلةأيضا ، حاول أن يفتحها حين أخذ يسحب القفل بعنف ، لكن الباب أصدر صوتًا كصوت طبل مثقوب عندما هزه بقوة، زاد من توجسه

ذلك السكون الذي حفه من كل جانب، ولكن الصوت الذي أتاه من الخلف زاد من خوفه وارتباكه (لا تحاول أبني ، البيبان كلها مقفولة) .

حين استدار نحو مصدر الصوت ، وجد رجلًا يقف خلفه بكل حزم يرتدي لباسًا عربيًا فضفاضًا وهو ينظر إليه بعيون حزينة، اتجه صوبه وأخذ يتمعن في وجهه الذي تكسوه لحية بيضاء كثة، نظر الى جسده العريض باسغراب ، كان يقف على رجل واحدة وعكاز يتكئ عليه، حاول أن يستعيد ذاكرته ويعرف شيئًا عن ملامح الرجل الذي قال على الفور: (أني طاهر القارورة، ما تتذكرني؟)، لكن أنور تعداه واتجه إلى الساحة الخلفية للبيت بسرعة، كان مشهد القبور الأربعة التي أمامه قد أعاد إليه بعضًا من الذاكرة، قبر أمه وأخيه رائد وأيضًا قبر زوجته أمينة وابنته صباح، ولكنه تفاجأ من وجود قبر إضافي محفور وفارغ لم يشغله جسد، مطمور في بعض من أجزائه ،أخذ يتذكر كلمات أبيه التي بدأت ترن بداخله (راح نحفر قبورنا بإيدينا).

عندما عاد ووقف قبالة الرجل الذي حاول أن يتذكره ، أخذ ينظر إليه مدهوشًا من جسده العريض الصلب ، كان في أشد الحاجة بأن يرتمي بأحضان أي جدار ويبكي، لكن أنور سأله بلهفة بعد أن توجس لأمر طارئ (أبوي وين ؟) .حينها أراد الرجل أن يهرب بكلماته بعيدًا، ولكن خرجت منه بقايا من حسرات قبل أن يرد عليه بكل تأن واحترام، (أبوك مختفي من زمان ، حفر القبر واختفى) ، لكن أنور أخذ يتأمل وجه

الرجل كالمجنون بعدها قال له (أنت ياهو ؟) حينها ضرب الرجل على كتف أنور بحنان وقال ،(أنا طاهر القارورة .... أخو زوجتك أمينه).

أسبوعًا كاملًا وهو مسلوب الإرادة، منهوك القوى، مرهون في زاوية البيت المتماثلة للزوال ، لا تتعدى نظراته شواهد القبور الأربعة وباب الدار المفتوحة للمفاجآت والقطط والكلاب السائبة وأشباح من شخوص يراها تخرج وتدخل وتتدافع بغير انتظام، حاول أن يميز صورة زوجته وابنته من بين زحام الأشباح، لاح له طيف أمينة بين حين وآخر كومضات من نور مرتعش، كانت تسير في باحة البيت تقبض بيدها على يد ابنتها صباح وهي تهم بالخروج من الباب الرئيسي تحمل أكياسًا وحافظات من الخيش، لقد أحس بحرارة دموعه تنزل على خديه وهو يرى شبح ابنته صباح تحاول طرد عنزتها التي أخذت تنط خلفها.

نقل طاهر القارورة بعض الحاجيات إلى باحة البيت قرب شجرة الصفصاف ، أشعل نارًا من الحطب بعد أن استقر به المقام تحت عريش بناه من قوائم خشبية وشيد سقفه من سعف النخيل حتى يقي أنور حرارة الشمس بالرغم من وجود شجرة الصفصاف التي تتدلى منها مرجوحة ابنته صباح، لقد بدا أنور كقطعة من قماش أخرجوها من باطن الأرض بطينها ودودها، بين حين وآخر يحمل الرمل بيديه ويضرب وجهه بكل تأن حتى بدا كتمثال من الطين، لقد أصبح بالفعل وحيدًا بعد غياب أبوه،لم يكن يستمع جيدًا

إلى طاهرالقارورة الذي رمى بأوراق الشاي بقبضة من يده داخل الإبريق المتفحم من الخارج، بعدها أخرج كيسًا من قماش يكسوه الاصفرار والشعر وأخذ يخرج منه التبغ الذي قال عنه أنه فرجيني مفتخر، قبل أن يضع كمية من التبغ على ورقة رقيقة بيضاء، سعل بشكل غريب ومتواصل حتى بدا صوته كصفير الصفائح الحديدية الصدئة، لكنه حين هدأ قال بنبرة حزينة أشبه بالمبحوحة: (هذا أمر الله ، لا تحزن ، يمكن يرجع أبوك فد يوم) ، حينها نطق أنور لأول مرة بكلمات أشبه بالحلم الذي أراد أن يصحو منه حين وقال: (راح اللي چان باقي الي) ، عندها تطلع طاهر القارورة بوجهه كثيرًا قبل أن يروي له القصة كاملة، والتي كانت الأقرب إلى اجترار حالة من الحزن لا يحب وجودها ، أطلق حسرة ممدودة قبل أن يقول،(لما أنت مشيت قبل ثمان سنوات وانقطعت أخبارك ، چان أبوك ينتظر منك خبر لكن ما مش خبر ، ما تحمل روحتك عنه بعد ما لقى روحه لوحده) ، بعدها أشعل لفافة التبغ قبل أن يستطرد بحديثه ويقول : (حبس روحه بالحوش وقام ما يحجي مع أحد ، بعدها قام يسمع أصوات ويتخيل وادم جدامه ، چان يحجي وياهم كل ليلة)، سحب طاهر نفسا عميقا وبدده بالهواء الساخن وأردف ،(وبيوم وليله ما لقيناه ، دورنا عليه بكل مكان لكنه أختفى) .

تابع طاهر كلامه بصوت حزين بعد أن سحب من لفافة التبغ نفسًا عميقًا آخر، أحس بعدها بأن صدره يريد أن يشتعل، كاد سعال طاهر المتواصل يقطع عليه أنفاسه ويقضي

عليه، فقد دمعت عيناه من شدة السعال الذي لازمه لحظات اختنقت به أنفاسه المحزوزة، بعد أن هدأ قليلًا أخذ يزج ببقايا الشاي الممزوج بدبس تمر الزهدي ويردف ،(بعد مدت سنه لقيناه تحت شجرة الحلفايه ، الوادم كلها رادت تشوفه ، چان شايل معاه صورة رائد يسأل عنه بين الدروب اذا أكو أحد شافه ، چان حافي ومبهذل)، صمت قليلا ، قذف ما تبقى من لفافة التبغ بعيدا وقال : (رحت أني أشوفه ، لما وصلت يمه باوعلي وقال ، حفرت قبر أنور بأيدي ، بعدها خلانا وراح).

ها هو القدر يبدأ مع أنور بوادر اللعبة من جديد، الاختبارات المتعاقبة هي نفسها التي تجعل عينيه ترى الأحداث بين التكذيب والتصديق، أحس أنه يهوي من فوق جبل عال إلى عالم من المردودات المخبأة في جعب القساوة وضياع الأماني المسلوبة، لم يعد للعمر بقية في إكمال طريق الأحزان ، لقد أصبح كما القارئ في طين المسافات التي تأخذه الى أحجية تنشد الخلاص من هذا العمر اليانع ، فقد يطول صبر وجوده كثيرًا إن هو توارى خلف العذابات المبلولة ، واستكان الى ملمات الأقدار،أراد أن يسمح للذبول بأن يكسوا ما تبقى في نفسه من اخضرار قديم.

كان أنور يفكر كثيرا ، صامتا وهو يفكر بالخلاص ، القطار الذي أقله بالأمس كان بطيئًا جدًا ولم يبعده عن حدود الشراسة والألم بل عاد به من حيث أتت اللوعة والحرمان، قرر أنور في قرارة نفسه أن يسلك طريقًا آخر يحاول من خلاله أن يسلخ

جلده عن التراجع بعد أن خسر كل شيء، وليكن ما يكون ،انتابته حالة من الفزع في لحظة حاول فيها أن يطمئن دموعه التي بدأت تنضب ، لابد من تقرير المصير ، سوف لن يركن أنور بعد اليوم إلى خيال مريض يتكئ على عكازة من الخضوع، أراد أن يرحل بعيدا كل هذا الوجع ،(راح أعوف العراق) ، قالها في الوقت الذي كان طاهر القارورة يصب الماء على جسده بآنية من حديد، ويدعك له ظهره الذي ما يزال الطين عالقًا به، الماء ينزل على رأسه ويسحب معه شعره الطويل الذي غطت خصلات منه عينيه الشاردتين، لقد بدت كلماته كالحلم غير النابض وهو يردد جملته من حين لآخر، (راح أعوف العراق) ،كان قرارًا حاسمًا، الاندفاع قد يَصدق قبل القرار أحيانًا، كان العقل قادر على أن يزيح ترسبات العمر التي لن تخطئ سبيل وضوح الفكرة، فلم يعد للحياة معنى ما لم يقدم على النزوح إلى أية جهة ترفق به وتحنو عليه، كان يريد الخلاص ببقايا عمره الذي لم يتبق منه سوى ملمات العذاب التي سوف يمسحها عاجلًا أم آجلًا.

(ليش ما تروح الأردن ، أبني حسين هناك يشتغل) ، لقد ظل أنور صامتًا كتمثال رطب وهو يجلس تحت شجرة الصفصاف يفكر في كلام طاهر القارورة ، لم يسأله عن سبب وجوده هنا بعيدًا عن مدينة السليمانية، ولم يهتم بذلك؛ لأنه أراد أن يترك كل شيء ويرحل، لم يعد هناك شيء أهم من جواب واحد لسؤال صريح، كيف سيخرج

من العراق وهو بهذه الظروف، لكن الإجابة أتته في اليوم التالي من دون أن يسأل، قال له طاهر القارورة وهو يمد يده بالجواز ،(جبتلك جواز مزور ، بس لازم تحفظ أسمك الجديد).

أراد أنور أن يودع الجميع بآخر اللحظات بعد أن جمع حاجياته البسيطة بداخل حقيبة جلدية، وقرر الرحيل مجددًا، تحاشى أن يدخل إلى غرفته التي أقفل عليها منذ زمن بعيد بعد أن فقد زوجته وابنته صباح في حادثة الجسر، كانت تجمع أشياءه وذكرياته، لم يشأ أن يفتح جرحًا بدا أنه لم يندمل ولن يشفى منه طيلة حياته، تذكر زوجته أمينة في ذلك اليوم البعيد حين عاد من الكويت ولم يجدها.

تذكرها عندما كانت أمينة قرب النهر حين أخذت الطائرات الأمريكية تقصف في أماكن متفاوتة، حملت كل الهموم بداخلها وأيضًا حملت ابنتها صباح على صدرها في ذلك اليوم المشؤوم ، لقد احتشد الناس على موقع حصة التموين الشهرية منذ الصباح حتى الظهيرة بوجوه الأموات الشاحبة، لقد سمعوا صوت أزيز الطائرات وهي تحوم في السماء تريد أن تحصد أكبر قدر ممكن من الأجساد التي أخذت تتراكض بأرجل كأرجل الدجاج، لقد ساد الارتباك والخوف في لحظات هي الأشبه بتدارك خطر عفوي قد يودي بحياة الجميع من غير أي رادع، سمعوا صوت صفارات الإنذار التي أخذت

تداهم المدينة عدة مرات، صفارات نفخت الرعب في آذان الناس الذين استشاطو يبحثون عن مأوى يحميهم من الموت المرتقب.

الدوي الأول للقصف كان هائلاً، أذهب العقول فاتجهوا صوب الجسر أفواجًا متلاحقة يتراكضون يريدون العبور إلى منطقة آمنة، كانت أمينة من بين الحشد المتهافت تحمل ابنتها صباح الصغيرة على صدرها وهي تكاد تصل إلى المنتصف، ولكن الدوي الذي أعقب صوت الصاروخ الذي هوى بكل عنف على الجسر حال دون الوصول إلى النهاية، كان منظر الجسر وهو يهوي مهولاً من أثر الصاروخ الذي قصمه إلى نصفين ، على أثرها هوت أمينة في الماء واستسلمت للقاع الذي سحبها وهي متمسكة بطفلتها الصغيرة بكلتا يديها.

هذا ما قالوه له بعد أن عاد أنور من حرب الكويت، كانت فاجعة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، لقد فقد زوجته التي كانت صبورة رغم غيابه عنها سنين الحرب الطويلة والجوع والألم، باقية وشامخة كبقاء النوائب، لم تشتكي يومًا أو تعترض على حياتها خلال السنين التي قضتها مع أبيه الذي عزف عن الدنيا وعاش في خيالاته بعد إعدام ابنه رائد أمام عينيه، تعطف عليه وتداريه بكل مودة وحنان، كانت أشبه بالقديسة، لقد افتقدها وفقد معها حياته وروحه وأصبح يسير كالأموات شهورًا عدة لم يذق فيها طعم الراحة، كان أنورمهزومًا بعد رحيلها، أخذ يتسكع على أرصفة المواسم

وعند خريف الحكايات ، يخيط أوصال الحزن العميق للآهات المتجهة إلى النبض، أخذ يكتب وصايا الصمت على الأشرعة ويخط الأسماء التي غادرته مع السحاب، بعد أن فقد زوجته أمينة التي أحبته جدًا فقد معها أي معنى للحياة، أخذت روحها تحرسه دائمًا من غير أن يعلم، تخاطبه من دون أن يتكلم، حنين بداخله إليها لم ينطفئ وإلى عينيها الخضراوين التي تشده دومًا إليها ، فلم تعد لديه الحياة مهمة بعد أن بددتها الأيام بعنف ورحلت حيث وثنية الوحدة، فقد احتاج أنور ألف ألف شمس لتوضح ظلال الخطوات التائهة.

عندما اتجه إلى باحة البيت الخلفية أراد أن يودع القبور الأربعة، وقف طويلًا أمامهم من دون أية كلمة، تنبه إلى القبر الفارغ ، بدى وكأنه ينتظر جثة مجهولة، تمعن به طويلًا وتخيل جسده ممددًا يستحم بدفء الطين ، تدفقت لحظات من الخوف اللين في داخله وهو يسمع كلمات أبيه ترن بأذنيه ،(تعودنا ان نحفر قبورنا بأنفسنا)، لكنه أراد أن يودع أشباح الأحبة بصمت وهو يعلم أن لا أحد سوف يودعه، اختار أن يترك كل شيء ويذهب إلى الحدود حيث يكون خارج الوطن.

******

لقد رحل مرة أخرى وحده في حفل خطير، يزف أفواجًا من خيالات الناجين إلى مخدع من الحرية بعيدا عن أرض السواد ، يراقب خطيئة النهرين ولعنتهما من خلف أسوار

الوطن، سر ملاذ العالم بكل العصور أجمع، كان وطن من الأمنيات مؤجل، هو الآن ينبذهم بكل صلافة وجحود إلى خارج حدوده بعد أن سرق منهم الأقارب والأحباب والأصدقاء وراح ينادي هل من مزيد، فلم يعد بعد اليوم ابن سومر وأكد وآشور، لقد كفر بتاريخه الذي لم يضف له شيئًا، ولم يعد تمثال أورنمو يعني له شيئًا، تخيله كما الأسطورة جاثمًا في مخيلة الزمن، حمل على رأسه بكارة العالم سنينًا طوال، ولم يتحمل ثقل طموح الإنسان، فرماها بعيدًا وظل واقفًا يتطلع الى جنائن بابل المعلقة وإلى أسد آشور الذي بدا كهلًا خائفًا خانعا ورابضًا يتأمل العودة إلى عرينه المفقود، لقد كفر أنور بالتاريخ ولم يعد ابن التباهي الذي كتب عليه ارتقاء النواة الأولى التي علمت الإنسان معنى الحضارة، ولم يتعلم منها الأبناء شيئا ،لم يعد كذلك، فهو الآن ابن اللوعة والحرمان، متشرد، يريد أن يكون خارج حدود الوطن ، جسدًا خالصًا للشتات إلا من أربعة أصابع تركها ضريبة للخلاص، ونصف وجه آدمي.

لم يصدق أنه تخطى بوابة العذاب بعد أن رأى ختم المغادرة على جواز السفر الذي قذفه الموظف في وجهه، كانت لحظات أشبه بخروجه من سجن قد عانى منه الكثير، لقد رأى ختم تصريح نجاته على ورقة في جواز مزور، تمنى في قرارة نفسه أن تكون المسافات التي قطعها أبعد بكثير عن واقعه المرير وتاريخه العتيد الراسخ في الكتب والمخطوطات المزيفة ، تخيل نفسه وكأنه بقايا جذور شجرة قديمة عصرتها السنين

وأخرجت منها سائلًا رماديًا لزجًا أخذ يصعد عكسيًا بداخل الجذع الراسخ، ويرتقي إلى أعلى الغصون الدامية لينتج أوراقًا رمادية شاحبة، تقطفها رياح من الجحود وتقذف بها إلى أبعد مدى نحو السلام.

كان الطريق إلى مدينة عمان مظلم وطويل، يحفه المجهول من كل ناحية، أخذت السيارة بركابها تلتهم الطريق الطويل غير عابئة بالجو الرطب الذي بدأ يبين أثره على الأجساد التي أخذت تنضح عرقًا، كان أنور صامتًا طول الطريق وهو يتجه إلى حياة جديدة ، في سفره هذا أحس أن كل المجرات تترقبه بعين من الحيطة والحذر بعد أن اقتص منه الزمن أجمل أيام حياته، لكنه أخذ يشدو في قرارة نفسه أهازيجًا من الظفر والنجاح عندما تنفس جو الحرية الجديدة، وإن هاجت به رياح العذاب مرة أخرى فلن ينتابه العبوس بعد الآن؛ لأنه تنبأ بخراج الأيام القادمة وهو في الطريق الذي اتسع وامتد ليصل إلى أبعد من كونه فرارًا إلى المجهول، بل هو فراراً الى الحرية ، أخذ ينظر إلى إطلالته نحو عالمه الجديد، هبة الغد له وانعطاف شعوره نحو الواقع، بانت إشراقة خجولة على محياه ، تمعن جيدًا في وجهه المستبشر على نافذة السيارة التي أخذت تزيد من سرعتها نحو مدينة عمان، ،لقد انطلقت السياة بكل سرعتها الى مجهول آخر سوف يضمه بكل اوتي من قوة الى شتات جديد . أحس بأن القمر المكتمل قد اهتز في الأقصى البعيد من السماء، أخذ يتعقبه من خلف زجاج النافذة وكأنه كانون يسلط

ضوؤه الشاحب على قلبه بتردد، أحس أنور وهو ينظر إلى القمر بأنه لا يضيف شيئًا إلى السماء سوى أنه يسلط نوره الباهت على الحجارة السوداء التي تناثرت على جانبي الطريق الصحراوي، حجارة رآها على مدى النظر تلتصق بالأرض كمرض الجدري المتيبس على الجلد .

٩

ـ ما زالت قضيتك قيد التدقيق.

ـ لقد أخذت وقتًا طويلًا جدًا.

ـ عليك الانتظار، سوف نتصل بك إن جد جديد.

ـ إنها أكثر من أربعة عشر سنة.

ـ أعلم ذلك، ولكن هذه الإجراءات في دائرة الهجرة الكندية .

سكت موظف الالاستعلامات القابع خلف النافذة الزجاجية وأخذ يقلب أوراقًا أمامه متجاهلًا نظرات أنور الذي تمسك بالرف الخشبي، تمنى أن يستمع إلى قصة معاناته كاملة ، كيف كانت سنوات غربته منذ أن دخل مطار مونتريال حتى الآن، كيف كانت عذاباته، كان يريد أن يشكو له ويقول إنه كان هناك حيث الحروب والدمار، كيف نجى من كل تلك الحروب بأعجوبة ، كيف ضاعت أحلامه وآماله بالضجيج، لقد فقد ابنتة وزوجته أمينه ، لقد أعدم أخيه رائد أمام عينيه ، نعم لقد رأيتهم يطلقون عليه النار ، السجون المقفله ، الجوع ، ضياعه ، غربته ، وأيضا ذاكرته التي لم يفقدها ، لقد أعطى نفسه في كل يوم من أيام وجوده في كندا جرعة من الأمل في القبول بعد أن لبس

ثوب الصبر لسنواته العديدة وهو ينتظر ورقة إثبات تعوضه عن أيام العذاب والحرمان، لكن الرفض كان حليفه ،لقد أطلق القوارب بلا أشرعة وحلق مع طيور تسابقت معه إلى القادم وتتبع شهوة الحرية التي أعطته بصيصًا من الأمل واندفع للنجاة ورغب بالآمال النابضة في جوفه بأن تخرج للعلن، أحب أن يبدأ حياة جديدة ،شعر بالرغبة بنسيان كل شيء والبدء بذاكرة جديدة تحمله إلى أقرب محطة لمدينة لا يحمل أهلها أي حجر بداخلهم، ولكن الزمن لم يدع له فرصة للعيش بسلام .

تذكر يوم قدومه إلى كندا ، ذلك اليوم في مطار مونتريال حين سأله موظف الجوازات بنبرة بسيطة من دون أن يلتفت عليه ،(هل سبق لك وإن دخلت إلى كندا). لم يكن أنور في ذلك الوقت يعرف عن اللغة الإنجليزية غير بعض من الكلمات التي لا تتجاوز التحية، وبعض الكلمات التي حفظها عن المهرب البغدادي الذي نصحه بأن يقول لهم: (أنا سائح) ، حين أعاد موظف الجوازات السؤال عليه مرة أخرى، ولكن بشكل حازم كان أنور صامتًا أمامه لم يتكلم فما كان منه الا انه تطلع في وجهه مليًا بعدها أطبق الجواز وأشار بإصبعه إلى مكتب بالزاوية وقال بشكل سريع : (خذ جوازك واذهب إلى مكتب الهجرة هناك في آخر الردهة) لكنه حين رأى أنور واقفًا لم يتحرك عرف أنه لم يفهم ما قاله الأمر الذي دعاه بأن ينادى على شرطي كان واقفًا بالأنحاء وأسلمه أنور مع جواز السفر السعودي، عندما سار خلف الشرطي بكل انصياع لم يدر

بخلده سوى انه قد كشف أمره، ولابد له أن يصرح بجنسيته الحقيقية ، لذلك عندما أسلمه الشرطي أحد موظفي مكتب الهجرة الذي بدوره أدخله غرفة تصطف بمنتصفها بعض المكاتب، قال : (أنا عراقي الجنسية ولست سعودي) لكن الموظف أشار له بالجلوس على أحد الكراسي التي تقع في النصف الآخر من مكتب الهجرة .

هنا تقع بوابة الجنة، هنا سوف يكون الحساب، كان يريد أن يحكي لكل العالم حكاية اضطهاده وآلامه وأحزانه، قد لا تقنعهم الأسباب ولكنه حلم بحياة جديدة تتجاوز عقدته، كان ممتلئًا بالكلمات والأحداث، لقد شرح جسده المشوه كل شيء قبل أن ينطق بأية كلمة، كانت علامات ضربات السياط ما زالت طرية على ظهره، التقرحات وآثار الدمامل، أصابعه المقطوعة ووجهه النصف محروق، كل ذلك كان دليلاً لإدانة بلده وعنوان انتصاره وهزيمتهم، استيقظت بداخله مخلفات طفولة سابقة وشعر بأنه يشبه المستكشفين، تأقلم سريعًا مع جو الغرفة، وأخذ يتنفس الحرية بكل حبور، فقد علم أنه في مرحلة ولادته الجديدة ولن تعاد بعدها عقارب الساعة إلى الوراء، لقد كانت رحلة الأمس قطعة من عمره في أقصى رواسب الترحال يحفها إيقاع غير مسموع لقافلة من الأماني تبحث عن الاستقرار، أحس براحة حسبها ستظل معه إلى آخر المطاف وهو يجلس في المطار.

تنبه أنور إلى صوت موظف الاستعلامات من خلف النافذة الزجاجية معلنًا انتهاء المقابلة حين قال: (أهنالك شيء أقدمه لك يا سيدي)، حينها شكره ثم استدار وغادر، وقبل أن يخرج من الباب الرئيس، تطلع من خلف زجاج البناية، كان الجو يميل إلى البرودة، قريبًا سوف ينزل الثلج، ولكن بالرغم من ذلك بدأ نور الشمس يسطع، لف حول رقبته الشال، وجد نفسه حين دفع الباب وخرج في شارع كاثرين المزدحم ذي الاتجاه الواحد ،يجمع السيارات القادمة من الطريق السريعة ويزج بها إلى شوارع فرعية تبتلعها وتبقى بعض المركبات مزدحمة في قلب الشارع في ساعات الصباح الباكرة الأولى مولدة شيئًا من الارتباك.

سار على طول الشارع متجهًا إلى محطة الباص، انقضت ربع ساعة ولم يأت الباص، أخذ يتطلع إلى الغربان وهي تحوم في السماء، رفع يده إلى الأعلى، تتبع بإصبعه وهو يرسم خطًا وهميًا في الأعلى، يقتفي أثر الغراب عندما يطير ويحلق عاليًا ويعود يحط فوق أسلاك الكهرباء، وقد أخذ إصبعه يلعب في الهواء مشكلًا خطوطًا حلزونية وأخرى متعرجة، لم يتوقف عند ذلك بل أخذ يقفز محاولًا الوصول إلى أقصى نقطة في الهواء ليتركها ويبدأ من الأسفل من جديد، نظرات دهشة واستغراب الواقفين في المحطة لم تثنه عن التوقف عن حركاته التي بدت غير مبررة، توقف عن كل ذلك حين

أقبل الباص في هذا الوقت وقبل أن يدخل من الباب تطلع بنظرة أخيرة إلى مبنى دائرة الهجرة الصامت الذي تلألأت نوافذه الزجاجية من انعكاس ضوء الشمس الساطع.

التف الباص حول شوارع في داخل مركز المدينة، ثم ولج عبر شارع رئيسي مرة أخرى يعج بسيارات دؤوبة وحركة بشرية متزاحمة في ساعات الصباح الأولى برغم أعمال الإصلاحات المكثفة في الشوارع التي بدت شبه مسدودة ، قبل أن ينزل في المحطة التي يقصدها انتبه إلى الرصيف فجأة، لم يصدق عينيه في لحظة من لحظات الحلم حين رأى صديقته راشيل واقفة تلوح له بيدها من خلف النافذة، أسرع في النزول بلهفة بالغة وما أن وضع قدميه على الرصيف حتى أخذ يبحث عنها بعفوية، أدار رأسه على الجهتين ولم يرها، استدار حول مبنى الموقف الزجاجي عدة مرات، ولكن بلا جدوى فلم يجد لها أثرًا، توقف قليلاً يترقب رؤيتها مرة أخرى، ولكنها لم تخرج ما لبث أن اتجه إلى ناحية المطعم وهو يتلفت خلفه على أمل أن يلمحها مرة أخرى.

حين دخل من باب المطعم الرئيس، استقبلته السيدة ثريا وسألته بلهفة.

ـ أنور... ما الأخبار؟

ـ كالعادة ... القضية قيد التدقيق.

ـ وماذا ستفعل ... هل تود توكيل محامي آخر؟

ـ لا أعلم.

قالها بمرارة وبصوت خافت لم يسمعه إلا هو، على عجل خلع عنه قميصه في زاوية تقع في آخر المطعم ولم يتنبه إلى السيدة ثريا وهي واقفة وراءه تتمعن بجسده العفي وعضلاته المشدودة، تدارك موقفه المحرج والتقط قميصًا آخر كان معلقًا على الحائط ولبسه على عجل، شد المريول حول خاصرته وبدأ يزج الأطباق داخل غسالة الصحون، ولكن السيدة ثريا تبعته وقالت له بشيء من البهجة:

ـ سوف نقلي سمك البوري هذه الليلة.

لم ينبس بأية كلمة، انتظر خروج الأطباق من الطرف الآخر، استدار يبحث عن مناشف بحركة متثاقلة متجاهلًا حتى دخول كردينوس الطباخ الذي أتى مسرعًا ثم لوى جسده بحركة أشبه بالبهلوانية حتى يتفادى جسم السيدة ثريا التي جفلت منه وابتعدت إلى الوراء بردة فعل سريعة حتى لا يصطدم بها، كاد أن يسقط على الأرض لولا أنه أسند يده على حافة الطاولة الخشبية، أصلح من توازنه واختفى داخل الردهة الصغيرة المؤدية إلى المخزن، وقد تبعته عيون السيدة ثريا بشيء من الاستغراب، لكنها تجاهلت الموقف ولم تعلق، أشاحت بناظريها نحو أنور الذي لم تند منه أية التفاتة أو ردة فعل لما حدث وقد أمسك إحدى الأطباق واستمر في تنشيفها بحركته الثقيلة.

ـ لم تقل لي ... هل ستسهر معنا الليلة؟

حينها فتح أنور نصف فمه المغلق وأصدر صوتًا أشبه بضربة صغيرة على صفيح من الألمونيوم وقال:

ـ لا أظن ذلك.

ـ لست أنور الذي نعرفه، لم تعد مرحًا كما في السابق.

ـ أنور آخر.

ـ لا تجعل أي طارئ يؤثر على مسير حياتك.

كان الوقت غير مناسب لأن يخوض أنور في التفاصيل، لذلك أراد أن يغير مجرى الحديث عندما قطع عن السيدة ثريا كلامها وقال:

ـ أريد إجازة طويلة، فأنا لست على ما يرام.

ـ لا يوجد لدينا بديل.

ـ غسان السوري.

تفكرت السيدة ثريا قليلاً قبل أن تمضي بخطى سريعة نحو الصالة تاركة أنور يمسك بيده طبقًا رماه بقوة على مجموعة من الأطباق المتراصة، ثم أسند يديه على حافة الطاولة الحديدية وعصرهما بقوة، زفر واستدار نحو الممر الضيق الذي يفصل الفرن عن الحائط ذي الرفوف المسطحة، أفسح الطريق لكردينوس الطباخ عندما أحس

بضربات حذائه تأتي مسرعة من الخلف، دلف عبر الباب الكبير ليجد نفسه في صالة المطعم الواسعة، جلس على كرسي بالقرب من النافذة يترقب السيدة ثريا وهي منهمكة بمكالمة هاتفية على تلفونها المحمول، أشبك يديه باسترخاء، لكنه جفل حين سمع صوت النادلة روزي تناديه.

ـ أنور، كوب من القهوة.

هز رأسه بالموافقة دون أن ينبس بأية كلمة، بخفتها المعهودة جلبت له كوب قهوته المعتاد، وضعته أمامه وجلست قبالته بعد أن أخذت السيدة ثريا تسير إلى مكان بعيد، تأفف أنور بعد أن ارتشف الرشفة الأولى، وأبعد الكوب عنه بعيدًا، وقال بعصبية:

ـ القهوة مرة.

ـ قهوتك المعتادة.

ـ لم تكن كذلك.

ـ واحد من الكريمة وثلاث ملاعق سكر.

ـ ليست ثلاثة.

ـ وضعت ثلاثة، صدقني.

وبعصبية وقف حتى كاد كوب القهوة ينسكب على الطاولة وقال:

ـ إنها أسوأ قهوة شربتها في حياتي.

ـ سوف أبدلها.

ـ لا أحتاجها.

حين قام وعاد إلى داخل المطبخ ظلت روزي جالسة تتابعه بعينيها المدهوشتين، مر على كردينوس الطباخ في طريقه، كان منهمكًا في عمله، فتح الماء وغسل كلتا يديه وصفقهما على وجهه ومسح رأسه، أخرج الهواء من فمه طويلاً ممدودًا وعندما التفت إلى الخلف وجد روزي أمامه مرة أخرى تحمل بيدها منشفة دفعت بها إليه، التقطها ووضعها على وجهه طويلًا وكأنه يريد الهروب عن وجه روزي التي بادرته بقولها:

ـ أنور، أنا أفهم ما تمر به من حالة نفسية لذلك أعذرك.

نكس رأسه ورفعه مرة أخرى نحو عينيها، أمسك بيدها واقترب منها حتى كاد أن يلتصق بجسدها، أحس بضربات قلبها وأنفاسها المتسارعة يعلوا صداها بداخله ولم تبد روزي أية حركة لتتزحزح عن وقفتها.

ـ أنا آسف روزي، لم أكن أقصد ذلك.

حينها وضعت إصبعها على فمه بكل حنان، لكنه ومن دون أية مقدمات أمسك بيدها وأخذ يقبلها ببطء، تركته يقترب نحوها أكثر ولم تعترض، لم تبعد عنه رأسها،

استسلمت حين أقدم على المساس بشفتيها بل أغمضت عينيها بانتظار قبلة أنور التي كانت تحتاجها منذ زمن بعيد، ولكن قبل أن تلتصق الشفتان كان صوت السيدة ثريا التي أخذت تتطلع بهما في دهشة كفيل بأن يجعلهما يجفلان، قالت وهي تستدير وتعود من حيث أتت :

ـ سوف يحل غسان محلك، بإمكانك أن تأخذ اجازة.

مضى الوقت بطيئًا، لم يتحمل الساعات الأخيرة من عمله، اتجه إلى كردينوس الطباخ الذي كان مشغولًا بتحضير خلطة لطبق جديد خارج المألوف، لم يكن الإلهام وحده هو الذي كان عائقًا في وجه خبرته طوال ثلاثين عامًا قضاها بين المطابخ العالمية، كان فاشلاً حد الخيال وصعب المراس حد المراوغة، يحلم باختراع طبق جديد مميز يبهر به العالم، لا يهم كيف يكون، ما يعنيه هو النجاح ولو لمرة واحدة في حياته، فقط أراد أن يرسخ الذات لديه ليتميز عن باقي أقرانه من الطهاة، حاول طبخ رحيق السمسم مع مخ حمام مدجن مع بعض البهارات التايلندية، وبعد أن تذوقت السيدة ثريا قالت له: (كأنه براز كلب) ، ولكنه لم يهدأ حتى هرس الباذنجان مع قليل من لحم الكانغر، وأضاف القرنبيط الذابل كنكهة إضافية لأكلات البحر الكاريبي، وصلصة معجون شجرة التيتانيوم، كانت السيدة ثريا مبهورة بالخلطة الغريبة، ولكنها عندما اقتربت من الطبق لم تطق رائحة أشبه بثاني أكسيد المغنيسيوم النفاذة فقالت له بتهكم: (هل

طحنت معه ذيل الفأرة) ، ولكنه لم ييأس ولم يتراجع، يسمع كلمات الاستهزاء دائمًا ولم يحس بالإحباط بل يرد على الفور من دون أن يلتفت الى من ينتقده : (أنا فخور بما أصنع) .

وقف أنور خلفه مباشرة وهمس بأذنه :

ـ هل لك أن تعطيني سيجارة واحدة كردينوس؟

لكن كردينوس الطباخ لم يلتفت إليه، قال له بكل هدوء كلمات بلهجة أحسها أنور أنها تصدر من واعظ.

ـ انظر أنور... لقد فعلت كل شيء قد لا يخطر على بالك، ولكني وفي عمري هذا لا أود أن أكون سببًا في موت أحد يحمل رئة معطوبة.

حينها انسحب أنور إلى الوراء بعد أن انتابته حالة من العصبية، فتح الباب المطل على الشارع ووقف في الخارج، أخذ نفسًا عميقًا من الهواء، كانت مجموعة من الموسيقيين الهواة ، أشد ما كان يميزهم شعرهم الطويل المتسربل وحملهم لآلة الملوديكا والأكرديون بتأن، يعزفون لحنًا هادئًا على نمط حزين بالغ، أحسه يتطاير في المدى ويميل مع اتجاه الريح بتموجات تلامس القلوب من غير تصريح، كانت نغماتهم تتعدى كل أزمان المعاناة وتطرح في القلب شعورًا من الراحة، إنسابت مع أشعة الشمس

ونثرته عبقًا يختلط بالنسمات التي بدأت تميل إلى الدفء ، أحس أنور بأنها ذات النغمات التي سمعها وهو يتجه إلى المبنى الزجاجي الكبير القابع في منتصف المدينة ، حيث كانت محاكمته في قضية طلب اللجوء.

****

عندما ولج إلى داخل المبنى مع المحامي أيزك الأفريقي أحس ببرودة كبرودة أيام شباط القارسة، ما هي إلا بضع دقائق كانا يجلسان بها لوحدهما في القاعة الواسعة على كراسي الانتظار حتى استدعوهما إلى قاعة المحكمة، كانت تلك الجلسة ثاني المحاكمات في قضية هجرته إلى كندا، اليوم سوف يكون البت بالقضية نهائيًا، إما القبول أو الرفض، عيون المحامي الأفريقي أيزك أخذت تشع وكأنها عيون قط بري متوحش، كان يتأمل بنطق الحكم الصائب والظفر بالقبول، حين التفت المحامي نحو أنور طبع على فمه ابتسامة لم يرها منذ أن أتجها سويا نحو مبنى المحكمة ، كانت ابتسامة راضية ولكن يشوبها بعض القلق، قال له وهو يقترب منه: (أرجو أن تكون صبورًا للساعات القادمة، شكليات لا بد منها) ، كان إحساس أنور مخلوطًا ببعض الخوف، لم تخلوا القضية من الأخطاء الشائعة التي لن تعكر مسار القضية التي يعرفها الجميع، العيش بسلام في أوطان بديلة بعيدًا عن الوطن الذي فرض الظلم، المعاناة،

القهر والعذاب كعيش للإنسان البديل، ولكن يبقى القرار النهائي بيد القاضي الذي سوف يحكم على حسب قناعته ومزاجه.

عندما أتى القاضي وجلس على كرسي خلف طاولته المرتفعة، انتابت أنور رهبة أخذت تزداد تدريجيًا عندما رأى القاضي يبتسم لهما ابتسامة صفراء، كانت امرأة في الستين من العمر، أتت بوجه متجهم مصطنع، وعينين تشع بالشكوك، وقد جلس في القرب منها قاض آخر يصغرها ببضع سنوات، يتشبب بشكل فاضح بلبس قميصه الوردي الضيق وقماشة حمراء ربطها حول رقبته، وجه لدن وشعر مصفف إلى الوراء، يلبس بأصابعه خواتم عدة ذات فصوص ملونة بارزة، كان يكثر من حركاته اللينة التي تجبرك على التململ، صوته الذي يشبه صوت المرأة أحسه أنعم من آهات تطلقها فتاة تمارس الجنس عبر التلفون، كان أنور يجلس قبالته بينما أخذ المدعي العام مكانه خلف طاولة أخرى منفصلة غير بعيدة.

لقد بدأ الهجوم بسيل من الأسئلة العادية الرتيبة التي لا تتعدى حدود التعريف بالقضية المطروحة، واستمر إلى أن وصل إلى الذروة، عندما بادر القاض ذو الجسد اللدن في السؤال عن السبب الرئيس بالقدوم إلى كندا، وعن سبب اختياره له، وكيفية العيش به وتطلعاته فيما إذا كان الرفض وتقديره لمواقف ما بعد القبول، أخذ يهيل عليه أسئلة كثيرة ومتعاقبة دامت أكثر من ساعتين كان أنور يرد عليها بكل هدوء واتزان، ولكن

السؤال الذي استوقفهم جميعًا ودارت حوله أغلب النقاشات هو كيفية مجيء أنور إلى البلاد بطريقة غير قانونية ودخوله بجواز سفر سعودي مزور لا يحمل اسمه، لقد شدد القاضي المثلي على الجواب وهو يتمعن بوجه أنور عبر نظارته ذات الإطار الذهبي وكأنه وجد به ضالته المنشودة وسببًا وجيهًا لرفض قضيته، لقد وجه له السؤال بنعومة مخلوطة بخبث (سيد ماشين، لماذا أصررت على دخول البلاد بطريقة غير مشروعة، واستخدمت جوازًا مزورًا في ظل ظروف كظروف الحادي عشر من سبتمبر).

لم يكن الجواب أقل حدة وذكاء من تجاهله أو مراوغته بين صفصفة الكلمات أو التلعثم، فقد كان الجواب منطقيًا لا يحمل أي شك، رد أنور بكل هدوء وثقة (لم يكن عندي طريقة للخلاص أفضل من أن أكون لست أنا حتى أصل إلى هنا أما ظروف أحداث الحادي عشر من سبتمبر، فلم أكن أعلم عنها شيئًا) حينها تنبه القضاة إلى الوقت الذي طال أكثر من اللازم، بعد أن فرغوا من كل المعطيات رفعوا الأوراق ووضعوها في داخل ملفات من دون أن يدلوا بقرار نهائي، ما لبثا وأن قاما واتجها إلى الداخل، تطلع أنور إلى وجه المحامي الذي دون بعض الملاحظات في دفتره وما إن فرغ حتى أشار له بالخروج.

تذكر ذلك اليوم حين أقلعت الطائرة من مطار العاصمة البلجيكية بروكسل وهي تتجه إلى مطار مونتريال في كندا، رحلة الخلاص التي أحسها أنور تمر عليه وكأنها دهر،

أحس في البداية بنار تشتعل في داخله، كان خائفًا من النكسة فيما إذ اكتشف موظف الجوازات أمره، سوف يعيدونه من حيث أتى أو يسجنونه، ولكن حين أقبل على النافذة التي قبع خلفها موظف الجوازات كان الأمر قد جرى طبيعيًا، لم تكن هنالك أية مشاكل، فقد ختم الموظف على جوازه المزور بكل سلاسة وأسلمه إياه، حين أقلعت الطائرة مرة أخرى متجهة إلى مطار مونتريال، أحس أنور بأن النار التي كانت مشتعلة في داخله قد انطفأت وساد بداخله السكون، ولكن النيران التي أخذت تسري في برجي التجارة العالميين في مدينة نيويورك قد بدأت بالاشتعال، لم يكن يعلم بأن الدخان كان ينتظره هناك.

برجي التجارة كانا معدة مسبقًا للموت، لقد نفذوا المخطط بكل راحة واقتدار، بحثوا كثيرًا عن مبرر لدخول الحرب بكل سلاسة واجتياح الشرق ولم يجدوا غير فبركة أحداث كانت أشبه بفلم سينمائي مدروس، والتضحية بأجساد متفحمة، لم يعد هناك مجال للتراجع بعد أن رسم فرسان المعبد خارطة العالم الجديد الذي تنبؤوا بمستقبله الحافل بأكوام من الجماجم ودخان لا يهدأ، لقد اتضح كل شيء بعد أن أعطتهم الحركات الجهادية في أفغانستان تصريحًا لدخول بلادهم، وأعطاهم صدام حسين مبررا مفبركا لغزو العراق ، لم تصبح الحاجة ملحة في فهم ما يدور سوى أنك لا بد أن تحدد موقفك الآن من أحد الخنادق المحفورة سلفًا أو تكون بإحدى السلتين

المملوءتين أشلاء أوطان تناثرت بطرقات العهد الجديد، لقد أصبحت الأوطان من دون أية صدفة وليمة للطائرات التي بدت كالطيور الجارحة، تقصف بلا هوادة في الشرق .

انتبه إلى صوت روزي يأتيه من خلفه، عندما التفت وجدها تمد له يدها بسيجارة، تمعن بوجهها الباسم والتقط السيجارة من يدها ، قالت له بصوت حنون :

ـ لا أحب أن أراك متضايقًا.

ـ أنت تدفعين بي إلى الهلاك روزي.

تطلعت بوجهه وتبسمت وقد أخذ الهواء خصلة من شعرها قبل أن تعود إلى الداخل مرة أخرى مسرعة، لكن أنور أمسك بيدها وقال:

ـ روزي أريد أن أراك بعيدًا عن هنا، أنا أحتاج لك أكثر من أي وقت آخر صدقيني.

لكنها أرخت عينيها وسحبت يدها قبل أن تدلف إلى الداخل وهي تقول له:

ـ انتظر قليلًا، لدي مفاجأة لك.

عندما عادت كانت تحمل بيدها سلسلة فضية يتدلى منها صندوق من الخشب صغير مزخرف أشبه بالفضي أسلمتها إياه، لم يصدق عينيه حين فتح الصندوق الذي كان

بداخله كتابًا أصغر من حبة الفول، تمعن به كثيرًا وأعاد ناظريه نحوها بعينين كادتا أن تدمعان، حينها هز رأسه دون أن يتكلم وأخذ ينظر إلى عينيها، لكنها بادرته القول:

ـ أنتم تؤمنون بوجوده قربكم.

لم تكن العيون وحدها هي التي التقت، شيء ما في الصدور يكاد يفز ويلتقي هو الآخر، تبسمت وهزت رأسها قبل أن تعود إلى الداخل فيما أخذ هو يضم القلادة إلى صدره وكأنها الشيء الذي كان يبحث عنه منذ زمن، نسيه أو حاول أن يتناساه بقدر الإمكان، عصر عينيه بقوة ما لبث أن فتحهما على الكتاب الصغير الذي لم يكن إلا قرآنًا صغيرًا.

لم يكن ملتزمًا دينيًا، كان أبعد ما يكون عن حدود الالتزام والتقيد بتعاليم أي دين، كان فكره بعيدًا عن أي طريق يفرض عليه تعاليم لا تتقبلها نفسه ولا تتطابق مع مسيرة حياته التي أحس أنه ما وجد في هذه الدنيا إلا أنه يأخذ جزاءه من العذاب منها ويرحل عنها، لا يحب الانتماء إلى قوانين تقيده وتقربه من لعب دور متزمت تفرضه عليه كلمات أسطورية تنغص حياته وتجبره على قتل الآخر من أجل الله، لقد رفع شعارًا بداخله حين كان اليأس والخذلان شريكان لأسراره، الإنسانية والإنسان فقط، أما غيرها فلا يود أن يضع حياته في صندوق ضيق من الأحجيات يتحكم بها رجال دين كاذبين ومتصنعين بعد أن اختلفت الطرقات إلى الدين الحقيقي، لم يعد بعد الآن أحمق ليصدق

المتصنعين يلهجون بتعاليم قد عفا عنها الزمن، أما أن يموت الإنسان على الحق في حب الله، وإما أن ينام نومته الأبدية وهو غير راض عن نفسه، فالإله لديه موجود في قلوب المؤمنين به فقط.

كان أنور يريد أن يبدأ بثورة على المألوف ويرمي بسهم لا مع سمة من الرجعية، كان يجزم أن الإنسان سوف يصبح في يوم ما قنبلة موجهة تكتسح كل قيم ومعايير الإنسانية إن هو اتبع أهواء شيوخ الدين الذين تلهم بعض كلماتهم البسطاء فيصدقونها، أناسًا تصبح مسيرة بطريق من الأوهام التي تصبح فيما بعد حقيقة يدافع عنها ويستميت من أجل تحقيقها، يقصي كل من يتعارض مع توجهاته وإن لزم الأمر يقتل الآخر من أجل الكلمات ، هو ذات الإنسان الذي أضاع طريق الحقيقة، مراحل من التخبط الأعمى في اتباع عقيدة مزيفة في النفوس .

قبض أنور بيده على الصندوق الصغير وعصر عينيه ، أخذ يستمع الى نغمات الفرقة الموسيقية التي بدأت في العزف بنغم عال.

١٠

تكدست البيوت في الأعلى فوق بعضها بعضًا، المباني المربعة تتطاول على قمة الجبال الصخرية فتبدو كأنها خرجت من رحمها، هناك في الوادي شارعان طويلان يمتدان من بداية مركز مدينة عمان إلى آخرها، وعلى طولهما تقع الفنادق والساحات والمطاعم التي تشكل مع بعضها مركزًا لالتقاء القادمين من المدن البعيدة والسواح والناس الذين أخذوا يملؤون بعض الطرق الجانبية التي اتصلت بالشارع الرئيسي لتشكل حلقات وصل بين منخفض أو مرتفع، كان في المنتصف بقايا ركن من قلعة رومانية قديمة صفت حجارتها الكبيرة على مساحة شبه معقولة لا تتعدى أن تكون مجرد نموذج قد وجد سهوًا في منتصف مدينة عمان.

عندما توقفت سيارة الأجرة ونزل منها أنور الذي أخذ يجيل ناظريه على الجهتين يستكشف المدينة التي بدا فيها سكون الصباح أشبه بالخامل، أخرج قصاصة من بنطاله وقرأ ما بها، رقم تلفون بِاسم حسين طاهر القارورة، وعنوان فندق المستعصم الذي لم يتكلف العناء الكبير في إيجاده، فقد كانت اللافتة التي رآها أمامه تدل عليه، كان الفندق عبارة عن باب ضيق كأنه منسي من بين العمارات التي حوله، عندما دخل من خلاله كان هناك درج يؤدي إلى الأعلى، حين أخذ يرتقي درجاته وجد في أعلاه

مكتب صغير يجلس خلفه رجل مسن لم يكلف نفسه في النظر إلى وجه أنور الذي وقف أمامه ورمى بجوازه على الطاولة وقال: (السلام عليكم ،عندك سرير خالي؟)

أخذ الرجل المسن يتمعن بوجهه طويلًا، ثم ابتسم ابتسامة صفراء وأشار له برأسه إلى الممر قبل أن يقول (أنت جديد هون ، شوفلك سرير فاضي بالغرف اللي گبالك) وأردف بعد أن أحس بوقوف أنور الطويل (هونيك في عند العراگيه راح تلاگي سرير فاضي) حينها استدار أنور وسار في الممر الذي هبت منه رائحة البصل والثوم ورائحة القهوة، اقتادته قدماه إلى الغرفة الأولى التي كان بابها مفتوح ولكن قبل أن يدخل بها وجد فيها شخصان يجلسان على أرضية الغرفة ، رمى عليهم السلام وهو يتقدم إلى الداخل ويقول (الله يساعدهم ، أدور على ولد اسمه حسين طاهر القارورة ... أبو علي) حينها تطلعت الوجوه ببعضها بعضًا، رد أحدهم وهو يتمعن بوجه أنور وقال (تقصد أبو على القارورة... هذا سريره هنا لكن هو يسكن الشيراتون) بعدها تعالت الضحكات منهم بينما بقي هو واقفًا واجمًا لا يعلم ما يقول، ولكن أحدهم أشار له بأن يتقدم إلى الداخل، رمى بحقيبته في القرب منه وجلس على الأرض، قدموا له الشاي وأخذوا يتبادلون معه أحاديث متشابكة، انهالوا عليه بسيل من الأسئلة عن أحوال البلد عندما علموا بوصوله من العراق للتو ، قدموا له أنفسهم، عبد العال الوردي والأستاذ ماضي الدخيل مدرس التاريخ.

لم يكن وحده إذن، لقد وجد أشباهه وإن اختلفت الأسماء والوجوه، المعاناة بدت على وجوه عارية ترتجف في يوم ماطر، ها هم يتجمعون حول بعضهم، يحملون التوابيت والقبور بداخلهم وحكاياتهم أيضًا التي بدت بنفس حكايات الأمس، لقد جلس أنور بقربهم صامتًا على الأرض بكل بساطة وأخذ يتفحص الوجوه التي كادت أن تكون بنفس قسمات وجهه المقسوم إلى نصفين، نصف محروق يكمن به شاهد العذاب والنصف الآخر يحمل أملًا غير صريح، أراد أن يتمعن بحنينه إلى بني جنسه أكثر ويحكي لهم نصف حكايات تكاد تقفز من بين الضلوع ويطلق النصف الثاني للدموع ، حديثهم وكلماتهم وحسراتهم وضحكاتهم التي بدت بطعم الانهزام والانكسار أصبحت مشبعة بالآهات، تحدثوا في الليالي كثيرًا عن الحروب والمعارك والأموات والسجون التي خرجوا منها، ولم يفرطوا بكل كلمة كانت تجري من أفواههم المتعبة، لقد أخذوا يتكلمون عن أعمالهم وآمالهم في الغربة التي أذلتهم وجعلتهم يذهبون بنوبة من الحسرات خلف بقايا دموع يابسة على الأحداق.

من بين زحمة الوجوه التي أخذ أنور يتذكرها وهو يجلس في صالة شقته الأستاذ ماضي الدخيل أستاذ التاريخ الجامعي، أشد ما كان يجتذبه تلك الوداعة التي كان يحملها في نفسه والطيبة والتسامح، ذلك الرجل الذي نفي نفسه إلى الخارج مرغمًا، واختار الغربة على العذاب والموت الموارب، كان الكل يستمع له حين يتكلم بصوته الهادئ، أخذ

يروي قصة معاناته قبل خروجه من العراق، واشتغاله بمعمل الحجارة في أطراف مدينة عمان، كان الجميع يستمع إلى قصته التي رواها للمرة الألف بصوته الهادئ الرزين وكأنه يرويها لأول مرة، كان مثله مثل غيره الذين يقفون طوابيرًا على جرف النهر الذي طفت فوقه التوابيت وأخذت تسير إلى مكان غير معلوم.

ارتبط اسمه بأسماء المغضوب عليهم من دون سبب معين، هم يمقتون التاريخ، لا يريدون سماع أحداثه غير المستورة، كان يتجنب الاجتماعات وأسئلة الطلاب الملحة عن الآثار المهربة والتاريخ الذي زورت وجوده السياسات التي عمدت على تشويهه بشكل منظم، يتجنب التجمعات والمقاهي، استمر على زيارة أبي نضال رئيس الفرقة الحزبية في كل نهاية أسبوع مع زوجته التي كانت تجبره على ذلك خوفًا من العواقب الوخيمة إن هو لم يواظب على مجاراة الحزب الذي أخذ يترصده في كل مكان، كان يحمل معه في كل مرة كيلو من حلوى الدهينة النجفية والطرشي المدبس إلى بيت أبي نضال الذي يحاول دائمًا أن يكون لطيفًا وظريفًا طوال السهرة مع زوجته التي دائمًا ما تبادله النظرات والضحكات، مما دعاه إلى قطع زياراته بعد أن أحس أن كل ذلك ليس بريئًا، كان يجب عليه أن يتحمل نكاته ومواقفه السخيفة على مضض وهو يجامله في ابتسامة مريرة ، لقد أجبره أبو نضال على لبس اللباس العسكري ذو اللون الزيتوني في أيام العطل الرسمية، وأمره بحمل السلاح والانتصاب على باب مقر فرع الحزب يومًا

كاملًا حتى الصباح دون أن يأكل ويشرب، كان الأستاذ ماضي يرى بعينيه عربات تجرها الأبغال، يقفون عند الباب الرئيسي لمقر الحزب ثم يدخلون مسرعين وبيدهم ملفات صفراء تحمل بداخلها أوراق إدانة لشخوص يعرفونها ويخرجون وهم بأيديهم أكياسًا بلاستيكية سوداء تحمل الطحين والعدس والرز، يزمونها فرحين، رغم محاباة الأستاذ ماضي لقرارات الحزب، لم ينجوا من تقارير الملفات الصفراء التي كانت تكتب ضده عند رئيس مكتب الحزب أبو نضال الذي استدعاه في يوم من الأيام لأمر طارئ.

اقتادوه يومها عبر الممر الطيني للبناية الرئيسية للحزب، ليجد نفسه على مبعدة من أبي نضال الذي جلس خلف المكتب وشخص آخر كان يقف قرب النافذة يعصر بيده الورد المتيبس بأصيص كان على حافة النافذة المطلة على بركة من السيان المخضر، حين رآه يدخل من باب الغرفة نفض يديه ومسح على بدلته العسكرية ذات اللون الزيتوني وأخذ ينظر إلى الأستاذ ماضي نظرات قاسية، لقد أراد أن يختصر الوقت بأن قال بعجالة: (الله ما راح يرضى عليك ما دام أنت بعيد عن هاي القاعة)، كان صدى صوت الرجل يتردد بشكل حازم في الغرفة شبه الفارغة وهو يشهر إصبعه بوجه الأستاذ ماضي الذي تلقى قرارًا لا رجعة فيه (راح تصير نصيرًا متقدمًا بالدورة الحزبية الجايه)، حينها جاءه صوت الأستاذ ماضي هزيلًا مستسلمًا ضعيفًا، لقد رد عليه من دون أن

يتحذلق وقال: (هذا شرف الي من الله يا سيدي) لكن الرجل ذو الرتبة الحزبية العالية تبادل النظرات مع أبو نضال الذي أخذ يتطلع بوجه أنورمليًا ويعيد النظر الى الرجل ذو الرتبة العالية ، وبنظرة فاحصة عرف الأستاذ ماضي مغزاها، لم يبادر الرجل ذو الرتبة الحزبية العالية بأية بادرة غضب أو استياء، بل فتح نصف فمه في ابتسامة صفراء وأشار له بيده دليل الانصراف، ولكن قبل أن يخرج من الباب استوقفه بليونة وبنبرة استهزاء وقال بكل برود: (رفيق ماضي ، هسه تقدر تسلم جناحاتك بالغرفة اللوخ لما ينتهي دوامك وتطلع لبره) .

حقيقة هرب الأستاذ ماضي الدخيل خارج العراق رواها له فيما بعد عبدالعال الوردي جاره وصديقه منذ زمن بعيد ، قال وهو يأكد على حساسية الأمر الذي أفضاه الأستاذ ماضي له ،قال عبدالعال الوردي ،عندما دخل الأستاذ ماضي الدخيل غرفة نومه في أحد الليالي ، كان قد أعد كل شيء من قضاء ليلة حمراء يصهر بها جميع ألوان شوقه المؤجلة، لكن زوجته في تلك الليلة لم تعبأ به وأخذت تماطل وتستخف برجولته وهي على نفس ملابسها البيتية التي أبت أن تغيرها برغم إلحاحه مما دعاه إلى الغضب، فتح دولابها الذي كان يحتوي على العديد من فساتين النوم، أخذ ينثر جميع الملابس على الأرض وهو يقول لها إنه يستحق منها أن تكون بداخل أحد هذه الفساتين، لكنها ردت عليه بشكل غاضب وقالت: (أني تعبانه ، انت ما جاي تحس بيه) حينها أخذ

ينظر إلى العطور التي على الرف والهدايا التي لا يعرف كيف حصلت عليها زوجته، كانت هناك أشياء غريبة، تحفيات صغيرة ، قلائد وأساور من ذهب ، ساعات وخواتم و صناديق فضية صغيرة ، من ضمن ما وقع في يده بعض أشرطة من حبوب مانع للحمل، لكن الأغرب من ذلك أنه وجد ملفًا أصفر عندما سحبه تناثرت أوراقه على الأرض، قرأ بعضا منها واستدار نحوها بفزع ، لم تكن تحتوي هذه الأوراق سوى انها تقريريحمل ادانته التي تؤدي الى موته.

لم تمهله الشكوك إلا لحظات حتى تبين له أن زوجته التي أحبها قد لفت حول رقبته حبالًا من الشوك، وأباحت البيت الآمن الذي بناه من حبه إلى البغال ، بعدها أيقن أن علاقة أبو نضال ونظراته لزوجته التي لم تكن تحمل أي احترام أو إعجاب عادي قد كان لها مدلولات أخرى اتضحت أمامه الآن، أبرز ما توصل إليه هي الخيانة غير المتوقعة، لذلك، لم يتكلم ولم يصارح حينها، في اليوم التالي حزم أمره، ترك كل شيء خلفه واتجه نحو الحدود التي قطعها خلسة في ليلة أحس أنه سوف يذهب إلى الهاوية يحمل معه الخذلان.

****

أراد أنور أن يزيح حقبة من ذاكرته من ذلك الزمن الذي كان وجوده في عمان أشبه بمرحلة الفرار من الموت فقط ، أحضر ورقة وقلم وأخذ يخط بيديه خطوطًا متشابكة

فوق الطاولة قبالته بالصالة في انتظار روزي التي قد لا تأتي وقد تأتي، أطلق يده على الورق، وأخذ يخط بقلم من الحبر خطوطًا مهملة ليس لها معنى بعد ذلك أخذ يملأ المربعات والمثلثات الناتجة عن تقاطعات الخطوط بالحبر لتدب بها الحياة فتتضح الأشكال الهندسية بشكل منظم، هكذا هو دائمًا عندما يريد أن يسافر مع تخميناته المتقدة ، لقد شدد بالأمس على روزي حين قال لها أنه يحتاجها من أي وقت مضى، هل حسبت انه مجرد كلام عابر أم ضنت أنه يهذي من أثر المرض ، أخذ ينظر إلى الباب بين حين وآخر في انتظار دخولها عليه ، لم يحب أن ينتابه ذلك الشعور بالإحباط واليأس، وإن اتضحت حياته بعد كل مواقف الصدود بليدة لا لون لها ولا طعم وبلا رائحة إلا من بصيص من طيف جسد يأتيه بين الحين والآخر في مواقف أشبه بالحلم، يضيف إلى عذاباته بضع تفاصيل غير مهمة، ربما لن تطرق بابه البهجة في يوم من الأيام ويظل في قائمة الانتظار أو ربما يغفو على رمال الترقب الطويل، ويجعل من سطح اللذة أحجية تتوق إلى قطافها روحه المندفعة ، في لحظة من عدم التصديق ، سمع طرقًا خفيفًا على الباب، كان خجولاً لا يتعدى ثلاث دقات ويسكت، فز من مكانه واتجه إلى الباب وفتحه بسرعة.

- مرحبًا.

لقد كانت روزي واقفة عند الباب مترددة بين الدخول أو العدول عن ذلك، من دون أية كلمة، أمسك أنور يدها برفق وسحبها إلى الداخل، ولم تمانع، وما إن دخلت حتى أخذت تتفحص الشقة وهي تخطو بخطوات متأنية نحو الأريكة وتجلس قرب دمية راشيل، رمت بدفتر وردي بقربها، ومررت ناظريها على باقي الدمى والألعاب التي ملأت الغرفة، تفحصتها بشكل من الاستغراب وقالت:

ـ الدمى كثيرة هنا.

تجاهلت ابتسامة أنور عن قصد ولم تتطلع في وجهه، أشغلت عينيها في النظر إلى المكان، ركزت بناظريها على اللوحة الزيتية التي كانت في الواجهة، هزت رأسها والتفتت إلى أنور مبتسمة، قامت وخلعت عنها جاكيتًا طويلًا ورمته على الأريكة، ثم اتجهت إلى اللوحة بخطوات متأنية وأخذت تتمعن فيها عن قرب، كان هناك ولد يعزف على آلة الجيتار بحقل من الزهور خلفه يقع بيت ريفي قديم وقد حلقت بقربه العصافير، كانت تلبس فستانًا ضيقًا من الستان الأسود، حصر جسدها من جهة أسفل الصدر إلى أعلى ركبتيها بقليل، لم يتمعن أنور بجسدها من قبل، وجد أن النهدين البارزين مربكان، الخصر الذي قد بدا معقولاً بالرغم من الشحوم التي ظهرت على الجانبين والتي تكاد لا تذكر أعطى ميزة إضافية إلى تناسق جسدها، ساقان مكتنزتان إلى أسفل القدم شبه المفلطحة ، حين استدارت أخذت تتطلع في أنور الذي انتبهت

أنه مطرق بصمت، تركت اللوحة وتوجهت نحوه، جلست بقربه وأمسكت يده ثم قالت بحنان:

ـ أنور ما بك ... احك لي.

حين التفت نحوها، التقت عينيهما ببعضهما بعضًا، أخذت النظرات وكأنها تضرب بالأرض البور، فتروي أجزاء من الخراب واللهفة، احتوته رائحة عطرها، كانت أشبه برائحة التفاح المغموس بالورد، أحسه أنور منقوع بالرغبة منذ أمد بعيد،كان يود أن تكون علاقتهما في حدود العمل فقط مع بعض التوافق والانسجام، دائمًا ما يتجنب نظراتها الحنونة، تزعجه كثيرًا حين تأسره من وقت لآخر، كانت كل الدلائل تشير إلى أنها تحاول التقرب إليه، ولكنه كان يصدها برغبة منه، ويختصر علاقته معها في حدود الزمالة؛ لأنه أحس أن نظراتها لم تكن إلا نظرات شفقة وعطف، لكنه أحس اليوم أنه يحتاجها فعلاً بقدر خلجاته، عندما اقتربا من بعضهما بعضًا أكثر اهتزت شفتيهما وكأنهما تحادثان بعضهما، ما لبثتا وأن التصقتا بحرارة وشبق، حينها، تحركت جميع الألعاب ذات البطاريات الجافة وأخذت أضواء بعضها تتلمظ، القطار الصغير أخذ يدور دورة كاملة، ولم يتوقف بمحطة معينة، تسمر الدب القطني الأحمر بمكانه يترقب نهاية اللقاء، استعد الجندي المطاطي بسلاحه الطويل تأهبًا لإطلاق الرصاص، استثار الموقف الولد في اللوحة الزيتية الذي بدأ العزف على آلة الغيتار بنغمات أخذت

تنساب في الغرفة وتتمايل في الهواء فتخترق الجدران وتذهب إلى أبعد ما يكون، فتمر فوق العشب والشجر وكأنها تتناغم وتختلط مع زقزقة العصافير التي أخذت تحلق بعيدًا إلى ما وراء البيت الريفي البعيد المرسوم قرب طاحونة الهواء خلف التلال الواطئة.

كانت أمنية أنور في هذه اللحظات أن يفتح أقفال تدابير الكون، أراد أن يلازمه هذا الشعور مثل ظله، يفتح أبوابًا كانت موصدة ويجعلها تحلق معه عكس الطيور الهاربة، قبلة واحدة ساخنة أحسها قادرة على أن تجعل جرار الشعور تفيض بالعشق، وتملأ السنابل الصفراء والأرض البور، لقد أحب أن يلملم جراحاته المتبقية على صدر روزي، ويُسمعها نداء متاهات نبضه، ويلهب أنفاس الحب بكل حواسه الظمآنة، لكنها وبلحظة غير محسوبة ، سحبت روزي وجهها ببطء، ونكست رأسها إلى الأسفل وكأنها تذكرت شيئًا تناسته ، تزحزحت عن موقعها مرتبكة وأصلحت من جلستها، بعد لحظات من الصمت قالت له بارتباك فاضح :

ـ كنت أود أن أسعدك، ولكن لا أقدر الآن على ذلك، إنها الدماء القذرة.

ابتسم أنور وربت على يدها، لقد انزعج من تصرفه نحوها، لم يشأ أن يعقد معها علاقة حميمة بهذه السرعة، لكنه قال بارتباك :

–لا تهتمي ، أنا أقدر موقفك .

أرادت أن تهرب بنظراتها بعيدًا عنه، أشاحت بوجهها إلى النافذة، وقالت دون أن تلتفت إليه:

ـ سوف ألقي عليك قصيدتي التي هي آخر ما كتبت.

فتحت دفترها الوردي وأخذت تقول بصوت حالم:

لا تسألني عن شجن نبضي الساكن

يدور كما تدور أمنياتي في اللقاء

عند أيام قطاف سنابل شوقك

يلتقط أثرك كالطائر في الدروب الطويلة

قد يشرب جرارًا من غرامك ولا يرتوي

وقد ترويه كلمة من شفاهك

فلن أحلق حتى تمنحني حنين قلبك الأبدي

أو أعود مهزومة ... بين دموعي

بعد أن انتهت ، ساد بعض الصمت مجدداً ، كلماتها الجميلة جعلت أنور يتطلع بها بإعجاب ويقول :

ـ رائعة هي الكلمات .

لكن روزي أمسكته من يده وقالت له بصوت أشبه بالرجاء:

ـ أنور صدقني إنها مسألة أيام فقط، أتيت اليوم لأقول لك أنني معك وبقربك، أنا أحس بك منذ أن أتيت إلينا بالمطعم أول مرة، أتذكر؟

أخذ يتذكر المواقف جيدا، في يوم من الأيام احتك بجسدها عندما حشرا معًا في الممر بين الحائط والفرن، وأصبحا وجهًا لوجه متقابلين، لم تتذمر ولم تنزعج، تذكر أيضا مزاحها عندما عقدت أكمام قميصه الذي حار بلبسه مدة طويلة وهي تنظر اليه وتضحك ،كان يريد أن يقول إنه يتذكر ذلك اليوم المحرج حين اصطف العمال يحيونه في أول يوم له بالمطعم ، ولكن روزي فاجأته بموقف آخر كاد أن ينسياه تمامًا حين قالت:

ـ أتَذكُر أنور حين سكبت طبق الفاصولياء من غير قصد على ملابسي، وأخذت تمسح على تنورتي، لقد أيقظت شيئًا كان منسيًا بداخلي.

بعد أن ساد صمت طويل ، التقطت معطفها ثم قامت ووقفت في منتصف الصالة وهي تتهيأ للرحيل، حين اقترب منها أنور يودعها ، مسحت بيدها على شعره الطويل بحنان، تغلغلت أصابعها بداخل الخصلات ، طبعت على خده قبلة وقالت بشيء من الرجاء:

ـ سامحني أنور .... أنا آسفة.

رد عليها وهو يتطلع بعينيها :

ـ ما يزال هناك متسع من الوقت روزي.

ـ لا بد أن أذهب الآن.

ـ كنت أود أن أقول لك بأنني سوف أحجز مكانًا لنا بالشاليه، ما رأيك؟

تبسمت له وشدت الشال على رقبتها ثم قالت مبتسمة:

ـ ليكن كذلك.

فتحت الباب وخرجت مسرعة، وكأنها أرادت أن تهرب من شيء ما ، بعدها أقفل أنور الباب خلفها، عاد وارتمى على الأريكة متبسمًا وهو يتذكر صديقته راشيل، كان يريد أن يجد الفرق بينها وبين روزي، لقد وجد أن الفرق كبير ، أخذ يتذكر جسد راشيل الرشيق وخصرها الرفيع المتعانق حين يتمايل على رقصة التانجو التي طالما رقصت عليها بكثير من المرح، عندما كان يعيها التعب تقذف بجسدها على الأريكة وهي تلهث، تشعل لفافتها السحرية وتحرص على أن تحبس كمية من الدخان بفمها، تحبسه مدة طويلة قبل أن تنفث الدخان في الهواء على فترات ثم تقول بصوتها الساحر: (لن أجد مكانًا أقرب إلى الحقيقة من هذا المكان، هنا تتجرد من الواقع وتعيش حياة

الحلم المفقود) لكنها ما تلبث أن تصمت وتذهب بعيدًا في خيالاتها، تقبض على خصلات من شعرها وتنثره على وجهها وتقول بصوت أشبه بالحلم: (أنور، أتعلم ماذا أحس هنا الآن؟) ، لم يسألها أنورحينها ، أخذ ينظر إلى فمها الصغير وهي تكمل وتقول: (وأنا معك أحس بأنني حمامة بنت عشها بين أحجار معبد منسي لإله لم يكتشف بعد) ، تذكر كلماتها الحالمة عندما كانت تطلقها مع دخان سيجارتها السحرية، كانت تحلم في عالم آخر يبعدها عن تشردها ووحدتها، لقد استهجنت العالم الذي قد تخلى عنها وقذف بها إلى الشارع بلا أسرة ولا أهل ولا حياة بعد أن انفصل أبواها عن بعضهما، وتركاها تتجرع كل يوم حالات من الضياع بين البارات والملاهي والشوارع، وقد اختصرت حياتها على رفيق يؤنس وحدتها وسيجارة من الحشيشة تبعدها عن واقعها الذي لم تسع إليه، ربما تكون الآن بين أحضان صديقها القديم مارسيل أو غيره من الأصدقاء الكثر، ربما تقول لهم نفس جملها الحالمة المثيرة (قد نغيب لحظات عن واقعنا المرير، ولكننا نبقى الأقوى في أحلامنا).

انتبه أنور إلى دفتر روزي الوردي الذي تحمله دوما معها ، لقد نسيته، دفتر وردي جميل ، زينته بإطار من ورود بلاستيكية ، تكتب فيها كلماتها الحالمةو تخط أشعارها بحروف أشبه بآثار أرجل دجاج يمشي على الطين، عندما أخذ يقلب في الصفحات، أجاز لنفسه أن يقرأ بعض ما كتبت، وجد خربشات من أحرف وكلمات خطتها بيدها

على الورق، لم يفهم أنور بعضها وكأنها تحاشت أن لا يفهم أحد غيرها ما تخطه بيدها، كانت أغلب الكتابات غير واضحة، لكنه تتبع سيرة لبعض مواقف حياتها البائسة، وبعض قصص الأطفال المطروقة، لقد وصلت أحلامها إلى أبسط مما تصور بعد أن علم من خلال ما قرأ بأنها لا تريد أن تبرم اتفاقًا مع عيون الناس من حولها حتى لا ينظروا لها بعين من الشفقة والأسى، فيزيد من عذابات عنوستها التي بدا أنها تعاني منها، وقد يذكرونها ببساطة جمالها أو يعيدوا لها بعضًا من انتكاساتها، لذلك آثرت على أن تبني لنفسها عالمًا خاصًا بها من الكلمات والأشعار، لكنها رغم ذلك تمادت على الواقع، وظلت في خيالاتها تجزم بأنها سوف تبقى أميرة القلوب الفاتنة ذات الفستان الجميل وعربة اليقطين التي يجرها حصانان أبيضان خياليان وحذاء يبحث عنها، عندما فتح أنور آخر الصفحات، كانت هناك قصيدة حديثة بدا أنها كتبتها للتو، فقد تصور أنور أن حبرها لم يجف بعد.

جئتك وفي القلب قيثارة

كقارب يبحر بين خصلات شعرك

جئتك ولون الشوق يعكسه بريق عينيك

فوق سرب من الغيوم مخمليًا ورقيقًا

جئتك كموجة هربت من مضيق البحر

لتعوم في شريانك

أطبق الكراسة ووضعها جانبًا، واستلقى على الأريكة، لم ينم في تلك الليلة، فقد أخذته كلمات روزي إلى البعيد حيث إحساسها، احس ان الكلمات تعنيه وحده ،أخذ يحلم إن هو التقى بروزي في مكان بعيد ، من المأكد أنهم سوف يعيشون حالة الحب معًا.

11

جاء المساء، نسيم البحر يجبرك على فتح ذراعيك على امتداد الغسق، روعة الماء المتلألئ تحتويك من كل جانب ، تحس بانفصال أعضاء الجسد جميعها عن بعضها البعض وأنت تغرس أرجلك برمال الشاطئ ،تتأمل قرص الشمس البرتقالي الذي سوف يغيب بالأفق،أسراباً من طيور البط البري تراها مجموعات تحط على الصخور الناتئة لبرهة ثم تحلق وترحل الى البعيد وكأنها تفضي بسر من عالم آخر الى البحر ، صوت حيوان اللوني الأسطوري بين الحين والآخر يأسرك وكأنه يأتي من أعماق الطبيعة البكر،رفيعًا حنوناً طويلاً وكأنه أشبه بالتوجع ، يبعدك إلى أبعد ما يكون عن زحام يختلج في الذاكرة ويقربك إلى أقرب ما يكون من طمأنينة في النفس تصاحبه ترنيمة تخترق أذنيك وعقلك المشحون من ضوضاء وزحمة المدينة ، حين أغمض أنور عينيه، أفرغ بكل ما يجول بخاطره من تزاحم يتخبط بإرهاصات الأمس، استكان لصوت أمواج البحر تضرب تباعًا برجليه المغروسة بالرمال، المرفأ المحاذي للشاطئ الذي يحتوي القوارب الراسية حوله يمتد داخل الماء ليشكل مع قرص الشمس المائل إلى اللون الأحمر المنحدر من خلف غابات الأشجار الكثيفة تداخلاً يبين روح الانسجام

المطلق للطبيعة الساحرة التي تجبرك على التفاعل معها بلحظات من روح الإنسان النقية .

كان هذا ثاني يوم له بالشاليه الذي وجد صعوبة باستئجاره في أواخر أيام الخريف، يبعد عن المدينة أكثر من مائة كيلو مترًا غرب مدينة أوتاوا في أعماق القرى الساحلية، يتصل بطريق زراعي ضيق متفرع يجعل من الصعوبة الوصول إليه بغير دليل، لا بد أن تكون متمرسًا في السير في الطرقات الوعرة حتى تستدل إلى موقعه داخل غابة من الأشجار، منطقة تكاد تكون مقطوعة عن عالم المدينة، حتى أنك لا تستطيع بسهولة أن تستقبل بها إشارة بالتلفون المحمول، كان أنور ينتظر قدوم روزي إلى الشاليه، فقد وعدته بالمجيء، ربما تكون قد ضلت الطريق، أو أنها قد غيرت رأيها، لكنها أصرت على المجيء قبل أن يأتي إلى هنا.

لقد فكر بالعودة إلى البيت قبل أن يخيم الليل حينها لن يجد أحدًا يقله إلى الشارع الرئيسي إن هو تأخر أكثر من ذلك، سوف يكون الوصول صعبًا إن هو لم يهم بالإسراع، أحضر مصباحه اليدوي، لملم أغراضه بحقيبة رياضية عريضة بانت كأنها شبه جسد لين، وضعها على متنيه واتجه نحو الدروب الرملية الزراعية المتعرجة غير المعبدة، استقبلته رائحة الخشب والعشب التي أخذت تغزو أنفه كما تغزو المكان الظلمة شيئًا فشيئًا، تسارعت خطواته وأحس بألم قدميه يزداد كلما ابتعد مسرعًا عن

أرض المعركة وهو يحمل جسد صديقه منشد على كتفيه، لم يكن يفكر سوى بالخلاص أو الوصول إلى نقطة آمنة، يستعيد بها أنفاسه، يحاول أن يجد ملاذًا آمنًا بعيدًا عن أنظار الجنود الإيرانيين بعد أن تهاوى المهجع الأرضي بخشبه وترابه على أجساد الجنود المرابطين، كان جسد منشد يجثو فوق جسده، حماه من موت محقق، كان يسمع أصوات خطوات الجنود الإيرانيين تقترب نحوهم في لحظات من الترقب والخوف، حرجة أحسها أنور، أطول من شريط الدم الذي بدأ يسيل على وجهه من جرح في جسد منشد، لقد تجاوزه الجنود المسلحون وابتعدوا بعيدًا بعد أن رأوا أربعة من الجثث بملابسهم العسكرية يرتمون على بعضهم بعضًا تحت أنقاض الخشب والتراب، وقد كان جسده يربض في الأسفل.

لم يسعفه الضباب الكثيف في رصد الطريق الصحيح أو حتى رؤية منفذ يجره إلى أقرب قرية أو بيت في الأنحاء، فقد ثقل عليه جسد صديقه، ولم تعد لديه القدرة الكافية في حمله أكثر من مسافة معدودة، لم يعلم إن كان على قيد الحياة أو قد مات، ولكنه أصر على أن لا يتركه خلفه بعد أن سمع من الخلف أصوات المدافع القوية التي ترغمه على الهرب بعيدًا نحو الجبال، لكنه تنبه الى صوت هدير سيارة تقترب نحوه عبر طريق غامض ومرعب، حملت معها شيئًا من الأمل في النجاة والخوف في آن واحد، عندما اقترب منه الصوت أكثر ، فكر أنور بأنها قد تكون

سيارة مدنية بعد أن قطع مسافة كبيرة بعيدًا عن أرض المعركة لذا وقف أمامهما متعبًا، حين توقفت السيارة ترجل السائق مع بعض الركاب الذين أسرعوا نحوه وحملوا عنه منشد وساعدوه في ركوب الحوض الخلفي من السيارة التي عادت وانطلقت من جديد في درب طيني متعرج من دون أية أضواء، كان أنور منهكًا جدًا، ترك جسده يهتز ويتمايل من جراء مطبات الدرب المتعرج الذي انتهى عند انتهاء آخر الأشجار المتصافة، ليبدأوا بالسير في طريق رملي طويل أوصلهم إلى أطراف قرية تنتشر فيها بيوت متباعدة، كانت القرية الحدودية الوحيدة التي لم يهرب أهلها.

كان طاهر القارورة هو الأخ الأكبر لإخوانه، يعتاش من لملمة السلاح المتروك في أرض المعارك، بعد كل معركة يذهب ليجمع أية قطعة سلاح متروكة تقع عليها يده، لم يسلم من المخاطر الدامية التي ألمت به في كل مرة، كان يخرج سالمًا من أصعب المواقف وكأن لديه أكثر من سبعة أرواح، ولكن حين انفجر به لغم أطار نصف رجله قلل من عمله، وأخذ يحسب حسابات أخرى بعد أن أخذ يعتمد على عكازه الذي قلل من حركته التي أصبحت ثقيلة، لكنه اعتمد على بعض من الأقارب الأشداء وسيارته الجيب ذات الحوض الطويل التي دومًا ما تدخل المناطق الساخنة الخطرة التي لم يهابها يومًا بكل اقتدار.

لقد وجد طاهر القارورة انه من الواجب عليه مساعدة الجنديين الذين كانا قد نجيا من المعركة ، اصر على وجودهما معه الى حين يكونا بصحة جيدة ، كان يحاول بقدر الإمكان ان لا يقصر عنهم في شيء ، عندما أخذ منشد يمتثل للشفاء أصر طاهر القارورة على المكوث أكبر قدر ممكن في البيت حتى يتعافى تمامًا، ولكن الوقت لم يكن في صالحهم إن هم تأخروا كثيرًا عن إثبات وجودهم في الوحدة العسكرية والا اعتبروا فارين من الخدمة ووجب عليهم الجزاء القاسي ، كان حسين أبن طاهر القارورة خير جليس لهم ، بحركته الدؤوبة أخذ يزاحمهم في الضحكات والمكان ، كان نشيطا حذقا نبيها ، يلازم أباه في رحلاته المرعبة الجريئة ، عقد صداقة مع أنور عميقة وتمنى ان لا يتركوا المكان بسرعة ، لقد قال لهم ذات يوم (ولو تفرغينا راح نلاقي بعضنا بمكان ثاني).

لقد مرت الأيام سريعا ، أخذ منشد يمتثل للشفاء يوما بعد يوم ، حتى أصبحوا يألفون أهالي القرية التي أحبوها ، كان أنور يسير في البساتين في الصباح الباكر، يساعد طاهر في حلب البقر وتجمع نباتات الجت للأغنام، ويتفقد الدجاج، لقد تفاجأ أنور بوجود فتاة ذات نشاط مفعم ، أخذ يتتبعها بعينيه من حين لآخر ، من الوهلة الأولى عندما رأها في ذلك الوقت قادمة من البعيد ، تسير بكل شموخ واعتزاز نحو البساتين تحمل على رأسها صرة من القماش، انتابت أنور رعشة سرت بجسده كصعقة كهربائية،

أحس ببرودة جسمه بالرغم من الجو الدافئ، كان لا بد له أن ينسحب إلى الداخل بعد أن خرج في الصباح يستنشق شيئًا من الهواء النقي، ولكنه تسمر في مكانه عندما رأى الفتاة تقترب نحوه وتقف أمامه، لم تتكلم معه أية كلمة، مدت يدها داخل الصرة وأخرجت منها رمانة توجهت بها إليه، عندما تقبلها منها مذهولًا لم يشعر بها وهو يمسكها في يده، فقد كانت نظراته موجهة إلى وجهها الصبوح وإلى عينيها الخضراوان التي لم ير في حياته عينين أجمل منهما، لم يدم ذلك الموقف إلا لحظات حتى اختفت وتركت في أحشائه قلبًا يشتعل، وشعورًا يخسف به إلى حفرة قد ضاقت عليه واصطكت عليها الرمال، لم يشأ أن يبدد هذا الشعور الذي أخذ يأسره ويبعده بعيدًا عن خط النار الذي رآه يشتعل، لم يكن يريد أن يصحو من حلمه، كان يخرج في كل صباح من أجل أن يراها ، لقد تعلق بها من بعيد ، أخذ يرسمها في خياله فتاته الجميلة ، ولكن صوت منشد الذي أتى من خلفه أجفله، أخذ يناديه مرات عديدة ويحثه على الرحيل والعودة إلى الديار، لكن أنور رد عليه بنبرة حالمة: (أنت بعدك مصوّب ، حالتك يرادلها بعد يومين) .

كان أنور يسير بسرعة في الغابة عندما بانت أضواء سيارة من البعيد، أخذت تقترب نحوه ببطء حتى غمرته أضواؤها الساطعة، حين توقفت أمامه ترجل منها شخص لم تتضح ملامحه من شدة الضوء، ترك الباب مشرعًا وسار نحو أنور الذي لم يعلم ماذا

تخبئ له اللحظات التالية، لحظات صعبة من الترقب والخوف لهذا السائق المجهول الذي بدأ يقترب منه أكثر، لكنه حين انتبه إلى الطرف الآخر من السيارة رأى جسد امرأة ينزل منها ويعدو باتجاهه وهي تنادي (أنور) ،مالبث وان احتضنته وعصرته بقوة وهي ترتجف، لم تكن المرأة سوى روزي التي كانت مرتبكة وخائفة، أرادت أن تنبهه إلى شيء ما كانت خائفة منه، ولكنها عدلت عن ذلك وقالت بصوت متذبذب:

ـ لقد ضللت الطريق لأكثر من ساعة.

بعدها التفتت بريبة وأشارت بإصبعها نحو الرجل الذي أخذ يقترب بكل هدوء نحوهما وقالت:

ـ ساعدني هذا الرجل على الوصول إلى هنا، أصر على أن يوصلني إليك.

أخذ الرجل يتقدم بخطواته البطيئة حتى وصل إلى أنور الذي صافحه بحرارة وهو يقبض على يده الغليظة الخشنة، كانت قامته القصيرة بعض الشيء لا توحي بأنه من الأشرار، لكنه كان ممتلئ الجسم ومتسع من الجانبين، ذو لحية طويلة سوداء مهملة، وشعر طويل ضفرت بعض من خصلاته التي تنسدل على كتفين عريضتين، لقد أخذ يتكلم بلهجة بدت غير مفهومة، هي أقرب إلى اللكنة الأفريقية، أخذ يعرف عن نفسه حين قال:.

ـ كوزموس المُذْنِب، بإمكانك أن تدعوني المُذْنِب فقط.

بادرت روزي في التعريف بأنور للسيد كوزموس الذي دعاهم بإلحاح للصعود في السيارة التي عندما ركباها معه أحسا بأنهما ذاهبان إلى رحلة طويلة، كان الرجل ذو الشعر الطويل صامتًا في بداية الأمر، لكنهم حين قطعوا نصف الطريق أخرج من جيب قميصه قنينة زجاجية صغيرة ومدها إلى أنور الذي أشار له بيده ممتنعًا مما دعاه إلى أن يقربها من فمه ويأخذ منها جرعة كبيرة قبل أن يعيدها إلى نفس جيب القميص ثم قال موجهًا حديثه إلى أنور:

ـ هل ستمكثون هنا كثيرًا؟

ـ ليس طويلاً، سوف نرحل غدًا صباحًا.

ـ الجو بارد بالليل، ما رأيك بالفودكا.

ـ أنا لا أحتسي الكحول.

حينها أخذ الرجل يقهقه بعد أن أخرج قنينته الزجاجية وأخذ رشفة سريعة ثم قال:

ـ لا بد لك من التجربة صديقي، سوف أعطيك بعض التعليمات وبعد ذلك سوف تكون على ما يرام.

لكنه عندما لم يجد أي قبول من حديثه لدى انور قال بنبرة الواثق وبصوت جهوري أشبه بالحازم:

ـ ربما أقضي الليلة معكم.

كانت نظراته مريبة، أخذ يتطلع في وجه روزي بين حين وآخر متجاهلاً أنور الذي أشار له بالوقوف قرب الشاليه، ولكن نظراته الشرهة استمرت حتى عندما نزلا واتجها بعيدًا عنه، فقد أخذ يتتبعهم بعينيه قبل أن يضغط على دواسة الوقود بعصبية ويتحرك مبتعدًا.

لقد أتى الليل مبكرًا، أخذ الظلام يكتسح المكان بسرعة، عم الهدوء في الأرجاء إلا من بعض الأضواء المتباعدة التي كانت لأماكن من شاليهات متفرقة أخرى تلتف حول الساحل، قرص القمر الذي اكتمل بدا واضحًا عليه صورة أرنب يترقب، حين أشعل أنور النار في الموقد استعدادًا للشواء، أخذ ينتظر النار التي بدأ يخف لهبها، حينها بدأ يقلب الجمر الذي ما زال يحمل الحرارة بداخله بينما عكفت روزي على تحضير السلطات وصلصة اللحم الجافة.

توجه أنور نحو طرف الماء الذي أخذ يأتيه بأمواج هادئة تضرب بقدميه وهو يتأمل السحب البيضاء بكل حبور، استنشق الهواء بقوة وأغمض عينيه لبرهة أراد بها أن يدخل الصفاء بداخله، ولكنه ما لبث أن فتحهما بعد أن سمع صوتًا يأتيه وينادي باسمه (أنور ... أنور) ،لقد أتاه النور من صوب الماء مشعًا أخاذًا، أخذ يقترب باتجاهه

ببطء وكأنه يلد جسدًا من رحمه، عندما اقترب منه الشكل الهلامي تبين انه لم يكن سوى صورة المرأة ذات التاج المرصع بالأحجار اللامعة وثوبها الفضفاض الطويل ويديها المفرودتين، لقد اتضحت جميع ملامحها التي رآها سابقًا، أخذت تسير على الماء بكل هدوء ثم تقترب نحو أنور الذي تسمر في مكانه وهو يشاهدها مرعوبًا.

لقد أحس تجاهها بعاطفة لم يسبق لها مثيل منذ أول مشهد رآه بها أول مرة، جميلة مغرية، بانت مفاتنها من خلف ردائها الشفاف ، كادت أن تحتضنه وتضمه إلى صدرها، ولكنها ما أن اقتربت منه أكثر ونظرت إلى القلادة الفضية التي على صدره حتى تغيرت ملامح وجهها بسرعة وبدأ النور ينطفئ حولها، اسود وجهها وافترش أنفها وأخذت أذنيها تطولان ونمت فجأة أنياب في فمها الذي أخذت تفتحه، تغير لون شعرها الى الرمادي وارتفع من رأسها قرنان طويلان إلى الأعلى وتشكلا على هيئة مخروطي حديدي، طار رداؤها الأبيض الفضفاض الذي تبين من خلفه جسد مقزز نحيل كأنه الهيكل العظمي يكسوه جلد متقيح وقد أخذ البخار يخرج من جنباتها ومن رأسها الذي اندلق منه سائلًا هلاميًا كالصديد يبث رائحة كريهة كرائحة الروث، ارتعب أنور عندما قربت وجهها نحوه، تمعنت بوجهه غاضبة للحظات ما لبثت أن فتحت فكيها على الآخر وزمجرت بشدة، ثم استدارت واختفت بعيدًا من حيث أتت بسرعة البرق، حينها أسند أنور ظهره على شجرة بالقرب بعد أن ارتد إلى الوراء وعصر جبينه بشدة،

كاد أن يتهاوى ويقع، ولكن روزي أتته بسرعة وأمسكت بذراعه، حين انتبه انور على روزي وجدها تلبس قلادة فضية يتدلى منها صليب فضي .

ـ أنور، ما الذي حدث؟

ـ لا، لا شيء، لا تهتمي دوار بسيط.

ـ أجلب لك أقراص صداع.

ـ سوف أكون بخير، دعينا نبدأ بالشواء.

توجه الاثنان نحو الموقد الذي هفتت النار فيه وتوهج الفحم من الأسفل، أخذ أنور يقلب الجمر قبل أن يبدأ بوضع اللحم المتبل على سلة الموقد الذي تطايرت منه رائحة الشواء مع دخان كثيف.

الليل يختلق الساعات الهادئة ويدنو ظلامه من راحة بالنفس عبقة بعيدًا عن ضجيج عقل أنور الذي بدا منزعجًا بعض الشيء، حاول أن يتخلص من شعور بالضيق عندما استرخى على كرسي وهو يغمض عينيه، كانت روزي تستبدل ملابسها في الداخل،ولكن ما هي إلا لحظات حتى أقبلت عليه روزي بفستان أسود خفيف شفاف يعلو إلى ما فوق الركبتين، حملت معها جهاز التسجيل الذي عندما ضغطت على زر من أزراره انسابت نغمات هادئة ولحن رومانسي فاق صوت طيور اللقلق البعيدة،

اقتربت منه ثم تجاوزته قليلاً، أخذت تتمعن بالماء الرقراق، نثرت شعرها بيديها في الهواء، وأخذت نفسًا عميقًا بعدها أطلقته دفعة واحدة ما لبثت أن عادت إلى حيث يجلس أنور الذي استقبلها بكل هدوء، اندست بحضنه كالطفلة الخائفة من دون أية كلمة، أخذ أنور يتطلع بوجهها وهو يمسح على شعرها.

ـ روزي، ليت كان هذا من زمان.

ـ دعنا نبدأ من الآن.

ـ لا أعلم ماذا تخبئ لنا الأيام.

ـ اترك العالم الخارجي وعش اللحظة أنور.

رفعت رأسها نحوه، أخذت تتمعن في وجهه بعد أن مطت رقبتها وقربت شفتيها من شفتيه، كادت الشفتان تلتحمان بقبلة تمنيا لو أنها تطول، ولكن قبل أن تتلامس الشفتان سمعوا صوت أقدام ثقيلة تقترب، أخذت تدوس على الأوراق والأغصان اليابسة فتصدر صوتًا أشبه بقضم الفجل، كان الصوت يأتي من قرب كأنه يتوجس بالظلمة، ما هي إلا دقائق حتى تبين أن هناك من يريد إفساد ليلتهم بكل صلافة.

لم يكن واحدًا بل كانوا عدة أشخاص، أخذوا يقتربون نحوهم حتى اتضحت معالم وجوههم ساعة ما اقتربوا نحوهم أكثر وأصبحوا في مواجهتهم، حينها قفزت روزي إلى

الداخل بخطى سريعة وأصلح أنور من جلسته ووقف أمامهم بعد أن ارتسمت على وجهه الغرابة، لقد عرف أحدهم، هو ذات الشخص الذي أوصلهم بسيارته والذي سمى نفسه المُذْنب، وأما الاثنان الآخران فقد وقفا خلفه ولكن قبل أن يستفسر وينطق أنور بكلمة بادره المُذْنب قائلًا:

ـ اسمحوا لنا أيها الأصدقاء أن نقضي بعض الوقت معكم في هذه الليلة الجميلة.

لكن أنور لم يبد أي ترحيب بالزوار القادمين من دون دعوة ولم يتكلم، ولكن المُذْنب أكمل حديثه بعد فترة قصيرة من الصمت وقال.

ـ أسمح لي أن أعرفك بأصدقائي، جون العاشق ودميتري الذي لا يحمل لقبًا إلى الآن.

حينها ضحكوا جميعًا بعد أن هز أنور رأسه لهم ولم يزد عن ذلك، ولكن دميتري سأل صديقه المُذْنب.

ـ لم نعرف اسم الصديق المحتار.

ـ أقدم لكم السيد أنور، إذا لم أكن مخطئًا وصديقته روزي النادلة، يا ترى أين هي؟

حين أقبلت عليهم روزي ملتحفة ببطانية فوق لباس شبه عاري، وقفت بجانب أنور الذي ضمها إليه بقوة، أخذوا ينظرون إليها بنظرات شهوانية، كانوا جميعهم ثملين، ومن

دون أية كلمة إضافية منهم وضع الثلاثة أشياءهم على الطاولة مع قنينة زجاجية كبيرة، سحبوا ثلاثة كراسي كانت بالأنحاء، وشرعوا يسكبون السائل الأبيض في الكؤوس، مد المذنب لأنور بأحدها ولم يستقبلها منه، لكنه قال بشيء من الحدة موجهًا كلامه للمُذْنب .

ـ لقد قلت لك سابقًا أنا لا أحتسي الخمر.

حينها التفت المُذْنب إلى أصدقائه وبصوت جهوري قال لهم:

ـ أسمعتم ما قاله هذا الصديق، كيف يوجد بهذه الدنيا رجل عاشق لا يحتسي الخمر، خاصة ومعه مثل هذه السيدة الجميلة والمغرية.

تطلعت روزي بوجه أنور الذي ارتسمت على وجهه علامات من الغضب، كان مستاءً جدًا من زيارة هؤلاء الدخلاء، لم يشأ أن يبدي أية خشونة معهم حتى لا يكون بوضع سيء لا يعرف عواقبه مع هؤلاء الغرباء الذين اقتحموا عليه خلوته من غير سابق دعوة، لقد فضل الصمت والانتظار فيما ما زالت الموسيقى ترتفع من جهاز التسجيل بنغمات منسابة، ولكن المدعو جون العاشق أدخل يده في جيب بنطاله وأخرج حبات من الكستناء وقال:

ـ انظروا ماذا وجدت في جيبي، حبات من الكستناء.

توجه المُذْنب وأخذ حبات الكستناء من يد ديمتري، تقدم بها نحو أنور الذي أخذها منه وهو يتطلع بهم بريبة، لكن جون العاشق قال موجهًا كلامه لصديقه:

ـ ديمتري، إنك تزيد الأمر سوءًا، كيف له أن يفتحها من دون سكين.

حينها مد جون العاشق يديه من خلف ظهره واستل سلاحًا طويلاً أشبه بالسيف أبرزه بوجه أنور الذي ارتبك من الموقف، ولم يعلم ما الذي سيفعله هؤلاء به إن هو أبدى أية ردة فعل خشنة، صرخت روزي صرخة خفيفة انتبه لها الثلاثة ونظروا إليها وهي ترتجف من الخوف بينما اقترب المدعو ديمتري منها وقال:

ـ أرجو أن لا تقاوموا، ليلة نقضيها معًا بهدوء ونرحل.

لكن أنور رد عليه وهو ينظر إلى السلاح المسلط بوجهه متسائلاً:

ـ ماذا تقصد بكلامك؟

بدا أن الأمر بدأ يأخذ منحى آخر قد يكون غير عقلاني، حين توجه المُذْنب مع آخر وأمسكا بيدي روزي التي أخذت تصرخ من شدة الفزع الأمر الذي دعا أنور بأن ينفض يديهما بشكل عنيف ويدفع بروزي إلى الخلف ثم يقف أمامهم وهو يستعد إلى المواجهة، مما دعا أحدهم بأن ينقض عليه بكل شراسة وهو يدفع به بعيدًا، أراد أنور أن يصده بقوة ويبادله العنف، ولكنه تلقى ضربة مفاجئة على فكه أطاحت به على

الأرض، حينها ركضت روزي نحو أنور وارتمت على جسده الذي انتفض مرة أخرى وعاد إلى المواجهة بيديه، ولكن ديمتري ضربه بقدمه على بطنه وألحقها بقبضة قوية من يده على وجهه رماه بعيدًا، بعدها توجه جون إليه وأخذ الاثنان ينهالون عليه بضربات قاسية على وجهه وبطنه بكل عنف وهما يصرخان (أيها المهاجر اللعين) بينما أغلق المُذْنب فم روزي بيده وكبلها بقساوة بيده الأخرى ثم أخذ يسحبها إلى الداخل.

أخذ صوت صرخات روزي يتعالى تارة ويضيع تارة أخرى من الداخل، بينما كان أنور يسمعه يتهافت وكأنه يأتيه من أعماق قوقعة مغلقة في قاع الماء، لقد أصبحت جميع الأشياء حوله ضبابية تتموج حوله يراها من وراء غشاوة، لم يستطع أن يتبين من ورائها شيئًا ما لبث وأن غاب عن الوعي.

عند أول الصباح أفاق أنور، لم يقو على الحركة، أحس بآلام ثقيلة في رأسه وأطراف جسده ودم متيبس على الوجه والفم، لقد أحس بعظامه قد تحولت إلى حديد ثقيل صدئ، تطلع من حوله بكل تثاقل وأجال النظر في المكان، كانت روزي تمد جسدها بقربه على الأرض تستند بظهرها على جذع الشجرة بثوبها الممزق وشعرها المنكوش وقد لفت عليها بطانية، أخذت تنظر إلى الموج المتهافت على رمال الشاطئ بعينين مفتوحتين، نظر إليها أنور بأسى، تمعن بوجهها وبخيط الدم النازل من الجبهة، حاول الوقوف على قدميه ولم يقدر، لكنه تحامل على نفسه وزحف نحوها، عندما لمسها

جفلت منه بكل عفوية، وندت منها صرخة محبوسة وهي ترتجف، ولكنه تحامل على نفسه، رفع جسمه نحوها وضمها إلى صدره رغمًا عنها، وأخذ يهدئ من روعها، بينما أخذت هي تبكي وتموء كما القطط بصوت ممدود حزين عميق أحسه يضرب في داخله، ما لبثت وأن استسلمت إليه وأودعت جسمها بحضنه.

لم يجد أنور تبريرًا معقولاً لما حدث، أحس أنه يتحمل العبء الأكبر في الذي حدث ليلة البارحة، لقد فضحه ضعفه واضطرابه حين كان يواجه، أراد يفرغ قوقعته من الضجيج الذي أخذ يختلج بداخله، لم يجد أحدًا يناديه على مرأى ومسمع منه يحاول إيقاظه من الهزيمة، من له الحق بأن يقتحم عليه حياته ويقلبها رأسًا على عقب ويزرع بداخله الخذلان والدهشة والاستغراب، ولكن لم يكن هنالك أحد يرد على كل استفساراته وينبئه أنه ما زال على قيد الحياة.

١٢

كيف تقمص الشر شكل إنسان وجعله يتشدد مع كل نوبة تعصب أعمى لجنس يحسبه السامي، وقد اعتمد النظرة الأحادية في فهم الأمور من زاوية ضيقة يكمن فيها جواب واحد يستوقف المهاجرين في كل حين (إنه وطننا نحن أيها المهاجرون) وقد أهمل ايدلوجية الإنسان ونزعته المؤجلة بالتعايش السلمي، كيف راح يتشدق باسم المواطنة التي فرضها القانون الذي لولا هو لعلقت المشانق في الشوارع للإنسان الضد، بالأمس القريب أتت الأقوام المتوافدة نحو هذا البلد الجديد من أصقاع الأرض، يحملون روح مضمون التغيير من أجل الحرية والعدالة والسلام، وفك شفرة الوجود على هذه الأرض التي ترعرع حبها في النفوس يومًا بعد يوم بين جميع القادمين الذين ارتحلوا من بلدانهم بعيدًا عن السياسات والحروب الطاحنة والاضطهاد والعنصريات التي تطمس رأسها في حفرة من التناقضات الدينية تارة وسياسات وأطماع شخصية تارة أخرى، ومخططات غير مكشوفة للعلن، ومشكلات لا تمت لمبادئ الإنسان الحقة بأية صلة سوى أنها ممارسات يفبركها قادة الدول من أجل إرضاء الذات وعزله عن الآخر والتشفي بأوجاعه، الغالبية العظمى أتت من نفس معاناة التشرد والاضطهاد يمنون النفس بالسلام.

لقد مر أنور على نفس تلك المساحات الخضراء الواسعة التي طالما قطعها بكل طمأنينة في طريق الذهاب إلى عمله، تشكلت حوارات بداخله استوطنت أعماق النفس لم يجد لها أجوبة مقنعة سوى أنها بدت طبيعية تسير مسارًا غير مفهوم لا يمكن تغييره بالكلمات والشعور، كان يفكر في روزي التي ما تزال مختفية بعد خروجها من المستشفى، لا أحد يعلم أين هي الآن، لا بد أنها الآن تجلس وحيدة في ركن أعزل مظلم وبارد منطوية على نفسها، تأخذها الظنون والشكوك التي تنساب عبر فتحة من تحت الباب تدخل عليها كالدخان وهي تئن بصوت لا يسمعه إلا هي، صوت أقرب إلى أنين عصفور مذبوح، سوف يأتيها المعزون على شاكلة أشباح من أوجاع وحزن، لقد اختفت روزي واختفى معها المذنبون.

عندما دخل باب المطعم، انتبه كل الزبائن الموجودين بفضول إليه وهو يقطع الصالة الواسعة ويقف فجأة في المنتصف، لقد أحس أن أصوات الشوك والسكاكين والملاعق قد توقفت فجأة، وأن الجميع من حوله أخذ يمارس معه عملية التأنيب من خلال النظرات التي كانت تتجه نحوه وهو يقف واجمًا وقد بدت الكدمات بوجهه واضحة ، حاول أن يعزوها إلى أنها حالة طبيعية من الفضول ، تحرك بخطوات سريعة نحو المطبخ، ولكن قبل أن يدخله استدار فجأة نحو زبائن الصالة وأخذ يتطلع بهم ،

بعدها تعالت من خلالهم مرة أخرى أصوات الشوك والسكاكين والملاعق التي أخذت تضرب بالأطباق معلنة سيرًا طبيعيًا لمطعم أرض السحاب الهادئ.

خطف طيف السيدة ثريا من البعيد وتوارت عن الأنظار إلى الداخل عمدًا في حاضنة المطبخ، لمحها أنور بطرف عينه بعد أن أشبك يديه وفركهما وكأنه يقول إنه ليس له دخل بالذي حصل، وأنه قد تمرس على الأخطاء التي لم يرتكبها، أثار موقفها بنفس أنور نزعة من الغبن وتأنيب الضمير، فكر بالخروج مرة أخرى والاختفاء بين طيات الشوارع، لكنه عدل عن ذلك واندفع عبر باب المطبخ ثم اتجه إلى الداخل، عندما خطفت السيدة ثريا بقربه أحس أنها تتجاهله بشكل مقصود، أدرك أنها تأنبه بصمت، وأنها تريد أن تقول له بأنه شخص غير مرغوب به، لكنه أدار وجهه نحو كردينوس الطباخ الذي كان منهمكًا بعمله ولم يعره أي انتباه، أراد أن يكسر كل هذا الجفاء عندما تبع السيدة ثريا واستوقفها بعنف وهو يمسك بيدها، لم تمانع بدورها من الوقوف أمامه حين قال:

ـ لم يكن لي ذنب في الذي حصل.

ـ أعرف ذلك أنور.

كأنها كانت تنتظر ذلك، سحبته إلى آخر الممر نحو غرفة صغيرة في الداخل تستعمل كمكتب للأوراق والفواتير، أوقفته قبالتها بصمت لبرهة ثم قالت بكل رقة وحنان:

ـ أنا أعلم ما تمر به أنور، الذنب ذنبي أنا.

لم يكن مدهوشًا من كلماتها، فهو يعلم أنها دومًا تحب أن تكون أكثر حنانًا وشفقة عليه من أي إنسان آخر، فهي تغفر الخطايا التي دائمًا ما تريد أن تأخذها معها، لكن حنانها هذه المرة فاق كل تصور عندما ألصقته على الجدار بيديها وقربت وجهها إلى وجهه حتى كاد يشم أنفاسها، وهي تقول بعصبية محبوسة كادت أن تكتمها بعد أن اصطكت أسنانها:

ـ أنا لا ألومك، الأرواح غادرت أجسادنا منذ زمن.

كادت الأنفاس أن تختلط ويلتحم الشعور بنقطة حلم محبوسة بين الضلوع، ذلك ما صرحت به عيناها وشفتاها التي أخذت ترتجف، لقد تلعثم كل شيء بداخل أنور من موقفها الذي أصبح غير قادر على الرد عليه، فقد تكلمت العيون والشفتان اللتان التصقتا ببعض من دون أية مقدمات، دارت بهم الأرض في لحظات من الحلم المفقود وهم يصدرون صوت فحيح شبق غير معهود، أرادت أن تروي شفتيها الذابلتين من شفتيه وتستمد منهما دفء مفقود، لكنها فجأة أبعدت نفسها وأزاحت جسدها بارتباك فاضح ما لبثت وأن اختفت.

كان تصرفها الغريب هذا قد أوحى له بأنها فقدت جزء من عقلها، لم يرها قط على هذه الشاكلة، تلك المرأة القوية ذات الشخصية الفذة تضعف أمامه وتصبح كالطفلة

التي لا يحكمها عقل أو كعاشقة مستهترة تترقب هذه اللحظات التي تتمنى أن تودع بها سرًا ساخنًا بأنفاس تنتظر أن تبادلها الأشواق، لقد أصبحت المواقف غير المبررة تتزاحم في جوف أنور الذي تعثر مرة أخرى في الظلام وبالخطوات ذاتها التي لم تنجز بعد، تختلط مع قطافه للمواقف بحقول محنته الجلية وفي الخريف المباح، لم يكن هو وحده في غير وعيه عندما يسمح للأنين الطويل يخرج إلى انعطافات الغياب، ويصدق أن الحلم سوف يتحقق بكل تفاصيله برغم الظروف التي دونتها المشاعر المهملة وأنه سوف يلوح للندم والحرمان من البعيد.

كان موقف السيدة ثريا يقلقه، أخذ يفكر به ليلًا نهارًا وهو يسير في الطرقات بحثًا عن روزي التي أيقن أنه سوف يجدها في يوم ما وفي مكان ما، أخذ يبحث عن أسئلة عديدة يعلم مسبقًا أن ليس لها أجوبة، لكنه أيقن أنها لم تكن سوى لحظية، اندفاع المشاعر قد تتبخر حين تخمد حرارتها.

بعد عدة أسابيع التقيا بكل عفوية الأقدار، جمعتهما الصدفة في محل ألعاب الأطفال الذي هيأ لهم موعدًا على غفلة من الزمن، لم تكن لديه الشجاعة الكافية في مساء هذا اليوم أن يلغي كل ما حوله من بشر ويقف وجهًا لوجه أمام روزي التي رآها على بعد أمتار منه، لكنه استجمع كل شجاعته حين رأى ابتسامتها الباهتة التي أخذت تعطيه تصريحًا للاندفاع، كانت صدفة اللحظات الصادمة طرفًا من مؤامرة افتعلت فيه

شعورًا مخلوطًا بالشفقة والحنين من غير سابق إنذار، لم يشأ أن يلقي تحية تقليدية بل وقف في القرب منها وتطلع في الرف أمامه الذي كان يحتوي على دمى من حيوانات متنوعة، حين أحست بوجوده التفتت نحوه، كانت عيناها تريد أن تثقب وجهه تريد أن تتعاون شفتيها على اختراقه، أراد أن يزيح كل الأيام السابقة وينتصب أمامها كتمثال منحوت من خطيئة، لقد بدأت مساحات كبيرة من العشب تحترق بداخله بلا توقف، وأصوات نقيق الضفادع يتعالى من بركة في عقله، لقد تمنى أن يقف الدهر كله أمامها يعتذر، كان يشعر أن الهزيمة تغتاله بكل تفاصيل ذاكرته، لقد أحس بأن صوته سوف يخذله حين قال بلهجة مرتبكة.

ـ ما أجمل هذا الأرنب الصغير.

لكنها أجابته بصوت خافت وحزين وهي تبتعد بنظارتها عنه وكأنها لا تعرفه ولم تلتقي به أبدا .

ـ لم يعد للأرانب الصغيرة مكانٌ في حياتنا.

أشارت للبائع بيدها على دمية الجندي المطاطي الذي كان يحمل سلاحه على كتفه، حين أمسكت اللعبة بيديها توقع أنور أنها سوف تقول إن هذا هو زمن الحروب، هذا هو زمن القساوة ، سرت لحظات من الصمت قبل أن يقترب منها رجل أسود مفتول العضلات، بدا من هيئته أنه مصارع متمكن، وضع يده على كتفها وهو يقول:

ـ هل وجدت شيئًا مناسبًا حبيبتي روزي؟

لقد زج الارتباك بنفس أنورعنوة ، أدهشه الموقف، امتزجت النظرات بالمرارة وانتحرت كل الكلمات على شفتين يابستين، اجتاح أنور سربًا من الغربان أخذ ينعق بصوت مزعج، كان الزنجي الأسود مفتول العضلات يضم روزي إليه وهو يقبلها، كان منكوش الشعر، أفطس الأنف، غليظ الشفتين، رسم على ذراعه نسرًا جارحًا يقبض بمخالب على أرنب صغير، قبل أن يسحبها معه إلى الخارج، التفتت روزي إلى أنور التفاتة أخيرة وأخذت تنظر إليه بعينين كادتا أن تدمعا، غادرته روزي كما غادره غيم أسود أخذ يمضي بطيئًا نحو أفق شارد، ظل مشدوهًا للحظات يتطلع في الباب الذي توارت خلفه، ولم يفق من الدهشة إلا عندما سمع صوت البائع يقول له:

ـ هل أخدمك بشيء سيدي؟

حينها أشار له على دمية دب أحمر صغير، دفع ثمنه وهو في أشد حالات الذهول، خرج وهو يحمل الدمية التي أخذ يتفحصها بكل شغف، توقع أن يجد بها آثار لوجهه أو انها تفسر له كل ما حدث مع روزي .

كم من الوقت يلزم أنور حتى يتجاهل الراحلين حين يذهبون إلى البعيد تباعًا، يحدث أن تموت رغبة اللقاء مع مرور الوقت ويقدم الزمن على قتل الحنين بداخله حين يتخيل الأطياف التي تحوم دائمًا حوله في فضاءات ذاكرته المزدحمة، إنها مجرد

أشباح لا بد أن يتخلص منها، فقد تعود أنور على رحيل الأحبة في كل مرة حتى بدا أن الأمر أصبح من المسلمات التي لا بد أن ينصاع لها، قد لا يستطيع نسيانهم بسهولة، ولكنه دائمًا ما يحاول أن يتجاوز مرحلة صعبة مخلوطة بزيف الغياب.

ابنته صباح مرة أخرى تتقدم ببطء نحوه بثوبها المبلول وهو خامل مستلق بجسده على الأريكة ينظر إليها في سكينة، وقفت أمام عينيه تبتسم بوجهها الناعم وجسدها النحيل، لكنها تجاوزته هذه المرة بخطوات سريعة، والتقطت دمية الدب الصغير الملقى على الأرض وعادت تجري مبتعدة، حين فز أنور من رقدته، قام وفتح نور الصالة وأخذ يبحث عنها في كل مكان، فلم يجد لها أثرًا، لكنه تفاجأ بالماء الذي ملأ أجزاء من أرضية الصالة الخشبية ودمية الدب الصغير التي اختفت أيضًا.

عندما جلس على الأريكة بكل روية، أخذ يتطلع على بقع الماء مدهوشًا، لكنه ما لبث وأن قام متوجهًا إلى النافذة التي فتح ستارها الذي رسم عليه سرب من البجع ليجد أن المطر أخذ يبدأ بالهطول، ها هو الماء مرة أخرى يقحم نفسه في الذاكرة، يمتزج مع الأطياف، لا يعلم لِمَ مر عليه طيف صديقه عبد العال الوردي، اسمه كان ينافي واقعه، فلم تكن حياته وردية أبدًا، اكتسب هذا الاسم من لطخة مقحمة أشبه باللون الأحمر الفاتح امتدت من أعلى الجبهة إلى الفك السفلي، تجثم على النصف الثاني لوجهه، لماذا تذكره في هذه اللحظة، تراه كان يحمل نفس قسمات وجهه المقسوم إلى نصفين

أم أن حكايته ترسخت بداخله اعتقادًا ثابتًا على أن تلك القرابين المحتضرة في ليل جراح وطن قد آن لها أن تروي حكاية قديمة من حكايات الشتات، بالرغم من أن عبدالعال الوردي كان مرحًا ويضحك دائمًا، لكنه عندما يتذكر رحلته التي يتحدث عنها بحرقة بالغة ينتابه الأسى والحزن ويتحول إلى إنسان آخر مضطرب، لقد كان ما مر به خلال فترة قضاها في عرض البحر وهو في طريقه إلى طلب اللجوء في استراليا مع زوجته وأطفاله الاثنين وبعض العوائل العراقية الأخرى ضربًا من الخيال، كان ينوي قطع عباب البحر هناك حيث ليس ثمة نجاة مقنعة في عرض البحر الذي أخذ منه كل شيء وترك له هذا الجرح الذي على وجهه ليذكره دومًا بمأساته.

كان يومًا أشبه بأيام أيلول الساكن، أخذ يجهز نفسه مع عائلته الصغيرة في انتظار إشارة البدء في الرحلة التي سوف يقطعون بها البحر وهم يتوجهون إلى استراليا، كان في داخله خوف واندفاع وأمل مغلوط ومصير مجهول امتزجت جميعها لتشكل في نفسه شعورًا لم يفهمه في ذلك الوقت، وهو ينتظر خارج الفندق المهرب التايلندي الذي تمنى أن لا يأتي أبدًا، أخذ ينظر إلى زوجته وأبنائه من خلف زجاج الفندق بحسرة وعطف، لكنه أراد أن لا يريهم خوفه عليهم، بعد لحظات من الترقب انتبه إلى الصوت الرفيع الذي أخذ يحثه بسرعة على ركوب السيارة التي وقفت أمامه فجأة، أودع الحقيبة الرياضية التي كان يحمل بها بعض الغيارات والأكل الخفيف في صندوق

السيارة، وأركب عائلته المقعد الخلفي فيما جلس هو في المقعد الأمامي قرب المهرب الذي أخذ يتكلم بتلفونه النقال.

ما أن انطلقوا عبر شوارع العاصمة الإندونيسية جاكرتا حتى اتخذوا طريقًا سريعًا يتجه جنوبًا نحو منطقة ساحلية تسمى كرنجاو، وصلوها بعد ساعات من السير المتواصل، حين اقتربوا من البحر، هبت عليهم رياح خاملة تحمل معها بعض الرطوبة ورائحة السمك الميت، وما هي إلا نصف ساعة حتى وصلوا إلى بيت من الخشب شبه قديم كأنه مهجور يقع في الأطراف على مرتفع بسيط عن سطح البحر، عندما نزل الجميع اجتازوا ممرًا ضيقًا أودى بهم إلى داخل البيت الذي وجدوا به بعض العوائل التي كانت تنتظر، لم يدم بقاؤهم طويلًا حتى اقتادهم مهرب آخر عبر منحدر صخري أخذوا ينزلون به في حذر إلى أن وصلوا إلى مرسى خشبي طويل للسفن، كان الليل في بداياته، لم تكن هناك أية أضواء بالأنحاء، ما هي إلا بعد بضع دقائق حتى بانت أضواء شاحبة لمركب يأتي من عمق ظلمة البحر، عندما اقترب منهم أكثر تبين أنه مركب عريض ذو طابق واحد وقمرة للقيادة تقع في الخلف بانت كأنها بناء أشبه بصندوق حديدي في مقدمته نافذة زجاجية عريضة، وفي أعلاه أعمدة متشابكة أشبه ببرج صغير للاتصالات، بالرغم من ضخامته المكشوفة إلا أنه كان ضيقًا من الداخل، وما أن

توقف حتى أصدر المهرب إشارة منه في التحرك بسرعة على لوح خشبي نحو جوف القارب الذي ضم كل العوائل التي تكدست في الداخل.

كان الليل مضغوطًا بالرطوبة، الماء بدا كقماشة شفافة رقيقة تغطي زجاج أزرق، أبحر القارب بهدوء وسكينة وبلا صوت عال في أول الأمر، كان يريد أن يتخطى مرحلة من مراحل خطر قوات خفر السواحل، وشباك الصيد التي انتشرت على سطح البحر، وما أن مضت ساعة كاملة كانوا يبحرون فيها بكل سلاسة حتى فتحت بعد ذلك أصوات ماتورات ضخمة، أخذت تصدر بقوة صوتًا قاسيًا أشبه بصوت وحش من العصور القديمة حينها اهتز المركب بعنفوان وأخذ ينطلق بسرعة داخل البحر وغاص في الظلمة.

في صباح اليوم التالي، لم يساور الركاب الشك بأن المجهول بدأ يقاسمهم التفكير الغامض وهم مقتنعون بأنهم في عرض الموت على مرتفع من الأمواج التي أخذت ترفع القارب الخشبي عاليًا وكأنه جذع شجرة يابس يتمايل فوق الموج، لقد اختصرت كلماتهم على الأدعية والتسابيح وهمهمات غير مفهومة، لقد أخذوا يتحاورون بلغة العيون وكأنهم تمرسوا عليها منذ زمن بعيد، فقد كانت سمة الكلام أشبه بالمشلولة أو على مشارف الانتحار، لقد كان طريق العودة مستحيلًا بعد أن قطعوا مسافة أودت بهم إلى المنتصف وهم مستسلمون إلى المصير الذي رسم في الأذهان أمل بالنجاة

مفقود، لقد أخذوا ينذرون النذور لطريق الخلاص المتواتر الذي أصبح منشدهم الوحيد، لقد ظل المصير المحتوم وموقف الموت والحياة المتعارض يتجانس مع ما فقدوه من أمل الوصول إلى مباني ملبورن الشاهقة، كان موقفهم كما المحتضر الذي يتأمل العودة إلى الحياة.

في اليوم التالي عندما بدأت الظلمة تغزو المكان بدا الليل أكثر غرابة وسكونًا، كان المهرب أكثر برودًا، بدا أنه غير مبال وهو يشرب الشاي بداخل قمرة القيادة، أخذ يدير الدفة بهدوء وهو يبشر بالوصول ويقول: (لم يبق الكثير ونصل) بعدها عمد جميع الركاب على أخذ قسطٍ من النوم ليقطعوا سواد الليلة التي أحسوها أطول بكثير من المسافة التي قطعوها وهم في وسط البحر في انتظار اليوم التالي، يوم واحد فقط سوف يجتازون خطر عمق البحر وبعدها سواحل استراليا التي سوف تبعدهم عن شبح الموت الموارب، أخذوا يتذكرون الوطن والحارات والبيوت والحرمان والعذاب كما الكابوس، لقد أرادوا أن يتخلصوا من هذا كله ويتركوا تمثال القائد العملاق في وسط بغداد يشير بيده إليهم من البعيد، وعيناه المتحجرة بدت أكثر لمعانًا بالظفر وكأنها تتحداهم وتترقب موتهم في أية لحظة.

بعد وقت الظهيرة وفي اليوم الثالث بدت الأوضاع تنذر بالاطمئنان، لا يشوبها شيء سوى رياح بسيطة أخذت تهب عليهم من جهة واحدة، ولكن ما أن أتى وقت العصر

حتى بدأت الريح ترتفع شيئًا فشيئًا منذرة بخطب جديد، أخذت الأمواج تأتيهم تباعًا، وقد بدأ البحر يهيج ويرسل أمواجًا عاتية أكبر وأعلى من الأولى، اتضحت على الربان علامات من الشحوب وهو يحاول السيطرة على موقف القارب الذي أخذ يتمايل بشدة، كان يدير الحركة بكل حزم وخبرة، ما لبث وأن خرج من قمرة القيادة بعد أن أطفأ المحركات، وأخذ يتقافز من ركن إلى آخر وكأنه قرد استوائي هائج، كان يبذل جهدًا كبيرًا في السيطرة على القارب الذي أخذ يتمايل بقوة، لكنه اتجه في نهاية الأمر إلى صندوق في الأعلى، وأخرج منه حلقات بلاستيكية عبارة عن أطواق النجاة وزعها على الجمع الذي بدا هائجًا لا يعلم ماذا يفعل، لكن المهرب أخذ يصرخ بهم ويحثهم على ملأ الأطواق البلاستيكية بالهواء، بعدها بدأ الجميع يحفرون قبورهم بالنفخ المتواصل بكل همة، لم تمهلهم الأمواج التي بدأت ترتفع إلى أعلى من رؤوسهم بإكمال تلبيس الأطفال جميعًا طوق النجاة، فقد كان الموج المتعالي أكبر من تفكيرهم حين أخذ يرفع القارب إلى الأعلى ويسقطه مرة أخرى في الماء، ما هي إلا لحظات حتى انقلب بهم القارب الخشبي وتطافر الركاب جميعًا في البحر.

كان عبد العال الوردي ينازع الموت لوحده على خشبة عريضة بعيدًا عن باقي الأجساد التي بدأت تختفي في قعر البحر واحدًا تلو الآخر بكل ألم، كان يتحامل على نفسه وهو يمسك بالخشبة العريضة التي اندفع بها يبحث عن زوجته

والأطفالتحت ضوء القمر، كانت لحظات عصيبة عانى منها الموت غرقًا، أخذ يجدف بيديه على سطح الماء أملًا بأن يجد أحدًا من عائلته على قيد الحياة، لقد رأى بعض الأجساد من خلف الموج، كانت اللحظات التي رأى بها أطفاله وهم يتخبطون في الماء أشد قساوة من مما هو عليه، ما أن اندفع نحوهم واقترب أكثر حتى هاجت به موجة أبعدته عنهم وصفقت بكل من حوله، أخذ يقاوم الموج الذي فرق الأجساد الطافية بكل طاقته، أعاد الكرة مرة أخرى حتى وصل إلى مكانهم، عندما اقترب منهم كانوا يبتعدون عنه، فقد أخذ الموج العاتي يبعدهم أكثر وأكثر، أخذ يعيد النظر إليهم وهو في أشد حالات الإعياء، لم ير حينها سوى يد ابنه الصغير تنزل ببطء نحو العمق ويغيب عن أنظاره ، بعدها لم يرى شيئا ، فقد غاب الكل في القاع وغاب هو عن الوعي، لم يفق من هذا كله الا عندما وجد نفسه على الساحل الاسترالي، جسدًا منهكًا ووجهًا ملأ نصفه ماء البحر، أخذ يتفحص جسده المنهك ويمسح على وجهه وصدره بعد أن صحا من الصدمة،جلس وحيدا على الساحل وهو يتذكر ليلة البارحة، لكنه وضع يديه على رأسه المبلول وأخذ ينتحببكل قسوة، تمنى لو أنه لم يظل على قيد الحياة، تمنى لو أنه التحق بعائلته الصغيرة على أن يبقى يتحمل العذاب وحده طوال عمره.

لقد وجده أنور في يوم من الأيام قرب أحد أركان العمارة بزاوية ضيقة في الظلمة يئن بكل ما أوتي من وجع ولم يحاول أن يقترب منه أكثر، فقط تركه هو وصوت أنات الحنين التي كانت تحتبس بداخله منذ ذلك الوقت، صوت وجعه الذي لن يفهمه أحد غيره، برغم كل المواقف والحكايات، يظل نزف الرحيل مفتوحًا على مصراعيه في الأرض وفي البحر وفي السماء، لا يتوقف، لاهثًا يصرخ في الطرقات المؤدية إلى الحدود بأرجله الصلفة، أمنيات الشعوب المضطهدة التي تبحث عن الخلاص أخذت تقبل على الانتحار في أرض الأحلام بكل عفوية، تريد أن تتخلص من شرقها الدامي ، لذلك ، تحاول قطع المسافات الطويلة نحو الغرب أوتقف طوابير على سفارات الدول الغربية.

تنبه أنور أنه لا بد أن يجد حلاً مقبولاً لوضعه، ترك النافذة وعاد يبحث عن ورقة وقلم ليخط خطوطه المتشابكة، فهي السبيل الوحيد الذي من الممكن أن يبحر معها بأفكاره قبل أن تزدحم عليه ذكريات وأطياف جديدة تمسح شعوره وحنينه للوطن الذي بدأ يتذكره بكل حسناته وسيئاته، أخذ يفكر في التخلص من وضعه ويعود إلى الوطن بعد أن تحرر من أيقونة الظلم والطغيان، لا بد أن يكون هناك أمل جديد، تذكر البستان والبيت والحارات والمدينة والنهر، تذكر الرجال والفتيات والصغار، تذكر كل

شيء حتى النسمات، لقد أخذ الحنين يلج بداخله أفواجًا ويدفع بتفكيره إلى كل شيء هناك في وطنه الأم حيث كان مولده.

أمسك القلم وهم بخط الخطوط على الورق، ولكنه قبل أن يخط أي شيء، عصر القلم وألقاه بعيدًا عنه ،كان هاجسًا وشعورًا غريبًا انتابه فجأة عندما تذكر قريته والبستان والأشجار والدروب، تذكر أباه الذي خلفه هناك هائمًا سارحًا بين الدروب يبحث عن أطياف الراحلين، منذ أن رحل أنور عنه لم يره أحد، لم يعد لديه أحد من العائلة سواه، أحب أن يكون هناك في لحظة مرت عليه أشبه بالحنين والاكتشاف حينها قال في نفسه : (سوف أعود أخيرًا) ، ألم الصدر أتاه هذه المرة كجمرة يعصف بها الهواء، قبض على صدره بقوة وهو يمسك بالدواء الذي وصفه الدكتور له كحل مؤقت لوضعه، ابتلع قرصين من الحبوب وشرب الدواء الذي فتحه على عجل من قنينة صغيرة، ولكن الألم ما زال يعصره بشدة، أراد أن يسترخي ويمدد جسمه على الكنبة، فقد أحس أن هذا الألم كفيل بجعل نهاية حياته سريعة، أرخى جسده وقطع عنه كل تفكير وأخذ يتنفس بشكل منتظم، ما هي إلا بضع دقائق حتى بدأ يتماثل إلى الهدوء والراحة ، كانت لحظات من الصمت عصيبة قبل أن يسمع جرس الهاتف يرن بقربه، لم يشأ أن يرد على أحد في هذه اللحظات، ولكن بعد أن انتهى النداء بدأ الجرس يرن مرة أخرى، التقطه بتثاقل وهو يتمعن بالرقم الغريب الذي أخذ يطلبه

بإلحاح، عندما فتح السماعة لم يصدق أنه يسمع صوت روزي على الطرف الآخر وهي تبكي.

ـ روزي، ما بك؟

ـ أنور، أنقذني أرجوك.

ـ تكلمي روزي، ما بك؟

سرت لحظات من الصمت، سمع أنفاسها تتعالى على الطرف الآخر وهي تحبس الكلمات، لكنها أخذت تجهش بالبكاء بعد أن قالت:

ـ أنور بتُّ لا أطيق آلة الجنس هذه.

١٣

لقد جاء يوم الحسم، أسبوع كامل من الترقب والارتباك، اليوم هو موعد نتائج التحاليل النهائي، نفض عن سترته ماء المطر الذي التصق بها، تنهد قبل أن يدخل من باب المستشفى، استقبلته الممرضة بسرعتها المعهودة وأجلسته في صالة الانتظار ريثما تبلغ الدكتور المختص بقدومه، لم تمض سوى خمس دقائق حتى اقتادته الممرضة مرة أخرى إلى الممر الذي أودى به إلى غرفة في الزاوية، حين جلس في الداخل انتظر لحظات أحسها أقسى من برودة هذا اليوم لدرجة أنه أخذ يرتجف، ولكن ما هي إلا بضع ثوان حتى سمع طرق أصوات أقدام مسرعة تتجه نحو الغرفة، أطل عليه نفس الدكتور الذي عالجه سابقًا بوجهه الجاد المتجهم في البداية بعدها دخل خلفه اثنان من الدكاترة أحدهم يكبره سنًا والآخر بنفس عمره، ألقى عليه التحية ووضع أوراقه على طاولة صغيرة، فيما تبعتهم الممرضة بعد لحظات بجهاز قياس الضغط، طوقت به ذراع أنور الذي أحس أن في الأمر خطب جسيم بعد أن رأى الدكتور منهمكًا بالضرب على أزرار حاسوب كان بالقرب، بعدها أبدل نظارته السميكة بأخرى وأخذ يتمعن في الأوراق، ثم قال في رتابة:

ـ سيد ماشين، لا بد أن تستمع إلى نتائج التحاليل جيدًا.

ـ هل هنالك شيء مريب دكتور؟

ـ توجد لدينا شكوك حول مرض خبيث مستعصٍ بالرئتين لم تتضح معالم تكوينه الى الآن ولكن ...

ولكن أنور قاطعه بشدة حين سمع ذلك.

ـ أتعني سرطان؟

ـ لن يكون كذلك إن نحن قاومنا المرض في بداياته قبل أن ينتشر.

أصبح أنور في عالم آخر، لقد كانت الصدمة أقوى من ثقل حجري أسقطوه في قعر بحر يهيج من الدهشة وأخذ ينزل إلى القاع حتى وصل واستقر على أرضية تطاير منها الغبار بصمت.

ـ سيد ماشين، هل تسمعني؟

ـ نعم ... نعم، لكنني أود أن أعلم ما هي الخطوات التالية؟

أخذ الدكتور يتمعن في وجهه مليًا، حسبه لم يفهم كلامه، اتجه في حديثه نحو الدكتورين الواقفين خلفه، وأخذ يتكلم معهما بلكنة سريعة ما لبث وأن أمسك قلمه وأخذ يخط على الورق خطوطًا أشبه بالكلمات الصينية، ثم مدها اليه وقال:

ـ هذا موعدك القادم بعد أسبوعين من الآن، سوف نبدأ بعلاج المرحلة الأولى من العقاقيربعدها سوف نباشرفي مرحلة علاج خاصية الراديوم ان اضطررنا الى ذلك .

ـ شكرًا دكتور.

ـ اطمئن لا عليك، سوف نتجاوز هذه المرحلة بقليل من الصبر والعزيمة، سوف أكون بجانبك، أي سؤال آخر؟

هز أنور رأسه نافيًا، حمل الدكتور الأوراق وخرج مسرعًا يتبعه الباقون، بينما قام هو بعد ذلك وسار عبر الردهة بخطوات ثقيلة في اتجاه الباب الرئيس الذي وقف عنده طويلاً، ولكن وقبل أن يهم بالخروج، تطلع عبر الباب الزجاجي العريض، ما زالت السماء تمطر، أحسه اليوم غير المطر الذي كان ينتظره دومًا ويحب أن يمشي تحته، كان عنيفًا عاصفًا يحمل القساوة في طياته، توقف لحظات يتأمل نفسه يخرج من الباب إلى الشارع ويسير إلى حيث اللانهاية، حيث لا مكان ولا زمان يحده، أراد أن ينسى نفسه أو أن الزمان ينساه.

ها هي المعركة قد شارفت على الانتهاء، لم يرتض المحارب بواقعه غير المعلن، الانكسار والهزيمة، الإحباط والخذلان، لم تقنعه التناقضات والأضداد بين قيمتين بعيدتين كل البعد بالمعنى والمضمون، الأسود والأبيض، السماء والأرض، الموت والحياة، الشرق والغرب، أراد أن يكون منتصرًا ولو على نطاق التناقضات ذاتها ولكنه

لم ينتصر، فقد أصبح كل شيء يسير في اتجاه واحد نحو قيمة الموت الذي ما هو إلا أقرب شيء لإبعاد النهايات الوسطية، فقط بدت وصفات تشبيهية عقيمة للحياة تنفرد بها التعابير اليائسة التي لا تحتمل معاني عدة زائدة لا تقف بالضرورة في ملتقى طرق لا تمت للواقع بصلة.

****

(كلكم تردون تنتحرون ؟) ،تذكر أنور ذلك اليوم الذي قال به المزور البغدادي ذلك وهو يتطلع في الوجوه الواجمة المنصتة التي كانت ساكتة لم تتكلم، ولكن حين أعاد عليهم سؤاله الذي استفز أصدقائه الثلاثة أشاروا جميعهم نحو أنور وقالوا بتلعثم فاضح: (لا لا لا، بس هذا البطران) حينها ابتسم البغدادي ورد على الفور: (ثلاثة رؤساء وشعب واحد) .

كانوا يلتفون حول المزور البغدادي كدائرة من الترقب والانبهار بشخصيته الرزينة وأسلوبه المشوق، لقد تحدث عن نفسه بزهو وغرور في بادئ الأمر حين أسهب بالحديث عن طريقته الجهنمية في التزوير والتهريب، تكلم عن أسلوب تعامله مع المطارات والمنافذ الحدودية والجوازات المزورة، قال إنه أخفى العديد من الأجساد بتوابيت الصاج في المراكب التي تذهب إلى أمريكا عبر المحيط، شرح لهم كيف زج بالمجاميع في غابات أوكرانيا والمجر وأخذ يجرهم خلفه عبر الغابات في اتجاههم إلى

ألمانيا، وكيف أدرج أسماء الهنود والبنغال بطلبات زيارة وهمية وهو يتجه بهم إلى السفارة الاسترالية، شرح كيف حلق في سماء روسيا بطائرة شراعية من دون أن يتقيأ، وأخذ يعبر دول الخليج كافة في يوم واحد على الجمال، وكيف أنه استطاع تهريب ابنة الرئيس الصومالي في آخر ليالي كانون الأول ولم يستهوه جسدها، كان يسهب بحديثه عن الولد السوداني الذي أدخله إلى السويد باسم جواز هندي، وتكلم عن الانغولي الذي وصل إلى نيوزلندا بجواز سفر إسرائيلي، وكيف عبر الحدود بشاحنة اللحوم الفاسدة جبال الهملايا وبداخلها نفر من الأتراك من غير تفتيش، وأدرج كشوفات العوائل الفنزويلية بأسماء صينية حين دخل بهم الأراضي الكندية.

لم يشأ أحد منهم تعكير سير انطلاقة الحكايات، قاربت الساعة على الثالثة صباحًا وما زالوا يتمنون المزيد من قصص المغامرات التي أصبحت أكثر إثارة وتشويقًا، حين أخذ البغدادي يتحدث عن مغامراته العاطفية التي قال إنها أكثر إثارة من حكايات التهريب، ولكنه توقف فجأة بعد أن أحس أن فمه قد نشف، استرد بعضًا من أنفاسه ومد يده على جيب سترته الداخلي، ثم أخرج جواز سفر أخضر لوح به في الهواء ثم وضعه على الطاولة ، توجه بحديثه نحو أنور وقال : (هذا الجواز سعودي ، أقدر أغير الصوره والاختام ، راح يكون جاهز بكره) ، ولكن بعد أن رأى السكوت على وجوه الموجودين قال : (شوفو أخوان ، لو ما كملتو باقي الفلوس راح يفقد هذا الشروكي

فرصة عمره) حينها أومأ له أنور برأسه من دون أن ينبس بأية كلمة وأدار وجهه نحو الموجودين الذين فهموا المقصود، بعدها أخذت العيون تتطلع ببعضها بعضًا ، ،كان هذا ما اتفق عليه أصدقاؤه المجتمعون في فندق المستعصم عند ذلك اليوم مع المهرب البغدادي الذي غادر وتركهم في حيرة من أمرهم، كانت الوجوه محرجة وحائرة، لكنهم أصروا على أن ينقذوا أحدًا منهم وينقلوه إلى عالم آخر بعيدًا عن وضعهم البائس لذلك تشارك الجميع في توفير باقي المبلغ المطلوب برغم حاجتهم لكل قرش.

في اليوم التالي ، عاد البغدادي اليهم وأخرج الجواز السعودي ثم فتحه على الصفحة الأولى، أبهر الجميع لحظة رؤيته، تلاقفته الأيادي واضطرب الجو وهم يرون صورة أنور في الصفحة الأولى من الجواز مبتسمًا يلبس اليشماغ والعقال، لا شك أنه كان مرغمًا على هذه الابتسامة وهو يلبس الكوفية الحمراء وثوبًا عربيًا أبيض، أمسكه حسين القارورة وأخذ يقلب صفحات الجواز بكل تروٍ وأناة، التفت إلى المزور البغدادي وقال له بكل ثقة: (هاي الأختام أصلية) حينها أخذه الأستاذ ماضي من يده وأخذ يتفحصه ثم قال مؤيدًا كلام حسين القارورة: (صدك أصلية)، لم ينتظر البغدادي أكثر من هذا الإطراء بعد أن سحب الجواز من أيديهم وأعاده إلى جيبه الداخلي، قال موجهًا حديثه إلى أنور بلهجة شديدة أشبه بالأمر:(راح تكون مدة الرحلة

ثلاث ساعات من مطار الأردن الى العاصمة بروكسل ، تقعد ساعتين بالترانزين وبعدها تطير لمطار مونتريال .... مفهوم عيني أنور) .

أشاح أنور برأسه وأخذ ينظر عبر باب المستشفى الزجاجي إلى المطر الذي بدأت تخف حدته، أخذ يتابع القطرات وهي تنزل على مهل فوق زجاج الباب الرئيسي للمستشفى ، أحكم لف الشال حول رقبته، أغلق أزرار الجاكيت، فتح الباب وزج بنفسه تحت المطر بعدها سار في خطوات سريعة إلى أن وصل إلى موقف الباص، في هذه اللحظات رن جرس الهاتف عندما خطى بضع خطوات إلى داخل المبنى الزجاجي الصغير، جاءه من الطرف الآخر صوت روزي.

ـ ألو... أنور، هل يمكنني أن أراك اليوم؟

ـ سوف أكون فارغ بعد الظهر، أيناسبك هذا؟

ـ الساعة الواحدة قرب القناة جهة فندق الويستن.

ـ وهو كذلك.

حين أغلق سماعة الهاتف، كانت فكرة الرحيل والعودة الى الوطن تراوده بعد أن تيقن بأن التقارير الطبية لن تخطئ، لقد أصبح مبرر العودة الآن مقنعًا، تحسس صدره بعد أن فكر بكل العواقب بعدها أوقف سيارة تاكسي وزج نفسه في داخلها وقال:

ـ دائرة الهجرة من فضلك.

أقلته سيارة التكسي عبر الطريق السريع في اتجاهها إلى قلب المدينة، حين فتح النافذة على الآخر، ترك الهواء البارد والرذاذ يضرب على وجهه، تمنى أن يوقظه المطر من نوم الشعور العميق بأمل القبول في هذا البلد، لقد كان قرار العودة الذي سوف يختاره هو بإرادته يعتبره صائبًا، كل الدلائل الآن تشير على أنه شخص غير مرغوب به في هذه الدنيا، فلم يعد مهمًا أن يحيا أو يموت أكثر من مرة في حياته، لا أحد سوف يهتم لأمره، من يريد أن يثبت للغير أن الحياة عبارة عن رحلة زائلة سوف تفنى عاجلًا أم آجلاً، القدر أم الإنسان، لقد كشف لعبة المجهول بعد أن عرف مصيره وموعد موته، نهاية رحلته التي عانى منها الكثير، بدت كأنها أكثر من نار أوقدها لصوص سرقوه وتركوه مربوطًا داخل كهف على عمود حديدي يعاني الاحتراق ببطء، لم يبحث في مخيلته عن معجزة للخلاص، فقد توصل إلى قرار لا رجعة فيه، العودة من حيث ارتحل والموت إلى حيث ولد.

عندما ولج إلى شارع كاثرين، كان مزدحمًا كعادته، أخذت السيارة تسير ببطء من شدة الزحام ، مما اضطره إلى أن يحادث سائق التاكسي الذي بدا من رأسه المدهون أنه من أصول هندية، لكن قبل أن يبدأ في الحديث أخذ يخمن قصة رحلة السائق الهندي، فمن الضروري أن يكون اسمه كومار، وأنه أتى إلى هنا منذ زمن بعيد بعد أن باع أرضًا

زراعية وبقرتين من أجل مصاريف الهجرة إلى كندا هو وعائلته، من المؤكد أنه حصل على هذا التاكسي بباقي ما يملك من مال، لا بد أنه يعمل به منذ الفجر إلى الليل حتى يوفر مدفوعات الكهرباء والماء وبوليصة التأمين والقسط الشهري لبيته الذي لا بد أن يكون في جنوب مدينة أوتاوا وتحديدًا بمنطقة "بارهيفن" التي أكثر ما يقطنها الهنود والعرب.

ـ ما اسمك يا رجل؟

ـ كومار.

ـ ومن أي بلد أنت؟

ـ من الهند.

ـ قيادة التاكسي عمل شاق، أليس كذلك؟

كان أنور يعرف الجواب سلفًا، قصص معاناة المهاجرين تكاد تكون واحدة، لكنه أحب أن يسمع حكاية سائق التكسي ذاتها التي خمنها بكل جدارة، حكاية الموظفين التي تبدو متشابهة بكل تفاصيلها، فهم يستيقظون باكرًا في كل يوم على نداء العمل ويزجون أنفسهم في دائرة من الأرقام تبدأ بالدقائق الحرجة، وتنتهي بالساعات المحسوبة، ينطلقون طوال اليوم أفواجًا من البشر، يأكلون ويشربون وهم يسيرون في

الشوارع ذات الأسهم والإشارات والعلامات التي تحدد مواقع الأماكن التي سوف تسحبهم لساعات في داخل المباني الزجاجية، ليس هنالك وقت للتأخير عن المكاتب والمصانع التي حين يدخلونها يصبحون كما الآلات التي يعملون بها، تدور بهم الساعات إلى حين انتهاء وقت العمل فيعودون إلى بيوتهم وهم في أشد حالات الإنهاك، لا يتكلمون كثيرًا لا يعرفون طعمًا للحب والعاطفة إلا في عطلة نهاية الأسبوع التي يحاولون فيها أن ينفضوا عنهم كل التعب بالرقص والغناء في البارات والملاهي، أما في يوم الآحاد فإنهم يرتبون أنفسهم وينهمكون بغسل الملابس في انتظار أسبوع جديد يهيئون به أنفسهم للانطلاق من منطقة الصفر إلى الأعداد المجموعة والمطروحة والمقسومة، يتبعون لغة الأرقام المضروبة في الإنسان عرض الحائط، أشد ما يتمنى الموظف الحكومي في كندا أن يصل به العمر إلى ما بعد سن التقاعد حتى يبدأ رحلته الأخيرة بالسفر ورؤية العالم الحقيقي في الشرق وزيارة قبور الأنبياء في إسرائيل والأردن ، بعدها يعود ليهيئ نفسه للتابوت.

ـ نحن نعيش في دوامة أيها الرجل، أعمل لساعات طويلة لأوفر قسط البيت والسيارة وفواتير الكهرباء والتدفئة والتلفون وغيرها من المستلزمات التي لا تنتهي، وفي الآخر رصيدك صفر.

ـ هنا من فضلك قرب دائرة الهجرة.

عندما دخل أنور من باب بناية دائرة الهجرة قطع صالة الانتظار بخطى ثابتة، كان أغلب المنتظرين من الأفارقة السود وبعض الهنود والعرب، أخذ مكانه على أحد الكراسي بعد أن قطع لنفسه رقمًا من آلة تنظيم الأدوار وانتظر دوره في مقابلة أحد موظفي الهجرة، مضت ساعتان قبل أن ينادي الحاسب الآلي على رقمه، عندما اتجه بحزم نحو نافذة زجاجية في الوسط مضت ثوان قليلة من الصمت قبل أن ينطق ويقول:

ـ صباح الخير سيدي، أطالب بإلغاء ملفي في قضية الهجرة وأود العودة إلى بلدي.

تطلع الموظف في وجهه مستغربًا من طلبه اللامعقول، أراد منه أن يأخذ وقته بالتفكير والعدول عن طلبه حين أخذ يتفحص بعينيه الذابلتين، هجرة عكسية مفلسة، لا بد أنه قال في قرارة نفسه: (كيف يطلب هذا المعتوه مغادرة أرض الأحلام) لكنه سأل أنور بعد رأى الجدية على وجهه.

ـ هل أستطيع أن أعرف الأسباب؟

ـ إنها أسباب شخصية.

ـ هل لي أن أرى أي شيء يفصح عن هويتك؟

أخرج أنور وثيقة كان يحملها في جيب بنطاله الخلفي، مدها له بإصرار الواثق وكأنه يشدد على قراره، أخذ الموظف يقلب في جهاز الحاسوب ويضرب على الأزرار بسرعة ما لبث وأن قطب جبينه ولوى فمه للحظات، بعدها عاد يضرب على الأزرار من جديد وما إن فرغ حتى أعاد له البطاقة مع بعض أوراق من التعليمات وقال:

ـ حدد موعد السفر واحظر جواز سفرك وتذكرتك وعد إلى هنا بعد أسبوع وسوف نقوم بالإجراءات المتبعة.

سار عبر شارع "بانك" بعد أن توقف المطر كليًا، شارع حيوي يعتبر عصب الحركة في قلب العاصمة، حركة مواظبة في الصباح والمساء، يمتد من أعلى مركز المدينة بعفوية ويتجه إلى ما لا نهاية إلى جنوب العاصمة وكأنه يقسم المدينة إلى نصفين، يربط بشكل متزاحم أغلب الشوارع الفرعية التي تأتي من مناطق وقرى ريفية عدة تقع في داخل المساحات الشاسعة، كانت توجد به جل المحال التجارية المتراصة والمطاعم والمقاهي، يرتبط بالنهر ارتباطًا وثيقًا خال من الفوارق، عندما يتحول إلى شارع صغير حجري متعرج فإنه يلتحم بمواقف للسيارات خلفية لموقع بناية البرلمان الكندي الأثري ولا يوقفه إلا سور من الحجارة طويل يطل على بنايات الطرف الآخر من النهر لمقاطعة كبيك الفرنسية،لقد بانت بنايات البرلمان الثلاث التراثية المتباعدة أشبه بقلاع القرون الوسطى، تحتويهم جميعًا ساحات خضراء واسعة، تقبع في وسطها فتحة دائرية

كأنها طرف من فوهة لمدفع مدفون في الأرض، تخرج منها نارٌ تظل مشتعلة طوال فصول السنة الأربعة.

حين اتجه أنور صوب القناة مر بفندق الشاتو لورير الذي يعتبر من أفخم فنادق العاصمة أوتاوا، يمتزج طرازه بين الفن الباروكي وبشكل قلاع القرون الوسطى، تراه من الخارج وكأنه تحفة فنية نقشت بانتظام، لقد سار عبر الشارع المزدحم بكل حماسة، تجاوز بناية أشبه بمعبد روماني بني على الطراز الحديث تستخدم للاجتماعات الحكومية، يُذكر أنها كانت محطة للقطار في السابق، حين عبر جسر القناة، رأى روزي عن بعد تنتظره قرب اليخوت الرابضة في صدر القناة التي قسمت إلى أجزاء كبيرة بدت كأنها أحواض منتظمة تحمل المراكب الراسية، وتتدرج الى الأسفل عبر الأحواض المائية العديدة حتى تصل إلى منفذ لها على نهر الريدو الكبير، أطل عليها بوجه لم تحدد روزي جيدًا انعكاسات الحزن على ملامحه، حين أصبح قريبًا منها سارت نحوه وطبعت على خده قبلة، بعدها جلسًا قرب بعضهما على مصطبة من الخشب المدهون بلون أزرق.

أرادت روزي أن تضفي على الجو نوعًا من المرح، حاولت أن تنسيه ما حصل لهم في الشاليه، لقد اعتبرته عارضًا استثنائيًا قد حدث من غير قصد، أرادت أن تمسح عنه سمة الحزن التي رأتها على وجهه، وكأنها تُلمح للحياة التي يجب نسيان ماضيها

والبدء من جديد برغم أي شيء، أخذت تبحث عن بقايا مفرحة في داخلها حتى تبعثها في روح أنور الذي جلس صامتًا من دون أن يتكلم، تكلمت بلكنتها الأرمينية في استهتار بالغ، ولم تجد أي ردة فعل مضحكة، بعد ذلك أخرجت من حقيبتها دولابًا يجري بداخله فأر مطاطي صغير ووضعته على السور، بعدها أخرجت مصاصات دائرية تحمل الألوان السبعة واستعرضتها أمامه ثم أخرجت حفنة من حبات الفول السوداني ووضعتها على الكرسي، ولكن أنور لم يلتفت إليها بل ظل على صمته مما اضطرها إلى أن هزت جسده مداعبة، لكنه ظل صامتًا الأمر الذي دعاها إلى أن تمسك يده وتسحبها إليها بحنان.

ـ أنور ما بك، لم احمل صغينة نحوك ، لقد سامحت الجميع؟

–لقد كنت في المستشفى روزي .

–ماذا قالوا لك ؟

ـ نتائج التحليلات غير مرضية.

لم تصدمها كلماته، كانت تعرف في المرض منذ الأيام الأولى عندما شرح لها الدكتور عن خطورته، لقد قال لها أنه من الصعوبة تفادي المرض بسهولة، وأنه سوف يودي بحياته عاجلًا أم آجلاً إن هو أهمل نفسه، حاولت روزي أن تبعده قليلًا عن واقعه،

فقد تبين أن كلاهما قد مات بداخله شيء من غير احتضار، لم تسعفهم صرخات الألم في البوح بشكل عال يلفت الأنظار إلى معاناتهم التي اختفت خلف الوجوه الساكنة، تمنت روزي أن تتبدل الحقيقة وتحدث المعجزة أو يحدث المستحيل الذي أخذ مكانه بداخلها بشكل صارخ، ولكنها قالت له مواسية:

ـ أنور سوف أكون معك وبقربك، لن أتخلى عنك.

لم يترك أنور مجالاً لروزي بتلقي الصدمة الأولى بأن تأخذ الوقت الكافي من الاستيعاب بل ألحقها بالصدمة الثانية التي كانت أقسى وأمر على مسامع روزي التي أخذت تنصت له بصمت، قال بصوت أشبه بصوت بوابة قديمة صدئة تفتح على مصراعيها لنور شاحب لم يفضح معالم ظله:

ـ لقد قدمت طلبًا لمغادرة كندا في دائرة الهجرة.

تبين أنه صوب نحوها آخر الرصاصات، أحست بأنه قتلها من جديد دون أن يترك بصمات جريمته على الأمنيات، أخذت تتفرج كالعادة على ذاكرته المزدحمة ولم تستنتج شيئًا، بكت في داخلها من غير صوت، لم يحدث قط أن ترى نفسها جثة هامدة لمرتين على التوالي، كاد الخبر يصيبها بالدوار، لقد رأت نفسها فجأة وحيدة في مكان لم تحب أن تكون به في يوم من الأيام، وكأنه تركها وحيدة في ملجئ للعوانس، فيما هو أخذ يخرج بسرية بالغة من باب جانبي نحو المجهول.

ـ أنور ... ماذا تعني؟

أشار لها برأسه حين قام وأخذ يسير بكل تمهل في محاذاة النهر وقد وضع يديه في جيوبه، فيما أخذت هي تسير بجانبه، لم يتكلما هذه المرة، لقد أحبا أن يكون للصمت النصيب الأكبر في هذه اللحظات، ربما كان للغراب الأسود رأي آخر حين نعق فوق أسلاك الكهرباء الممدودة على طول القناة، وعاد ليحط بقربهم، لكنه جفل حين ارتقت روزي السور الحجري، وأخذت تنط بقدم واحدة فوقه، لم يشأ أنور أن يعكر صفو مرحها المفتعل أو حزنها الذي أرادت أن تنساه على طريقتها الخاصة، فقد كانت لحظات اختلط بها دفء الشعور مع التمرد الذي أرادت من خلاله أن تهرب عن واقعها وتنسى ما سوف يحدث، أخذت تلعب وهي كئيبة، فرشت يديها وتمايل جسدها على السور، أراد أنور أن يحذرها على ألا تقع، ولكنه عدل عن ذلك فهو يعلم أنها لن ترد عليه في هذا الوقت، إذ تنبه أنها سوف تستمر في التنطط حتى تصل إلى آخر الممر، لكنها بالفعل كادت أن تقع على الأرض، حينها لم يجد أنور السبيل للحيلولة دون ذلك إلا أنه توقف عن السير وأمسك بذراعها هذه المرة، ثم أصلح من وقفتها التي كانت مضطربة بعض الشيء، بعد ذلك سحبها نحوه وأخذا يسيران قرب بعضهما بعضًا دون أية كلمة، تركا الجسر خلفهما وتوجها صوب البيوت المطلة على

القناة، حين سار على بعد خطوات منها توقفت هي فجأة وكأن قدميها قد التصقتا بالأرض، أخذت تنظر إلى الأسفل من دون أن تلتفت نحوه ثم قالت:

ـ إذن سوف ترحل أنور.

حينها أحس أنور باختلاف صوتها عندما لفظت اسمه هذه المرة، كانت غير باقي الكلمات، غير كل الحروف، غير كل النبرات، التفت نحوها وتسمر قليلًا في مكانه، بعدها أخذ ينظر إليها بعيون ملؤها الشفقة والاحترام، مد يده الى داخل الجاكيت وأخرج دفتر أشعارها الذي نسيته ، قال وهو يرى نظرات من الأسى في عينيها :

ـ لا بد أن أفعل ذلك، خلقنا للرحيل في كل يوم كالأحلام المتشابهه.

ـ كان ذلك قبل أن تعرفني.

ـ قبل أن أعرف نفسي على حقيقتها.

حاولت روزي أن تكتم غصة بالبلعوم، لقد جاءه الصوت مبحوحًا حين قالت بعد جهد:

ـ أنور ... لن أقوى على فراقك.

كانت لحظات حاسمة لم يجد بها أنور ردًا مقنعًا يشفي الغليل، لاذ بالصمت وانتظرها حتى جلست على السور الحجري وكأنها قدمت من رحلة طويلة، نكست روزي رأسها، بانت في كلتا عينيها مرآتين، تعكس الأولى صورة غير متوقعة عن رحيل أنور، والأخرى

عن حلمها الخيالي الجميل الذي سطرته بأشعارها، فتحت كراستها وأخذت تقرأ مقتطفات من شعرها بصوت خدر.

ما زالت حزينة هي الأماني

تحتضن السنابل الغافية في ليل ناعس

ترفق جزءًا من حنينها لوجه الشهادة

وجزءًا يرقد على أعتاب الفجر الخجول

اختفى ظلي في دروب لا تبرح حد الحلم

أصبح النور يتجاهل وحدتي

ويطيح بوصايا مراكب وجهتي

حين أزف الرحيل

كنت متاخمة لرمال الشاطئ

ألوح للمراكب كما الصخور

كما الزهر والعطور

أو كالبنت الصالحة التي ترفض بقايا وداعك

الذي يتكاثر برحم الفراق

لفحها بعض الهواء الذي حرك خصلة من شعرها، أطبقت الكراسة وأسندتها على يدها، أدارت رأسها بعيدًا، أخذت تنظر إلى أبعد مدى، كانت تريد أن تلمح بعض الأجوبة المبطنة التي أخذت تتطاير بالفضاء، عرف أنها لم تكمل قصيدتها واختصرتها على هذه الأبيات التي من شأنها أن تحرك خلجات فؤادها وحدها، حين أدرت رأسها نحوه، قالت بصوت أشبه بالصفير:

ـ متى قررت السفر؟

ـ أسبوع واحد وبعده الخلاص.

لقد تبين من خلال ملامح روزي أنها تحمل أمتعة حكايات نساء الأمس العاطفيات اللاتي كان سريان نبض أرواحهن يسير نحو منعطفات الفراق، بعد أن رسمن في الخيال قصة حب عظيمة أسقطها الواقع بكل صلافة في بئر من الكلمات، لكن أنور أحب أن يطوي هذا الجرح الندي الذي ما زال يحتضر وينسى روزي إلى الأبد؛ لأنه كان على موعد مع الجراح والألم مرة أخرى في مكان ما لا يعرفه، هل كان يريد أن يواسي نفسه أم يواسيها في عزاء الرحيل، لا يعرف، أراد أن يبتعد بأسرع ما يمكن بعد أن وصلا إلى طريقين متعاكسين، وقفا متقابلين وجهًا لوجه، تطلعت العيون ببعضها بعضًا طويلًا، دمعتان نزلتا في نفس الوقت من وجهين مختلفين متقابلين، تعانقت

الأرواح بحرقة سنين الضياع، لقد ودعت الأرواح بقايا ظل حنين يعصف في الأعماق، لقد ودعا بعضهما بصمت واختفت صورتهما الضبابية من وراء الغراب الذي أخذ ينعق على الأسلاك الكهربائية.

****

لا يعرف لم تذكر أنور صديقه حسين طاهر القارورة وهو في طريقه عائدًا إلى البيت، ربما كان هو الشرارة التي جاءت به إلى كندا، تذكره حين كان في السليمانية ، كان يداريهم بعد ان رآى أنور ومنشد متعبين ، تذكر وجهه البشوش حين وجده أول مرة بعد الفراق في عمان ،(لا تقل لي بأنك أنور) ، لقد تعرف حسين على أنور من أول وهلة عندما رآه عائدًا متعبًا من معمل الحجارة الذي كان يعمل به، أخيرًا التقى بحسين طاهر القارورة، لم يكن شخصية طارئة أو إنسانًا جامدًا، كان مرحًا إلى حد الفجاجة، حركته الدؤوبة السريعة أحيانًا تربك من حوله، كانت شخصيته لا تقاوم عندما يأخذك بكلماته إلى عالم يرسمه في خيالك، تحسب وأنت معه أنك مقدم على مغامرات لم تكتشف بعد، جاء مرفوضًا هو الآخر من دولة السويد يجر أذيال الخيبة والضياع، وجد أن مدينة عمان هي آخر ملاذه، كانت المدينة تجمع كل الوجوه الغائبة وتفرق كل الوجوه الراحلة في أصقاع الأرض، حين تعانقا طويلًا قال له بكل نشاط: (يلا بينا ، جدامنا هواي).

كان يسكن مدينة مالمو في السويد مدة طويلة، جاءها متعبًا منهكًا، لقد قطع طريقًا طويلًا ممتدًا آلاف الكيلو مترات، عبر من خلاله الجبال والأنهار والغابات سيرًا على الأقدام في أوكرانيا وهنغاريا وبولندا حتى وصل إلى ألمانيا متعبًا بعد أن اشتد عليه ألم قدميه وهو في الطريق إلى هناك، لم يتوانَ، بعدها أكمل المسير إلى السويد، عبر الجسر الواصل بين الدنمارك والسويد، وصل وهو في أشد حالات الإنهاك، لكنه أراح ذاكرته وعمره المفقود بعد أن هرب من الوطن، أخذ يستكشف الشوارع المبلولة وعشوائيات الشواطئ ومحطات القطار وعجائب مكعبات الثلج والتماثيل النحاسية للفرقة الحديدية الموسيقية في مركز المدينة، تحَمّل مصاعب برد الشتاء وسطوته بكل راحة، صبر على غياب الشمس التي تظل شحيحة طوال الأيام ، أخذ يبحث بها عن عمل جيد، كان مبهورًا بساحات المطاعم في وسط مدينة مالمو، سعيدًا بالنظام والنظافة والجمال، كان يبحث عن عمل يكمل به هذه السعادة، لكنه لم يجد ما يناسبه لذلك اضطر على أن يصبغ وجهه باللون الأبيض ويلبس الملابس المزركشة ويضع طربوشا مخروطي طويلا على رأسه ليعمل مهرجًا يواظب على ابتكار الحركات البهلوانية في الساحات.

كان حسين طاهر القارورة لديه الحلول والمخارج لكل ما يحدث من سوء، لقد قضيا الأيام الطويلة وهما يتحدثان عن السفر إلى الخارج وعن بلاد الغرب التي تستطيع أن

تعيش بها في كل حالاتك وتجني من خلالها المال الوفير، كان يتحدث عن مغامراته التي أودت به إلى السجن في أكثر من مرة، لقد قال بأنهم ظلموه ولم يعطوه الفرصة الكاملة بأن يجمع الأموال التي كان يجنيها من بيع المخدرات والبضائع المسروقة وتجارة التبغ لذلك رحلوه.

(أكو يمك طريق أسافر بيه للخارج؟)،حين قال أنور ذلك، أخذ حسين طاهر القارورة ينظر إليه بعينين تشع بهجة، شد على أسنانه وهو يفكر بعمق، بعدها سحبه معه إلى وجهة لم يصرح عنها في بداية الأمر ، سار مسرعا وهو يمسك بيد أنور الذي بالرغم من إلحاحه على معرفة إلى أين يذهب إلا أن حسين طاهر القارورة استمر في سيره وهو يقول: (ما راح أبقيك هنا هواي ، حلك الوحيد المهرب البغدادي).

١٤

أغمض عينيه وترك الماء الدافئ ينزل من الدوش على قمة رأسه ويسيح على أجزاء جسده العاري كما الزيت المغشوش، تعمد أن يفتح الحنفيات على الآخر وكأنه يريد التخلص من شيء ما كان عالقًا بجسده، هدير الماء يبعده عن واقعه للحظات، تمنى أن يكون تحت شلال في الغابات البكر غير المكتشفة على الشواطئ المجهولة لا يصل إليها شخص تائه طافيًا فوق خشبة في البحر أو تصلها قنينة نبيذ مسدودة بالفلين في داخلها رسالة لقرصان، أحب أن ينسى كل ما ألم به من مرض وذكريات، يبتعد إلى حيث النجوم أو يستلقي على جذع شجرة المأموت المعمرة في الأدغال آلاف السنين، حاول أن يقف تحت الماء أكبر وقت ممكن يقبض أنفاسه بكل تمرد ليحس بموقف الغارق تحت الماء، أراد أن يستحضر موقف زوجته أمينة وهي تنزل بجسدها إلى عمق النهر تمسك بابنته صباح في ذلك اليوم بعد أن قصفت الطائرة الأمريكية الجسر.

حين أقفل محبس الماء بسرعة، تسمر لحظات وهو ينظر من خلال الباب الزجاجي إلى شخوص يقفون في الخارج صفًا واحدًا، لم يميز أحدًا منهم، أمسك المنشفة بسرعة ومررها على أجزاء جسده ثم لفها على خصره بإحكام حتى لا تراه الشخوص التي تخيلها واقفة في الخارج تنظر إلى جسده العاري الذي ترتسم عليها خطوطًا

مختلفة من أثر السياط بعيون من الشفقة والعطف، عندما سحب الباب بكل عفوية، خرج من الحمام وتطلع في الصالة التي بدت ساكنة بلا أي شيء مريب، لم يكن هناك أحد بالمكان، لكنه انتبه إلى طرق على الباب، كان طرقًا خفيفًا، توقف لحظات يتأكد من الصوت بعدها فزع حين سمعه مرة أخرى يعود بصوت عالٍ وكأنه يصر على تنبيهه بأن هنالك أحدًا خلف الباب يود رؤيته بسرعة، عندما اتجه إلى الباب بحذر، أخذ ينظر من فتحة الباب السرية، كان هناك شاب يحمل كرتونًا مربعًا أشبه بطلبات البيتزا، لا بد أنه مخطئ في العنوان، عندما فتح أنور الباب وأخرج رأسه، قال له الشاب مستفسرًا:

ـ عفوًا سيدي، هل هذا الطلب لك؟

ـ لا، أنا لم أطلب بيتزا، لا بد أنك أخطأت العنوان.

ـ آسف للإزعاج.

عاد إلى الداخل، وما إن وصل إلى وسط الصالة حتى عاد طرق الباب من جديد، لم ينظر من فتحة الباب السرية هذه المرة، فتح الباب بعصبية، ولكن كانت المفاجأة غير المتوقعة، أخذ ينظر في بادئ الأمر إلى امرأة كانت تقف أمامه، لم يصدق عينيه عندما رآها، لم تدخل ساعة ما رأته نصف عارٍ بل ظلت واقفة على عتبة الباب يدفع بها الحماس وحب المغامرة، كانت مترددة في نفس الوقت، نظراتها اختلطت بين الحياء

والاندفاع، أخذت تلوك علكتها على مهل وهي تنظر إليه بعيني تحدٍ، حين أفسح لها أنور الطريق دخلت بابتسامة مقبولة رسمتها على شفتيها الحمراوان، سارت بكل جرأة نحو الصالة وكأنها تعرف الكثير عن الشقة، وما أن وصلت إلى الأريكة حتى اختارت مكانًا في الطرف هو الأقرب إلى دمية راشيل البلاستيكية، بدا على وجه أنور الإحراج والتلعثم حين تنبه إلى هيئته شبه العارية، ولكن قبل أن يهم ويغيب في الداخل ليغير ملابسه استوقفته بحركة من يدها، وأشارت له بالجلوس قربها، فلم يجد أنور إلا أن ينصاع إلى أمرها بكل احترام وثبات، فلم تكن هذه المرأة إلا السيدة ثريا صاحبة المطعم.

رعشات يديها المرتبكة كادت أن تسقط كأس الماء من حافة الطاولة المستديرة، كاد الماء أن ينسكب على أرضية الصالة الخشبية لولا أن أنور وضع يده على يدها المرتعشة، ولم يفلتها وأسند باليد الأخرى الكأس على الطاولة، لم تحاول أن تسحب يدها بل وضعت يدها الأخرى على يده وقبضتهما بحنان، ثم قالت:

ـ أنور، لقد أفصحت روزي عن نواياك.

لم ينتابه الشك بصدق كلامها الناعم، رد عليها بكل تأن:

ـ صدقيني لم يعد لدي حل إلا الرحيل.

ـ كنت أتمنى أن تفهم الحياة بأعمق من هذا التفكير.

ـ الحياة!

ـ كنت أود أن تكون أكثر شجاعة من ذلك ولا تنسحب بسهولة.

ـ الآن أنا لست أسيرًا للأوراق، أنا حر.

ـ أنور، اسمعني أرجوك.

ـ هذا كان قرارًا حاسمًا لا نقاش فيه.

أطرقت هي بصمت لحظات بعد أن سحب أنور يده من قبضة يديها، تمعنت بوجهه، أنزلت نظراتها على جسده العاري وكأنها تقيس مسافات العضلات البارزة التي كست ذراعيه وصدره، بدت العروق الخضراء المرسومة على جسده تتضح، أمعنت النظر إلى آثار الخطوط المختلفة، أطلقت حسرة وعاودت تمسك ذراعه بكلتا يديها من جديد وهي تقول:

ـ هنالك أمنية كنت أود أن تحققها لي منذ زمن.

ـ سوف لن أتوانى عن تحقيقها لك ما استطعت.

ـ عدني بذلك.

ـ أعدك.

كانت مترددة بعض الشيء، مرتبكة وخائفة كعادتها، لكنها بالرغم من ذلك قامت وسحبته من ذراعه إلى غرفة النوم، تبعها بصمت ، تركته قرب الباب مستغربًا فيما تقدمت هي إلى الداخل ووقفت قرب السرير، فتحت أزرار الجاكيت الطويل بتأن وخلعته عنها، كانت عارية تمامًا تحت الجاكيت الصوفي الطويل، أخذ ينظر إليها في استغراب حين انتصبت أمامه بجسدها العاري ما لبثت أن ارتمت على السرير واندست تحت الغطاء الثقيل، أشارت له بالتقدم بيدها، أغمضت عينها ولم تزد شيئًا على ذلك.

كان أنور بين الإحراج والخجل، كيف عمدت على إظهار جسدها العاري له من غير تكليف، انتابته رعشة مباغتة غير تلك التي كانت تتوغل بأجساد العشاق، بدأ لون من الاحمرار يتسلق من الأسفل إلى وجهه بكل امتنان حتى وصل إلى أعلى أذنيه التي أخذت تسمع صوت أنفاسها المضطربة، لم يشأ أن يتقدم نحوها لكنها ألحت عليه بصوت رفيع حانٍ هو أقرب للتوسل أضاف شيئًا من الاندفاع نحو جسدها الذي أخذ يتمايل رغبة وشبقًا، ما هي إلا لحظات من التردد حتى اتجه نحوها واندس تحت الغطاء.

كان يود أن تدعه يسلك طريق وردها ويبرأ من بقايا الصحوة، أراد أن يرحل معها إلى انحرافات المجهول ويقتص من أيام قد هدرت وأشواق قد بعثرت، يتقاسم الحنين

بنوبات من فجيعة الأشواق، كان يريد أن يتوارى عن الأنظار ويختبئ في ركن من جسدها، يندب بقايا خيباته العالقة على صدرها ويسير بعدد سنين عمره على تضاريس جسدها المرتبك ولا يعود حتى يعانق المجهول المتروك الذي فض منذ زمن بعيد، فقد يعود من بعد التجربة رجلاً أو بقايا رجل.

ـ أنور، أتعلم لماذا قُتل زوجي في لبنان؟

هز رأسه نافيًا، بعد أن صمتت قليلًا استمرت في حديثها وهي تمسح بيديها على صدر أنور بحنان، وقالت:

ـ لقد وجدوه مع عشيقته هناك، فقتلوه.

ثم أضافت بشيء من العصبية.

ـ أريد أن أنتقم منه.

أخذ يمسح بيد مرتجفة على أعضاء جسدها الذابلة، مرر أصابعه على رقبتها بهدوء ثم أنزلها على صدرها، عصر ثديها المترهل بيد مرتعشة، كانت مغمضة العينين حين مسح على حلمة نهدها، ندت منها شهقة محبوسة، أراد أن يسرح بيده على كل تفاصيل جسدها، استوقفه نتوء قرب سرتها ولكنه أكمل تحسسه إلى أن وصل إلى الأسفل، تلاحقت أنفاسها واشتدت حرارة جسدها حتى أصبحت كالمتشنجة، سحبته من رقبته

بعنف نحوها وأخذت تلتهم شفتيه بشبق غير معهود، حتى أنه كاد يتألم لما عضت على شفته السفلى وسحبتها بقوة، بدأت تئن كالموجوعة عندما أحست بيده الدافئة وهي تلامس شيئًا حسبت أنها قد تناسته منذ زمن بعيد، أخذ صوت أنفاسها يتعالى حين ضمته لصدرها بكل شبق، أطلقت الحسرات التي أحسها أنور تسري كالعواصف اللاهبة في صدرها، كانت تريد أن يكسر أنور عظامها، أن يجمع كل الأعضاء في جسدها المهمل، أو أن يعود بها إلى أنوثتها، لكنها فجأة أسندت كفيها على صدره وبحركة غير متوقعة أخذت تهز رأسها بعنف وهي تصرخ ثم أزاحته عنها بقوة وقذفت به بعيدًا عن جسدها ما لبثت وأن قامت مرتبكة وأخذت تركض عارية نحو الصالة تحمل معها معطفها، بعدها سمع أنور صوت باب الشقة وهو يصفق بعنف.

لم يجد التفسير الوافي لتصرفها، بدا منزعجًا وعصبيًا أكثر من ذي قبل، جلس على طرف السرير لم يتحرك وقتًا طويلًا واضعًا رأسه بين كفيه، ترك أصابعه تتغلغل في شعره المتسربل المبلول، سرت بداخله ارتجافة تلقائية وربكة بأطراف جسده أحسها اهتزازات الزلازل الفجائية في أعماق الجبال الملتوية، قام وتوجه إلى المرآة بجسده العاري، تطلع في وجهه مليًا، ركز عليه كثيرًا وهو يهتز باضطراب، ركز على نصف وجهه المحروق وأعلى الرقبة، بدا وكأنه قطعة خشبية خرافية ما زالت مشتعلة منذ زمن بعيد لم تطفئها الأيام والسنين ولا مياه نهر الريدو، عينان حمراوان زائغة من جراء

السهر، وأنف مفروش كجناحي الغراب، وأذنان طويلتان امتدا عند طرف الرأس، شفتان غير متناسقتين من أثر ضربة مستقيمة رسمت علامة شرخ واضحة بالطرف.

المسخ المتآكل، صورة من انعكاسات قصص العذاب والترحال والقهر المفجع، لقد أصبح وجهه المشوه خريطة للأيام وهويته المميزة بأعين الناس، بدا كأنه علامة فارقة عن أقرانه من البشر، أيقن بأنه مرفوض ومنبوذ ،أخذ يتطلع بيده التي فقدت الأصابع الأربعة وهو يرفعها أمام وجهه، في هذه اللحظات كره نفسه أكثر من ذي قبل، كره نظرات الشفقة والعطف واستغراب كل من حوله، أحس أنه منبوذ حقير تافه لا يستحق العيش في هذه الدنيا، وأن نجمه اللامع قد انطفأ ساعة ولادته في هذه الدنيا، كان قد قاوم في الزمان الغابر ولم يستسلم قط للركود، واجه الحروب والشراسة والموت، ولكنه اليوم وبعد أن تزاحمت عليه الأحداث والمواقف وصل إلى أشد حالات التقاعس والإحباط، وصل إلى مرحلة لا يجدي بعدها المقاومة، لم يعد يحمل بداخله المندفع أي اتجاه نحو الحياد ما بين الحياة الهادئة وصخب السنين العارمة، لقد أخذ اليأس يأخذ مكانه بجدارة في نفسه التي لن تتحمل بعد الآن أكثر من هذا الإقصاء.

حين رفع رأسه عاليًا إلى السقف تصور أن هناك حبلًا طويلًا أخذ ينزل من فوق وهو يرى طرفه السفلي الذي عقد على شكل حلقة تتدلى أمام ناظريه، أمسك طرفيه بكلتا يديه المرتجفتين والغمه رأسه النصف مشتعل، شده على رقبته بإحكام، تمنى أن يركل

الأرض بقدمه ويفتح هوة من تحته ليقع في الأعماق متدليًا، وكأن هذا هو قراره الأخير ولن يثنيه عن الانتحار أحد، لا يهم بعد الآن جسده ذو الوجه المشوه إن كان سيعيش أو يموت، ربما سوف يتفقدونه بعد أسبوع أو أكثر، وقد يجدون جثته متعفنة متدلية من السقف، لكنه بعد أن تخيل نفسه على هذا الوضع نفض رأسه بعصبية واختفى الحبل.

اتجه إلى المرآة، تطلع بها وإذا بالشخوص يقفون أمامه بشكل مغوش من خلف الزجاج صامتين، ينظرون إلى وجهه بعيون من الأسى والحزن، سال الدمع على خديه عندما ركز على ملامحهم، أبوه وأمه وزوجته أمينة والصغيرة صباح وخلفهم أخوه رائد، هم أوقفوا خطواته التي لم ينجزها، هم كالجراحات التي تخثر الدم عليها ولم تندمل، دائمًا ما يتجولون في عقله ووجدانه، طوقوه بطوق من ريبة وألم وحنين، تمنى في هذه اللحظات أن يكون قد اصطف معهم، ينظر إلى نفسه بينهم من خلف زجاج المرايا، أو يستلقي بقربهم بين القبور ويموت بهدوء.

تعالت أنفاسه، كشر عن وجهه واصطكت أسنانه، أخذ يزفر من أنفه حتى خرج مخاط امتزج مع دمعه، احتقن وجهه وأصبح ككتلة من لحم متكور، وبلحظة عصبية ضرب بيده على الطاولة، وأزاح قوارير العطور ومستحضرات التجميل ورمى بها على الأرض، أصابه مس من الجنون بعد أن قذف بتمثال فينوس الجبسي نحو المرآة فحطمها

وتناثرت قطعه في المكان ما لبث أن اتجه إلى الصالة وهو يزفر، أخذ يدور في الشقة هائجًا كالثور، حطم المزهرية الكبيرة والأواني الفخارية، قلب الطاولة الزجاجية بما عليها من كؤوس، أخذ يدور في الشقة وهو يحطم جهاز التلفاز والراديو وكل ما حوله من المقتنيات الفخارية التي جمعها في سني عمره حتى لم يعد لديه ما يمكن تحطيمه، استدار نحو لوحة الصبي ذي الجيتار، زمها وهوى بها على الأرض وأخذ يدوس برجليه عليها وهو يصرخ بأعلى صوته: (كافي ... لك كافي) .

اتجه إلى النافذة، فتحها على مصراعيها، تطلع في الخارج، امتدت الظلمة أمامه إلى مالا نهاية، كان بداخله معركة لا بد له أن ينهيها ويطلق الرصاص الذي بدأ يسمعه ينطلق من داخله، عاد ليمسك بجميع ألعاب راشيل وبدأ يقذف بها إلى الخارج بكل عفوية، حتى الجندي المطاطي الذي يحمل على كتفه السلاح الطويل قذف به إلى البعيد، لم يبق غير شيء واحد، الدواء الذي أصبح شاهدًا ودليلاً على مرضه، أمسك زجاجات الدواء، الحبوب والكبسولات، أحب أن يتخلص من شبح المرض الذي يطارده، لمها جميعها ورمى بها إلى الخارج، لا علاج بعد اليوم لإنسان ميت، تطلع بكل ما حوله من بعثرة وخراب، تعالت أنفاسه المتلاحقة وهو يقف في وسط الحطام، أحس بتعب في صدره، رمى بجسده على الأريكة وهو يزفر، مسح على وجهه اللزج بيدين ضمهما بقوة على عينيه، أخذ يبكي بكل حرقة ويئن وقتًا طويلاً، أراد من الجميع

أن يسمعوه، لكن ما لبث أن بدأ يميل إلى الهدوء شيئًا فشيئًا بعد أن خنقته بقايا غصات أحسها تنبئه بقدره.

****

لم تكن مشكلته هو وحسب، ولم تكن مشكلة الناس من حوله، هي ذاتها الأيادي الخفية التي جعلته على هذا الحال، والتي لعبت الدور الأمثل في تسيير حياته دائمًا إلى عقد غير نافع، وغير مستتب مع نزعات النفس التواقة إلى العيش بعيدًا عن مهاترات الحياة العشوائية، لماذا لم يكن كغيره من الناس، لماذا لا بد له أن يعاني القسوة والحرمان آلاف المرات يوميًا من دون أن يجد من يرشده إلى صواب معقول، قد يقاوم هو ولكنه في آخر المطاف ينصاع إلى طريق مسدود، فيعاود المسير مرة أخرى نحو طريق آخر عله يجد ضالته المنشودة من رضا النفس وتهويدًا للأحداث، لكنه لم يجد سوى العوائق لنملة تائهة .

تمنى أن يعود فلاحًا أو راعيًا لقطيع من الأغنام يحدو بها بعيدًا عن العمران بقرية قد نسيها الزمن أو تناساها التاريخ، أو يكون ابنًا غير شرعي لامرأة أودعته بيتًا مهجورًا بعيدًا عن الأنظار، ولم يستدل لوجوده أي إنسان يرحم صراخه، تمنى أن يكون حتى قطة سيامية ترعاها أسرة ثرية سرقوها أولاد الحارة وأشعلوا في ذيلها النار، أو يكون مجرد غصن شجرة يابس اقتلعه حطاب من الجذور وألقى به إلى النار اتقاء للبرد،

تمنى أن يكون حجرًا بيد ولد متشرد رمى بها طيرًا كان محلقًا في السماء وعادت لتقع على رأسه، أو حتى آخر خيط دخان لموقد تسامر حوله بعض الأوباش، لقد حاول أنور أن يمسك فتات الأمنيات ويطلقها بسماء ليس لها قرار، ولكن يده كانت قد مسكت السراب.

اتجه نحو النافذة مرة أخرى وتطلع بدمى راشيل المتناثرة أسفل العمارة، راشيل هي أيضًا لم تكن حقيقة، شخصية رسمها خياله ليجاري بها أهواء نفسه ويقاوم بها صدود الواقع له، تذكر وجهها الأشبه بالصيني وجسدها الجميل المتناسق وشعرها القصير والوردة الحمراء التي تضعها دومًا خلف أذنها، المواقف والكلمات والليالي والأحلام وكل ما رسمه من علاقة مثالية في العقل، تمنى أن تكون حقيقة وواقعًا ملموسًا في يوم من الأيام، لكنها لم تكن سوى وهم في الذاكرة وشخصية صنعها خياله من أجل أن يعيش طمأنينة يداري بها عجز تواصله مع طرف نسائي حقيقي يبادله الشعور والإحساس، ها هو يحاول أن يتخلص من مرض خيالاته التي تخلق شخوصًا وهمية أخذ يرسمها أمام عينيه، دائمًا يحادث طيفها ويصنع منها قصصًا وحكايات ليس لها وجود، كان يعلم أنه يرصف أحجارًا من الأوهام يعلوا بها بلا أساس، يبيح المحظور على أنه لب الحقيقة التي لا تؤدي إلا إلى طريق مسدود، حقًا لا راشيل بعد اليوم.

كان يريد أن يستقبل عيد النسيان بكل هدوء وفرح، يتبادل بطاقات من المعايدة كتب عليها (نهنئكم بقدوم الواقع)، كان يريد أن يرمي الزهور الذابلة في النهر، ويتذوق حلوى بطعم الفراق على أرصفة المواسم، ويحتفل بآخر أيام العشق الموهوم، أراد أن يبكي الفجر على صدر شجرة خجولة، ويعترف بأنه كان عاجزًا عن التقاء الأطياف في أعياد الوهم، لفحه بعض الهواء البارد بعد أن تنبه أنه عارٍ تمامًا، كانت فرصته الوحيدة روزي رغم أسنانها المتفرقة، ساقاها المكتنزان، لكنتها الغريبة وتصرفاتها العفوية، ولكن بعد موقف الشاليه احتقر نفسه أكثر، لقد رأى نفسه أضعف مما تصور، أحس بأنه قطعة من قماش متسخة علقت برأس ركيزة خشبية لسور يحاوط أرضًا جرداء.

السماء تنذر ببوادر سقوط الثلوج، ها هو شهر تشرين الأول يمهد الأيام لشتاء كندا المثلج، سوف يبقى لستة أشهر جاثمًا كأحجية من العناء، وبعد ذلك يسيح الثلج بكل برود نحو الوديان والأراضي الواطئة حين تفيق حرارة الأرض، بعدها يأتي الربيع الذي لا تذكر أيامه السريعة التي تبدو كالنبوءات المؤجلة، وإن ذكرت فهي تبقى أيامًا معدودات من البهجة والحلم الطفولي، بعدها يأتي الصيف حيث يتناثر الناس أفواجًا خارج البيوت فرحين راقصين في البارات والمراقص والشوارع حتى الصباح، ثم يأتي الخريف الذي يعري كل الموجودات برياحه الساخنة ليزف بشرى قدوم الشتاء، يفرغ

أغصان الشجر ومساحات العشب المصفرة للثلوج، وبعد ذلك الربيع فالصيف فالخريف وبعده الشتاء فالربيع ثم الصيف وبعده الخريف.

تتداول الفصول وتتغير طبيعة الحياة، ولكن جسده باق لا تغيره تقلبات الزمن الذي يتحكم في دورة الانطباعات المتعاقبة، تمر الفصول جميعًا ولا يراها إلا متغيرات لا تتوقف، يتحسس بقايا وجودها ولا يحس بها، لم يبدِ أية معارضة محبوسة وامتعاض عندما يجد نفسه لم يتغير، كان بطيئًا كالسلحفاة في إقدامه، ثقيلاً كعذاباته، لقد أصبحت الحياة في كل الأحوال لديه طردية الشعور في بعض الأحيان وعكسية الإحساس في أحيان أخرى، لم تتجاوز الفهم الكامل من حركة الدوران المفروضة التي استسلم لها، نعم هي حركة دوران الأحداث التي استسلم لها بكل انصياع، كانت كالفصول أيضًا.

أطلق حسرة طويلة عبر النافذة، لقد بدأ الثلج ينزل كرات من القطن تلتصق بالأغصان، ترتمي بحذر على أعلى البيوت التي أضفى عليها الثلج طابعًا من البياضات التي ارتمت فوق السقوف وانتشرت بشكل سريع في المنطقة وهو يترقبها، لقد أخفى الثلج مساحات من العشب المصفر تحت الغطاء الشفاف الجديد، لم يرغب بالمكوث وقتًا طويلًا وهو يتتبع لفيفات الثلج الصغيرة التي ما إن تضرب بوجهه حتى تسيح

مسترخية على جسده الساخن، أحب أن يسير تحت الثلج، يستقبل أول بوادره، يلامسها بيده ويتركها تنزل على رأسه باسترخاء.

لبس قميصًا ذا أكمام طويلة وطاقية ومعطفًا، لم يعرف سر لهفته في السير على الثلج عندما نزل أسفل العمارة، مر على شقة السيد دارسون في طريقه ولم يسمع السمفونية الأربعين لموزارت أو يرى أية بوادر للحياة، ليس كعادته، دائمًا ما كان يسير في الممر يدفع بحمالة قلبه الحديدية، انتبه أنه لم يره منذ عدة أيام، لا بد أنه فارق الحياة من دون أن ينتبه له أحد، سوف تصرح رائحته العفنة عن موته بعد عدة أيام عندما لا يجدونه يسير وحيدًا في الممر، لكن أنور تجاهل بابه واتجه إلى الباب الرئيسي، سعل بكثرة قبل أن يخرج من الباب، لا حركة، لا أحد في هذا الليل، نظر إلى الأعلى، الثلج ينزل كحبيبات بيضاء.

١٥

في صباح اليوم الموعود، قبل أن يذهب إلى مطار مونتريال بساعات، رتب كل حاجياته في حقيبة سفر واحدة فقط، بعض القمصان والبنطلونات وملابسه الداخلية، كان مستعدًا منذ اليوم الأول الذي قرر فيه الرحيل والعودة إلى الوطن، صفّها بكل تأن، من بين حاجياته ودفاتره التي كان يحتفظ بها، اعترضه ظرف صغير كانت فيه بعض الأوراق القديمة والصور التي كانت مركونة ومنسية منذ زمن بعيد، كان من بينها رسالة قديمة من الأستاذ ماضي يصف بها حالتهم بعد فراقه عن مجموعة فندق المستعصم بالضربة القاسية، وجد من ضمن الرسائل كلمات من أشعار عبد العال الوردي العامية وورقة احتوت على بعض أرقام تليفونات لا يعرف ما هي أهمية الاحتفاظ بها إلى اليوم، تمعن في الصور الواحدة تلو الأخرى، صوره مع المجموعة في مدينة عمان، أصدقاء الوجع، استرجع بها تلك الأيام القاسية المريرة في الشتات والغربة، وبدت الشخوص أمام وجهه على بعد خطوات من ذاكرته البائسة، يتذكرهم الواحد تلو الآخر وفي القلب أشباه ضباب من حنين، عانقهم جميعًا بعناق مترهل وسلام رتيب، أرادوا أن يدفعوا به إلى خارج حزن السنين الذي لم يدع أي مجال للحنين، كانوا فرحين، ولكنهم لم يصرحوا عن ذلك، وحده شعور النفاذ المخلوط بالخوف، هو الذي اقتضى أن يكون

الجميع شبه مغيبين، لقد خرست كل الأفواه حين رأوا أنور يحمل حقيبته ويتجه وحده إلى المطار، كان في أشد حالات الحزن حين ودعهم في يوم سفره ولم يعلم أنه كان الوداع الأخير، سوف لن يرى أحدًا منهم بعد الآن.

تذكر أنورحين اجتاز الشارع وحده بخطى مترددة، كان ظلال المباني يرسم مساحات باردة على الطرقات التي ضجت بالناس، ظل واقفًا على الرصيف المواجه لفندق المستعصم دون أن تبدر منه أية حركة، ما زال موعد الطائرة بعيدًا، أربع ساعات تدنو منه بكل تروٍ، ظل واقفًا على الرصيف ولم يمد يده إلى أية سيارة أجرة، أمسك حقيبته بكل قوة ثم أفلتها على الأرض ثم حملها مرة أخرى وأسقطها، كان مترددًا، أحب أن يشغل نفسه بأي شيء ولو كان بغير أهمية، ما يزال موعد الطيارة بعيدًا، ندت إليه فكرة قتل الوقت في الذهاب إلى المقهى الذي دائمًا ما يرتاده.

خفقان قلبه أخذ ينبهه بصعوبة الموقف وتداعيات المرحلة القادمة إن هو أخفق في المطار وأمسكوه وبحوزته الجواز المزور، تنبه للجواز، مد يده يتحسس في جيبه، اطمأن عندما لامست يداه غلاف الجواز الذي قد يكون سببًا في تعاسته وخذلانه، وقد يكون سببًا في سعادته واستقراره، لم يكن جواز دولته ولم يكن اسمه الحقيقي، فقط هي الصورة التي استبدلت وألصقت من تحت البلاستك بإتقان، الأختام أيضًا والتواقيع كانت متقنة بشكل كبير، ولكن الخوف أخذ يدب في أوصاله.

تطلع يمينًا ويسارًا، أحس بجميع من حوله من المارة يعرفون قصته، أمسك حقيبته وعبر الشارع مرة أخرى، ولكن ليس باتجاه الفندق بل اتجه إلى حارة صغيرة وأخذ يسير بها بكل تأن، اقتادته قدماه إلى درج طويل يذهب به إلى الأعلى، لا يعلم إلى أين سوف تودي به هذه الدرجات، لكنه رغم ذلك باشر في الصعود درجة تلو درجة بكل هدوء، ولكن قبل أن يكمل وقف في المنتصف يتأمل وكأنه يقارن بين السقوط الحر أو إكمال الصعود القاسي، طرد فكرة إكمال الصعود والعودة من حيث أتى لكنه أراد أن يكمل، الارتباك مرة أخرى، كانت هنالك درجات متشعبة الاتجاهات لا يعلم إلى أين تودي، أراد أن يرتقي أحدها ويعبر إلى الطرف الآخر ثم يبحث عن طريق يودي به إلى المقهى الذي دائمًا ما يجلس به، ولكن في لحظة هي أشبه بالحيرة استوقفه صوت أتاه من أحد أفرع الحارة يناديه باسمه (أنور) ، لم يلتفت بسرعة في بداية الأمر، لقد أحب أن يتأكد بأن النداء يعنيه وحده رغم تأكده بأنه سمع اسمه الصريح، ولكن ما أن خطى خطوات بسيطة إلى الأعلى متجاهلًا الصوت الذي عاد بنفس الحدة وأخذ يأمره بالوقوف، حينها، التفت إلى الخلف ليجد حسين طاهر القارورة يتجه نحوه وهو يرسم ابتسامة على وجهه ويقول: (وين رايح ...چنت تضن اني أتركك لوحدك) ، كان أنور فرحًا جدًا بوجوده، لكنه أحب أن يتصنع الغضب عندما تركه وحده واقفًا وأخذ يسير في الاتجاه المعاكس وهو يقول: (خرعتني)، لكن حسين لحق به وأمسكه من يده وقال له: (تعال وياي، بعد وقت ع السفر).

من دون أن يتكلم، أخذ حسين يشده معه إلى درج آخر بعيد، عندما صعداه أودى بهم إلى باب لبيت في آخر الممر، لم يطرق حسين الباب حين وصلاه بل دفعه بيده واتجها معًا إلى الداخل، كانت هناك باحة غير واسعة تلتف حولها غرفتان في المقدمة، وغرفة واحدة في الزاوية أشبه بالصالة، أسدل عليها سجادة ثقيلة من الصوف، حين أزاحها وجدا نفسيهما في صالة بدت مساحتها أكبر من مساحة البيت كله، تحمل رائحة الينسون وأعشابًا مخلوطة ورائحة خل التفاح، لكنها كانت نظيفة جدًا ومرتبة على الطراز الشرقي، أضواؤها الخافتة تنذر بالراحة والفرح والطمأنينة برغم الألوان المتعددة المربكة واللوحات الكثيرة التي غطت الجدران.

تنبه أنور إلى وجود امرأة سمينة كانت تتربع على كنبة عريضة تقلب جمر أرجيلة أمامها بملقط صغير، حين ألقى حسين عليها التحية ردت عليه من دون أن تبدي أية ردة فعل وكأن وجودهم لا يعنيها، سحبت نفسًا طويلًا من خرطوم طويل، ملأت صدرها بالدخان، حسب أنور أنه سيخرج من أذنيها وشعر رأسها وأبطيها، ما لبثت أن نفخته عاليًا في جو الغرفة التي امتلأت بالدخان مضيفة إلى المكان رهبة وطعمًا آخر، لم تبادر المرأة بأية كلمة حين جلسا قبالتها بل تطلعت بهما بعينين فاضحتين، وأكملت شد الأنفاس، لم تمض إلا دقائق حتى فض سكون الصالة صوت فتاة بدا عليها في الثلاثين من العمر، كان صوتها كرنين أساور من معدن رخيص حين أقبلت وحيتهم، لم

تخلُ من جمال مقبول، طغى على وجهها ذي السحنة السمراء مسحة من ذبول، دخلت عليهم بخطوات هادئة وهي تتمايل بجسد مفتول، تجاهلت وجودهما عمدًا وجلست في القرب من المرأة البدينة التي لم تتغير ردة فعلها عندما سحبت الفتاة منها الخرطوم وأخذت تسحب الدخان بكل هدوء.

مضى المشهد دون أية كلمة تذكر، لكن حسين أشار إلى الفتاة بحركة من رأسه عرفت هي مغزاها، رفعت يدها نحوه وحركت أصابعها بإشارة منها للنقود، حينها بادرها حسين بردة فعل ملتزمة بأن ضرب بكفه على صدره، بعدها قامت واتجهت إلى الباب بنفس الخطوات الهادئة الدلوعة، لم تكتمل دهشة أنور أكثر من هذا المشهد الصامت إلا حينما لكزه حسين بكوعه في إشارة موحية للخروج خلف الفتاة، وكأنه أراد أن يكسر طقوس الصمت التي حفتهم بشكل غريب، لكن أنور قال بصوت خفيف لم يخلُ من العصبية: (وين؟) حينها أخذ حسين يتطلع في وجهه وهو يصك بأسنانه على بعضهما ويقول: (لك روح وراها) .

كانت تتمدد على سرير ضيق حين دخل أنور غرفتها، أفصحت عن رجلين مكتنزين ونصف من صدرها البارز، وجد من الغريب أن يكون هنالك هذا الكم الهائل من الصور التي توحي بالثورية من خلال ما رآه من صور معلقة لشخوص أهم ما بهم جيفارا ونلسون مانديلا وياسر عرفاتوصدام حسين ، عندما جلس على طرف السرير

قرب قدميها، وجد أنها تنظر إليه بعيني استغراب حين لم يقدم عليها كبقية الرجال الذين حين يروها على هذه الهيئة المغرية ينقضون على جسدها باندفاع، لم ترد الفتاة أن يطول الأمر كثيرًا، اتجهت نحوه تريد أن تخلع عنه قميصه، لكن أنور التفت نحوها وقال بصوت ربما لم تسمعه: (أني ما اريد من الشي اللي يدور ببالك) ، لكنها اقتربت نحوه أكثر وأخذت تطوق رقبته بيدها التي رسم عليها وشمًا ليد تقبض على جمر، أرادت أن تسحبه نحوها، فما كان من أنور إلا أنه انتفض وابتعد عنها ثم وقف أمامها كما المحتج مما دعاها إلى أن تقف هي الأخرى وتهم بالخروج، لكن أنور أمسكها من يدها واستوقفها بكل لطافة وقال بكل هدوء: (أحچيلي وراح ادفعلك)، مما دعاها بأن تقول له (شو مالك .. أنت أجدب).

لم تصرح عن حكايتها الصريحة إلا بعد أن تنهدت، قالت إنها كانت أول مولود لأبوين هُجرا من قريتهما التي تبعد عن مدينة القدس أكثر من عشرات الكيلو مترات وأتوا إلى الأردن، سكنوا المخيمات، كبرت بسرعة البرق وكأن كل شيء كان مهيأ لها منذ زمن بعيد، كبر نهداها وأصبحا كقباب مدن العشق المجنونة ونمت مفاتنها وكأنها تحذو حذو الحضارات العريقة، لكنها حين فقدت الأبوين في ظروف غامضة بعد أيلول الأسود، أصبحت وحيدة لا تجد من يتقبلها بقبول حسن، فالكل كان من حولها يطمع بهذا الكنز الذي يمشي على الأرض، لم تجد غير هذه المرأة السمينة التي آوتها

وأشارت بيدها نحو الصالة، لقد اكتشفت تلك المرأة مواهبها الجديدة التي من ضمنها الرقص والتلاعب بالأهواء بشكل يضمن لها الزبائن إلى أمد بعيد، رغما عنها أخذت تُدخل عليها الرجال من الأبواب التي أشرعتها للثراء ولم ترحم دموعها وصرخاتها التي لم تسمعها سوى الجدران .

عندما أخذت تبوح لأنور عن أيام القسوة والعذاب والتشرد، أخذ صوتها يتغير ولم يعد له ذلك الرنين الذي أحب أن يسمعه، قبل أن تعود وتتمدد على السرير، أكملت فصلًا أخيرًا من مسرحية يبدو أنها كانت قد تعودت أن تلقي حوارها كل يوم بنفس الحركات اللينة، أرادت أن تسترسل، لكنها لم تكمل الحكاية بعد أن تنبهت إلى أن هناك أصوات تتعالى من الخارج، فقد بدأ لغط يتعالى ويدنو منهما حتى كاد أن يفتح عليهما الباب، ما هي إلا لحظات حتى داهم حسين الغرفة وسحب أنور من يده بقوة واتجه به إلى باب ضيق في طرف الغرفة، ومنها إلى ممر أودى بهم إلى الشارع مرة أخرى ، قال حسين طاهر القارورة وهو يستعجل أنور (شلون حظ اخو گحبه ، چانت الشرطه).

****

الطريق إلى مطار مونتريال ما زال به نوع من نور، ساعة واحدة هي كل الوقت الذي تبقى له في كندا، ودعت عيناه آخر الأراضي والسفوح المخضرة وبياضات الثلج

الخجولة، ودع أيضًا قلبه وحبه لهذه البقعة من الأرض، قصة من أحلامه التي لم تكتمل وقصة تركها في ظلمة جنائزية في الذاكرة، سوف يترك عالم كندا إلى الأبد ومن غير رجعة وهو ذاهب في طريقه إلى الوطن الموعود، سوف يعود إلى الشرق الجديد الملتهب الذي يبعده عن عالم كانت الرتابة فيه تصنع منه جسدًا مسالمًا، سوف يعود إلى بلد غير مسالم، لقد مر على ذاكرة أنور وهو في طريقه إلى المطار شخص غسان السوري من غير سابق إنذار، كان قد ودعه قبل أن يسافر ويعود إلى بلده، انعكست الأحداث على وجهه انعكاسًا مقيتًا بعد أن بدأت الحرب في سوريا ، انطوى على نفسه ولم يكلم أحدًا أبدًا، مع مرور الأيام بدت ترتسم على وجهه علامات من التجهم المبالغ بها ولحية أطلقها بكل إهمال بعد الأحداث الدامية التي حدثت في الشام.

من لم يعرف غسان لا يصدق أنه وصل إلى هذه المرحلة في الفكر والتطرف، كان نشيطًا مرحًا، يضحك كثيرًا ويحزن قليلاً، ولكنه بعد أن سمع أنهم اقتادوا أخواته الثلاث إلى طريق مجهول وأحرقوا البيت، لم يحدد من هي الجهة التي فعلت ذلك، ، لقد تشكلت الفصائل الكثيرة بسرعة قياسية ،كانت ردة الفعل واضحة لا تحتاج أي تبرير، لم يدخر الحلول والنتائج عند نهاية الحروب، كان غاضبًا جدًا وهو يطلق عقله للانتقام، ولكن من من ؟ ،في أي جهة يحارب ، لقد تشابكت الاحداث والقوى ولم

احد يعرف من هو الذي على حق ،لاذ بصمت أشبه بالاستسلام للمصير لأيام عديدة وأصبح وجهه يضيق بالحزن والهموم، أخذ يحزن كثيرًا ولا يضحك، لم يكن أمامه سوى نافذة تطل على منظر من نواح وبكاء أشباح تقترب منه رويدًا رويدًا حتى تكاد تخنقه حرقة وغصة في النفس عميقة، أراد أن ينتقم ويسحق الدنيا وما فيها وينذر جسده وروحه للمجهول من أجل استرداد ولو القليل من قناعاته وكرامته، فقد أدرك أنهم قتلوه بلا طلقة رصاص واحدة، بات يتخبط بين سرب من اللاوعي فلم يعلم إلى أي جهة ينحاز وإلى أي فصيل ينضم، فقط أراد أن يفرغ كل غضبه وإن كلف ذلك روحه التي قد خرجت من جسده حين ارتحل عن وطنه.

كان العراق غير بعيد عن كل الأحداث التي وقعت في تلك المنطقة ، كان محور قلق العالم وموطن التقاء التضاد والتنافر والتناحر، وأيضًا موطن النهايات الحاسمة التي تنبعث منها رائحة الموت، كانت كل الدلائل المثيرة تشير إلى أن هناك ثمة من يتطاول على الحريات، ولا بد له من رادع، لقد أراد الغرب أن يغير نظم خارطة الشرق الرجعي ويرتب أولويات جديدة لم تكن في الحسبان، لذلك رتب كل هذه الأخطاء التاريخية بشكل متقن في دولة العراق الجديد، واندفع من اجل ترسيخ الديمقراطية المعلبة عبر حدود العقيدة.

حرب التحرير لم تكن أقل رعونة من يباس الدم على أرض الشتات، عندما كان الجيش الأمريكي يتقدم كالأفعى من جهة جحر الشيطان، أخذ يواصل تقدمه إلى مدينة السندباد بكل راحة، لم يوقفه أحد؛ لأن الجميع أراد أن يتخلص من ذلك الرئيس الذي جثم على الصدور ردحًا من الزمن، يقتل ويدمر الوطن من دون أي رادع، كان الشعب على استعداد على أن يتعاون مع الشيطان من أجل إزاحة ذلك الديكتاتور صدام حسين، لذلك كان الجيش الأمريكي هو أنسب شيطان يعتمد عليه في تلك الفترة، جاؤوا يحملون معهم جنة من الخراب للعاجزين الذين عجزوا عن تغيير وضعهم، فتحوا ضوءًا شحيحًا لأطراف حدود غير شرعية في الظلمة، وجلبوا معهم رغيفًا ممزوجًا بالدم، ومن خلف دباباتهم أتوا باللصوص الجدد الذين أخذوا يتصارعون فيما بينهم على حكم الدولة الناشئة في غبطة مرعبة،حتى يزداد العراق دمارا ، أخذوا يقطفون بكل شراهة من البستان ثمارًا غير ناضجة، أكل نصفها الدود.

عندما تهاوى تمثال العذاب في بغداد، بنوا على المنصة تماثيلَ عديدة على نفس المنهج والشاكله التي ما زالت طرية في الأذهان، لم يرسموا مفترق الطرق الذي تتضاءل حوله الجهات، أطلقوا الذئاب على الراعي البليد الذي ارتضى أن يسرح بقطعان أغنامه بعيدًا في الصحراء، وضعوا أشباه الإنسان في زاوية ضيقة من عملية حسابية، وحسموا النتائج إلى أمرين، إما توابيت محشوة بالقنابل يزفها حقد الشمال

الذي يريد أن يستعيد أمجاد السطوة والظلم والعذاب، وإما أن يحفروا قبورًا في الجنوب يدفنون بها العقول التي أخذت تتبع الموروث على أنه لب الحقيقة، يحشون الرؤوس بمعتقدات بالية ومسامير من التواطؤ يسمرون بها تابوت الحقيقة، ولم تعد المواقف والعهود عند الأحرار مرهونة بالتبعية الخالصة لأشخاص بنو حولهم قداسة لا تمس وأكذوبة اقترفوها على مريديهم بعد أن بانت ملامحهم من خلف عمامة من الجهل والتخلف تأتي من خارج الحدود،وفي كل الأحوال عمدوا جميعهم على زج الأجساد المتهالكة نحو معارك خاسرة أخرى أشد ما يمزيها خراب شامل بين أبناء الوطن الواحد ، كان الرابح الأوحد بها هو ذلك الجاحد الذي تفانى في دمار الوطن من اجل إعمار الأفكار السوداء التي أتت من جهة الشرق تتبعها الرايات السوداء .

عندما وصل أنور إلى المطار تذكر البوابة التي دخل من خلالها أول مرة إلى عالم كندا، هي ذاتها البوابة الزجاجية العريضة التي عكست صورته وهو يقف أمامها الآن، كان الانعكاس أشد قسوة من الزمن الذي مر عليه كاللحظات، اختزل كل أيامه وذكرياته ووجوده في لحظات، حسب أنه لم يدخل إلى الخارج ولم يخرج إلى الداخل، وقف طويلًا يفكر قبل أن يدلف إلى داخل المطار ويجلس في انتظار البوابة الأخيرة التي منها سوف يدخل إلى الطائرة في رحلة العودة إلى الوطن بعد أن أنهى جميع الإجراءات وانتظر غير بعيد عن مدخل البوابة، استعد كأول واحد يدخل في الخرطوم

المؤدي إلى باب الطائرة، أخذ يقلب في صفحات جوازه الفارغة، فتح على صفحة المعلومات، رأى صورته الحقيقية ومعلوماته التي تدل على شخصيته، تذكر يومها حين جلس نفس الجلسة مترددًا خائفًا عند باب الطائرة المتجهة نحو مطار مونتريال الكندي، كان قد حمل بيده جوازًا سعوديًا لا يمت لشخصيته بأية صلة، وصورة له في أعلى الصفحة يلبس بها اليشماغ والعقال، وجهه كان بالألوان الطبيعية التي لم تعكس لونه الشاحب الذي بدا بلوني الأسود والأبيض فقط.

تذكر أنه كان بالأمس هناك في مدينة بروكسل حين جاء موعد سفره، هي ذاتها نفس النسمات التي أخذ يستنشقها، نفس الليل القاتم، لقدأخذ قلبه يدق بتسارع مستمر، توقفت قدماه عن الحركة كما لو أنهما ربطتا بالأرضية المصقولة، سوف يكون يومًا قاسيًا إن أمسكوا به واكتشفوا زيف الجواز الذي لا يمت له بصلة سوى صورته التي بدت مختلفة هي الأخرى، ستكون لحظات عصيبة عندما يتفرس موظف الجوازات في وجهه، ويكتشف كل شيء من خلال ارتباكه، سوف يسجن ويُرحل إلى العراق حيث الموت ينتظره هناك، ولكن أنور تشجع حين رنت كلمات المزور البغدادي في أذنيه (ما راح أحد يكشفك حتى الجني البنفسجي) حينها اتجه نحو موقع الخطوط الجوية الذي لم تتأخر إجراءاته ، بعدها أتجه الى احدى الكابينات وأسلم جوازه إلى موظف الجوازات عبر نافذة صغيرة قبل أن يتظاهر بالثبات، كانت لحظات حاسمة، إما أن

يختم الموظف على ذاكرة الأمس ويقلع إلى كندا أو يختم على قرار موته المحدق من البعيد، لقد مضت لحظات من الترقب والخوف قبل أن يمد له الموظف مرة أخرى الجواز مع البورد الذي وضعه في المنتصف من دون أية كلمة.

قبل أن تقلع طائرة العودة ، كان أنور يجلس في مكانه قرب النافذة، حين التفت إلى ساحة المطار الواسعة رأى شخوصًا يصطفون ويلوحون له بأيديهم، روزي والسيدة ثريا وكردينوس الطباخ، على مبعدة منهم رأى ايضًا كوزموس المذنب وجون العاشق ودميتري الذي لا يحمل لقبًا إلى الآن، السيد دارسون خرج من التابوت الذي حوى جسده المتعفن، لقد كان وجهه أشبه بجلد متشقق، اصطفوا صفًا واحدًا وبصوت واحد قالوا له جميعا : (تودعك كندا) ، لكنه رأى راشيل على تلة بعيدة تلوح له بيدها من البعيد وهي تلبس الجاكيت الأحمر الطويل، تطاير شعرها الأصفر في الهواء ، وابتسامة بين الحزن والسعادة ترتسم على محياها ، وداعًا راشيل، وداعًا أيها الوهم، كان سعيدًا بمرارة سنين جهله بها، لم يبق من ذكراها سوى حقيبة محشوة بالمواقف والذكريات في وجدانه ، كانت شاهدًا على ضياعه، لقد كسر أنور كل أشياءها التي لا تهم أحدًا سواه ، وأطلق وجودها في مهب الريح واستبقى لديه في الصدر غصة ومرض خبيث.

سماؤه الجديدة التي رآها عبر نافذة الطائرة ملبدة بالشحوب و برغبة عفوية مؤقتة تحاول ازاحة بواطن نفسه العميقة بالانكسار وادراجها بدفاتر خط بها سماحة السلام

وتطابقات الرضا على رابية نصفها ذكرى تعنيه ونصفها الآخر يترقب عودة الروح الى سابق عهدها، لاتزال الصور التي تظهر بالمرايا تخاطبه وتنتظر اكتمال ذكرى إنسان لم يعد يهذي بالمدى فقد اصبح الصمت اصدق انباء من كل الكلمات ، سوف يتقدم نحو القادم بخُطوات ثابته وعيون تسْبق النهار لتوقض أنفاس وطن بداخله .

حين أقلعت الطائرة أقلعت معها ذكرياته واتجهت إلى سماء أخرى، كان ينظر إلى الغيم المتراكم الذي حلقت فوقه الطائرة عبر النافذة، وهو يتذكر رحلته حين أقلعت طائرته من مطار بروكسل متجهة إلى كندا، كانت محملة بالأمل ، كأنه يراها تطير حقيقة أمامه تتجه بشكل عكسي إلى مطار مونتريال، لقد تعاقبت الطائرتين في زمن أشبه باللحظات ، الأولى ذاهبة والأخرى عائدة ، لقد رأى نفسه جالسًا قرب النافذة يلوح له من البعيد، رأى وجهه الذي لم يتغير برغم السنين ، تبسم أنور وأخرج يده على استحياء وأخذ يلوح لوجهه المبتسم الآخر في الطائرة الأخرى ، لقد حدث تعاقب أشبه بتعاقب الذكريات، تبادل الأزمنة والأيام ، كانت لحظات تَبين بها أن المسافات التي لا يفصلها الزمن الميت قد تعود إلى الحياة في لحظات شفافة حين تكون ذكرياتها حية في داخل الإنسان، كانت حقيقة وجوده أقرب بكثير مما تصور أنور، لقد دخل من باب وسوف يخرج من باب آخر، ما بين البابين هي رحلة حياة الوهم التي ما هي إلا تفاصيل عديدة ومتزاحمة كانت بها الأيام والساعات مهدورة تأكل من عمر الإنسان الذي لا

يحمل معه خلال سنين عمره سوى بضع أيام معدودة، هي أيام السعادة التي يظنها حقيقية، وداعًا أيتها السعادة.

١٦

من غير سابق إنذار، بزغت الشمس فجأة عندما غادر أنور أرض مطار بغداد، كان الوقت صباحًا، تنفس هواء بغداد الثقيل وارتمى في سيارة الأجرة ، مساحات من الطين المتباعدة بدت كأنها مدهونة بصبغة من السواد على جانبي الطريق السريع المؤدي إلى أول أطراف العاصمة، أكياس البلاستك وقناني الماء الفارغة ينعكس عليها ضوء الشمس فيجعلها تتلألأ، لم يكن يتوقع أن تكون المدينه على هذه الدرجة من السوء ، القمامة والأوساخ المتناثرة بعشوائية تضيف انقباضات في الصدر على شكل ندبة تتسع وتنتفخ ما تلبث أن تنفجر ويخرج منها قيحًا أصفر مخضرًا كمياه الدروب الراكدة، الذي زاد الأمر سوءًا، تلك القوالب الإسمنتية الطولانية التي تحاصر المباني من كل مكان في محاولة لحفظ الأجساد المتبقية من الانفجارات، أسلاك الكهرباء تتشابك كخيوط عنكبوت وتلف البيوت المتكسرة وشبه المردومة، بيوت عشوائية مهملة وازدحامات خانقة في الشوارع المتكسرة، عندما وصلوا إلى قلب المدينة، كانت هناك حشود من البشر أشبه بالسكارى ينتشرون في كل مكان، يسيرون بلا انتظام، دخان خانق وأصوات الأبواق المزعجة، هكذا هي مدينة بغداد اليوم بعد التحرير كمدينة الرعب بالأمس، منذ زمن أول الحروب إلى اليوم، ما زالت على وتيرة

الدمار إلى اليوم، وكأن كل من حكمها يقصد تدميرها، مدينة بقيت في ذاكرة خمسينيات القرن الماضي ولم تبرحه.

هنا بغداد، من كان على مشارف حكايات النشور فلينهل من ضيائها ألف ألف نور، كانت في السابق تحمل أسفار الفكر حين أتاها المهاجرون من كل صوب يطلبون الدفء والماء والاستقرار، كانت تهيئ لها مكانًا للغد في ذاكرة الأجيال لتجعله في أعلى بروج الحضارات، هنا العطر والأحلام وهنا حكايات السندباد، هنا سيرة الأولين والآخرين ومنبع النور والرشاد، هنا بغداد، تنتظر رسولاً ينبئها أنها على قيد السلام، يرجع لها الاعتقاد بولادة نبت متجدد في طين الأرض المتيبس ولا تتعثر أحلامها مرة أخرى بكثبان الضياع ، فقد نام التاريخ على مشارف المدينة، سنعثر عليه إن تجاوزنا بزوغ الدول المعلبة التي أنتجت أشباه دويلات تتطاول على الحضارات الراسخة، كان لا بد للمدينة أن تتجه إلى بناء صرحها الذي يجب أن تكون من الأولويات، تخوض غمار الوجود في حزم واتساع برغم السواعد التي أرادت الإطاحة بها اليوم، السلطة الجديدة القادمة من المحطات الخاوية ومن دكات المساجد ومن خرائب الذباب، ومن الأنفاق والمستنقعات والقادمين من الشتات، دمرتها كل هذه الشخوص بكل صلافة وجحود وعن قصد، خبأوا تفاصيلها في مخازن المكتبات التي لا أحد يقرأ بها وأحكموا إغلاق الأبواب، لقد قتلوها وأخذوا يقيمون وليمة العزاء للمدينة بكل صلافة

وتبجح وأصبح صوت المدينة يضيع بين احتدام المعارك الخاسرة وضجيج زيف الاعتقاد المزور .

منذ وقت بعيد ، حكم هذه الأرض الغرباء ، فتحت الأبواب على مصراعيها للطموح والإنفلات ، أقحمت أفكارهم الموهومة وقتًا من الزمن حتى تحولت بعد ذلك إلى إصرار شخصي على بلوغ السلطة والمنافسة على اقتناص الثروات ، لقد رسموا المستقبل المشوه منذ البداية، منذ أن أتوا بالملك فيصل الأول مطرودًا من الصحراء الى مدينة بغداد بعد أن أخرجوه من قمقم مصباح بريطانيا، اقتطعوا له أرضًا لا تنتمي إليه ولا ينتمي إليها، نصبوه ملكًا على العراق عبر مخطط بغيض بدأ معه عهد جديد أشبه بالهجين، كان مجرد شخص يلبس اللباس العربي تحيط به حاشية من العساكر البريطانيين، حين تدرجت المواقف التي أصبحت تقاضيًا من تراض وتواد زائف بين حكومة مفروضة وشعب محتل أخذت منه سنوات القطيعة بين البداوة والحضارة تأخذ منحى آخر نحو الهاوية لولا ثورة العشرين التي صرحت عن وجه آخر للاحتلال .

عندما وصل أنور إلى كراج موقف السيارات، صعد أقرب حافلة كادت أن تمتلئ، رمى نفسه على كرسي قرب النافذة وألحق حقيبته بسقف فوقه، بدأت الحافلة في التحرك عبر الطرقات المزدحمة حتى اجتازت المركبات واتجهت عبر الطريق السريع نحو مدينة الناصرية، أخذ أنور يتطلع عبر النافذة إلى الخارج، يبحث عن أي شيء متغير،

لا شيء تغير منذ ذلك الزمن البعيد، تذكر عندما خرج من السجن وركب الحافلة متجهًا نحو مدينته الناصرية في ذلك الزمن البعيد، كان كل شيء على نفس مواصفات الأمس لم يتغير، أخذ أنور يرى الخراب كلما تعمق نحو الجنوب، مساحات من الصحاري ازدادت قساوة وقرى متناثرة على طول الطريق، البيوت ما تزال صامدة منذ عهد بعيد وأشجار متكسرة تتقاسمها الأرض في مناطق جرداء متباعدة، ندت منه حسرة طويلة وهو يقارن ما بين الأمس واليوم، أخذ يقول في نفسه لا شيء تغير، ما زال الوطن لم يستوعب حجم الدمار الذي ألم به.

لقد مرت السنون على أنور مضنية في الزمن الغابر وهو يتذكر البعثيون،الذين جائوا من خلف الصحراء بشهية حاقدة ليحكموا المدنية والحضارة، هدموا جنائن بابل وألواح حمورابي وأودعوا جلجامش السجن، كسروا قلم المتنبي وقذفوا بطاقية الجواهري إلى خارج سور الوطن، وكأنهم يثأرون للجهل والتخلف، ثلة من الحفاة كانوا يعدون خلف الدواب، أغلقوا عليهم أبواب الوطن وأوصدوها رغما من الشعب المنهك، بنوا حولهم سورًا من الجماجم والعظام وألقوا السلام خلف السور، لقد أصبح الوطن في ذلك الوقت فلم رعب يشاهده بقية الحلفاء على نحو من الطمأنينة وإرضاء الذات، حجبوا الشمس بالصور والشعارات وجعلوه حظيرة من الحقد والكراهية والاستعلاء غير المنطقي، يلهون الأجساد بالحروب والموت وهم يتشدقون

بمقولة غير منطقية لن ولم تتطبق أبدًا، أمة عربية زائفة ذات دماء وارفة، بعدها أصبح الوطن مجرد تمثالٍ وصورة ، الى ان اتو الغرباء الجدد الذين زرعوا الأضداد في النفوس وحصدوا أضداد الأضداد، أيقظوا تمثال كهرمانة التي أخذت تصب نفط الوطن على الأربعين حرامي، تقاسموا أوجاع الحشود المترقبة، تنافسوا، تقاتلوا، تناحروا، أخذوا يتراقصون على الأوجاع وهم يفتحون البوابة الشرقية على مصراعيها للعدو الأزلي .

****

مدينة الناصرية في هذا اليوم كحالها بالأمس، لم تبعد عن حنينه سوى بضع كيلو مترات، مدينة تعمدوا نسيانها، ركنوها في الطرف الأبعد من الذاكرة وتركوها على برك من السيان والقاذورات عمدًا وبسبق الإصرار، ولم يشف غليلهم ذلك بل عمدوا على فصلها عن الذات ولب التاريخ العريق وزجوا بقطعان من أشباح الليل المجهولة من كل صوب وحدب على بقايا المدينة، جاء النازحون من جميع الأجناس والملل وأخذوا يتصارعون على اثبات الهوية، لقد أتى النازحون الجدد من القرى البعيدة على مطاياهم التي بدلوها بسيارات فارهة، وأخذوا يبنون بيوتًا أكبر وأضخم من زقورة سومر، لقد جاء القادمون الجدد من الأرياف وأخذوا يحكمون المدينة التي اكتفت بالدفاع عن نفسها.

استقبلته المدينة من دون أن تطلب الهوية، كأنها تجيز بشكل فاضح ولوج الغرباء برحم الشوارع، كان هو على موعد مع التاريخ، يراها من البعيد تتنفس على كل ذرة تراب من أرضها التي حملت أول الحضارات والأبجدية والقانون، وكأن صهيل الخيول وغبارها وعنفوانها يسمع بالأفق منذ فجر التاريخ إلى يوم معركة ذي قار ضد الفرس وإلى أن دحر آخر معاقل السعدون الذين حكموا بعنجهية هذه الأرض بعد ثورة العشائر العربية الكبيرة وأزيح عن كاهلها كابوسٌ كان لا يفارق الأجداد الذين نحتوا تمثال محمد سعيد الحبوبي ونصبوه بمركز المدينة شاهدًا على تفاني الشعب الحر.

استقل أنور سيارة التكسي بعد أن وصل إلى مركز المدينة، أخذ ينظر عبر النافذة إلى الشوارع والبيوت والأسواق والجموع التي تتزاحم في أماكن متفاوتة وهو في طريقه الى البيت، لم يتغير شيء سوى بعض السيارات الحديثة وبعض البيوت الناشئة على الطراز الحديث، انحدرت بهم السيارة نحو طريق آخر ضيق وهم يتوجهون إلى أطراف المدينة، بعدها سارت بهم متوجهة عبر طريق طيني متعرج عبروا من خلاله بيوتًا كانت قيد الإنشاء، كان الغبار المتطاير أشبه بالسحاب في جو ساخن، لقد سار السائق متذمرًا حتى وصل إلى حد يصعب به إكمال مسير السيارة، فقد كانت هناك برك من مسطحات مائية مهملة وأوساخ وطرق غير معبدة انتشرت حولها البيوت العشوائية في ساحات طينية توزعت حولها بيوت بنيت من التنك وصفائح الحديد على الأطراف.

الصيف الدائم يعبث بالنسمات، يبسطها حينًا ويقبضها كلما أراد أن يسمع أصوات تذمر الأهالي وهم يتطافرون خارج البيوت، نساء وأطفال يتخبطون في الدروب المتعرجة، أخذوا يتطلعون بعيون مستغربة بوجه أنور الغريب الذي أخذ يقطع الطريق المؤدي إلى بيت في نهاية الدروب الطينية بخطوات سريعة، أحس بأنه بدا غريبًا بين الغرباء ، لقد بانت ملامح بيته وهو يقف فوق الصعيد السنامي الذي وقف فوقه أول مرة يتأمل بعد أن خرج من السجن في ذلك الوقت، كان يقبع بعيدًا عن باقي البيوت، أخذ أنور ينظر إليه من البعيد وكأنه أشبه بصخرة مربعة سقطت سهوًا من السماء، لم تغير الرياح والحرارة والأمطار من شكله شيئًا، سبقه الحنين قبل أن تسبقه قدماه وهو ينحدر من أسفل التلة ويتجه نحوه بلهفة ثم يقف عند بابه، أجال ناظريه في المكان قبل أن يدلف إلى الداخل، أخذ يتطلع في النخيل والبستان، تنفس ماضي الطفولة والشباب وأحب أن يحتضن طيف الشخوص والأصوات في وجدانه، أتاه صوت زوجته أمينة وابنته صباح وهي تنادي عليه، رأى طيف أبيه وهو يحرث الأرض وأمه التي كانت تخبز في تنور الطين، كان يريد أن يطرد عنه كل الذكريات ويدخل إلى البيت، لكنه حين رأى الشجرة التي أعدموا تحتها أخاه نوار انتابه الأسى والحزن، أشاح برأسه نحو الباب ودفعه إلى الداخل.

الغرف الثلاث باقية على حالها وشجرة الصفصاف التي كانت تتدلى منها أرجوحة ابنته صباح ما زالت قائمة، الحب الذي يحتفظ بالماء ما زال موجودًا، ولكن بلا ماء، أحب أن يستعيد الذكريات، لكنه حين التفت إلى ساحة البيت كان هناك مبنى آخر في الوسط، مبنى حديث لم يكن موجودًا في السابق، لا بد أن أباه قد عاد وبناه، عبر ممرًا واسعًا عندما توجه نحوه إلى أن وصل إلى بابه الوحيد الذي أسدلت عليه ستارة من الصوف خشنة، كانت هناك أصوات تخرج من الداخل ،عندما أزاحها أخذ يشم رائحة البخور الياوني وهو يخطو خطوات متوجسة في الداخل، كان عبارة عن غرفة واحدة واسعة شبه مظلمة وغير مطلية بلون معين، كانت الأضواء شحيحة، علق على قسم كبير من جدرانها صور باهتة وقطع من القماش الأخضر ممتدة كالستارة، وفي الوسط مبنى صغير لضريح من الطابوق بني حوله سور حديدي مربع أشبه بقضبان السجون، تنتشر حوله نساء يجلسن دون انتظام وأخريات يطفن حوله بأهازيج وبكاء وعويل ويرمين بفئات نقدية بداخل السور وصرر خضراء من وراء شباك بدا وقد أضيئت حوله الشموع وتطاير منه الدخان.

(شنو هاي ؟) ، قالها أنور بصوت حاد تنبه إليه الموجودون، وتطلعت به الأعين باستغراب شديد، كان الكل صامتًا لم يقل شيئًا، مضت لحظات من السكون أشبه بالصدمة المباغتة، لكنه استدار واتجه إلى باحة البيت الخلفية، ما أن وصل رأى القبور

الأربعة على حالها لم تتغير شواهدها، قربهم كان هناك حفرة مستطيلة عبارة عن قبر فارغ لم يسكنه أحد بعد، تساءل في نفسه عن ذلك القبر الخاوي، كيف لم يفطن لذلك، لا بد أن يكون أبيه على قيد الحياة ، والا لكان في هذه الحفرة جسده .

عندما أراد أن يعود مرة أخرى إلى الغرفة التي كان في بها الضريح، اصطدم جسده بجسد رجل كأنه الصخرة، حين تنبه له كانت صدمته أقرب إلى الذهول وهو يرى طاهر القارورة أمامه، لقد شاخ كثيرًا وأصبح كالرجل المسن الذي يصرح وجهه عن قسمات قاسية بدت كشوارع المدينة الإسفلتية وشعر كثيف يغزو كل جزء في وجهه، بدا أن عكازه لم يقو على حمله من شدة ضخامته ، ضمه طاهرالى صدره بحرارة وأخذ يقبله ثم قبض على رسغ أنور، سحبه واتجه به إلى غرفة جانبية كانت تخرج منها رائحة الكافور وروائح أشبه بخشب الصندل المتعفن، أجلسه على سرير حديدي في مقابل صندوق خشبي كان مفتوحًا، خرجت من داخله خرق من قماش أخضر أشبه بذيول السحالي مع أسلاك وأكياس بلاستيكية محشوة بخيوط بدت كأنه تخرج من بطن بقرة متفسخة، ضمها طاهر جميعها إلى داخل الصندوق وأطبق عليها بابًا أصدر صوتًا مزعجًا مع بعض الغبار، ثم جلس فوقه وهو يلهث، بعدها قال بأنفاس متسارعة ومتقطعة:

ـ الحمد لله على سلامتك أنور.

أخذ طاهر القارورة يلهث قبل أن يتفوه بأية كلمات إضافية، أراد أن يرد على كل التساؤلات الملحة التي رآها بعيني أنور بطريقة أحب أن تكون هادئة، لقد عانى من ضبط كل تفاعلات وجهه، كان على هيئة من الإهمال واضحة، الشعر المنكوش الذي لم تخف منه الطاقية السوداء المحبوكة من الصوف الكثير، تكتلات من الشعر متناثرة على أجزاء من وجهه، لحية غير متناسقة، عينان غائرتان لا تكادان تبينان من خلف حاجبين غليظين، بطنه المنفوخة كأنها لا تمت بصلة لجسده الذي بدت عليه تكتلات من لحوم كأنها لأجناس حيوانات متفرقة، لكنه أحب ألا يصدم أنور بما سوف يقول، حاول أن يمهد حديثه بشيء من اللين حين قال بكلمات مباشرة:

ـ راح أكلك شنو اللي صار بعد ما رحت.

حديثه لم يوح بالصدق وإن صدق، أشد ما كان يزعج طاهر عدم ثقة الآخرين به عندما يرونه يتكلم بهذه النبرة المباشرة، أحس طاهر عدم فهم أنور لما قاله، استجمع بعضًا من رباطة جأشه ولم يقو على لعب دور الناصح كثيرًا، فقال له بكل هدوء:

ـ هذا مو ضريح لأبوك.

ـ أبوي ، أي كلمني عنه وين صار؟

ـ راح احچيلك القصه ، بس لازم هسه ترتاح وتنام بعدها راح اكولك قصة ، انت هسه تعبان مبين عليك .

أحس طاهر بأن هذا الجواب كفيلٌ بأن يهدئ من روع أنور الذي أخذ ينظر إلى وجهه باستغراب وهو يتنبأ بأن هناك شيئًا جديدًا عن اختفاء أبيه، لكن طاهر أخذ يختصر حديثه إلى النصف وهو يحثه على القيام والذهاب إلى غرفته بعد أن أخرج من جيبه سلسلة مفاتيح عَلُقَ بها مفتاحين حديدين واحد صغير والآخر أكبر منه ، دفعهما نحوه وهو يقول:

ـ هذي مفاتيح غرفتك، ماكو احد دخلها بعد ما آني رتبتها.

لكن أنور ظل جالسًا لم يتحرك وهو يقول بنبرة ودودة:

ـ بعده ما رجع من ذاك الوقت؟

ـ أبوك ما مات ، هسه هو بملكوت الله.

ـ زين وين هو؟

ـ ما أدري.

منذ أن رحل لم يسمع أنور عن أبيه شيئًا، لقد شابت توقعاته بعض التفاصيل المبهمة الغامضة، ومواقف بدت مفقودة من جملة الأحداث في فترة غيابه، كانت نتيجة غياب

أبيه متوقعة ونهاية محتومة لا بد لها أن تكون بعد أن فقد الأحبة، كان التفكير يضنيه ويتعبه وهو يحس بالألم الذي بدأ يدب في صدره، أراد أن يقطع التفكير في البحث عن اختفاء أبيه منذ ذلك الوقت إلى الآن، فقد أحس أنه في أشد حالات التعب ولا بد له أن يأخذ قسطًا كبيرًا من الراحة، لذلك استلقى على فراش كان بالقرب منه ولم يأخذ وقتًا طويلاً حتى أغمض عينيه وغاب في سبات عميق، بينما أخذ طاهر القارورة ينظر إليه من دون أن يعلق بشيء.

١٧

الفجر يخيم على المكان، يكسو الأشياء المحيطة بقع سوداء وأخرى مضيئة، يخفي بعض البيوت بأعماق العتمة وبعضه الآخر يفضحه نور القمر المستدير، في الأطراف ظلام لم يمسح منه ضوء الفجر شيئًا، خط طويل من النخيل امتد على طول النهر، يرقد على بحبوحة من الرمال الندية برؤوس كثيفة التفرع تتطاول على بعضها، ما وراء النهر مساحات من الأراضي الطينية الفارغة التي تتناثر عليها بقع أشبه بالبترول، لم يعد ثغاء النعاج ونباح الكلاب يسمع، لقد سكتت كل الأصوات وأخذت تترقب بصمت إلى صوت الهواء الدافئ الذي حمل صوت صراصير الليل ونقيق الضفادع.

فتح طاهر القارورة فكيه على مصراعيهما وأطبقهما على لزوجة ريقه المر، عادت أصابعه تكمل لف سيجارته بما تبقى من تبغ في علبته الحديدية الصدئة من بعض جوانبها، أخرج لسانه ومرره على أطراف ورقة التبغ التي برمها بكل تأن ثم بلع ريقه بصعوبة قبل أن يشعل سيجارته التي عانى من إشعالها أكثر من مرة، مد بصره بعينين كانتا بين الصحوة والنوم، أدار رأسه في المكان، الكل كان في صمت ووجوم، صوت سعف النخيل الذي هيجته هبة من هواء دافئ لم يقلل من سكون المكان، أخذ نفسًا عميقًا من لفافته ثم زفر دخانها مع حسرة طويلة يبدو أنها كانت رابضة في خلجاته منذ

زمن بعيد، أخذت عيناه ترقب أضواء المدينة من البعيد في الطرف الآخر من النهر الذي يفصل بينهم.

لقد تمنى أن يسكن المدينة أكثر من أي يوم آخر، البيوت وحواريها والمقاهي ومجالسها، الأسواق والسيارات والشوارع والفتيات الجميلات، أراد أن ينتقل إلى هناك بكل ما يحمل من أمنيات برغم كبر سنه، لقد يتعود أن يسكن في هذه المنطقة المقطوعة بعد أن أتى من مدينة السليمانية هاربًا من السلطات التي اكتشفت أمر تجميعه للسلاح الذي كان يجمعه بعد كل معركة على الحدود، لقد فكر بالعودة إلى موطنه الأصلي أكثر من مرة، ولكنه يعلم بأنه لن يفعل شيئًا هناك، لقد انتهت الحروب المعلنة وبدأت الحروب الخفية، حروب من نوع آخر وشكل آخر ، فلم يعد للعمر بقية، هو في أشد الحاجة إلى الراحة والهدوء بعد ان تقدم به العمر، قدمه المقطوعة لن تسعف جسده على السير أكثر إلى مبتغاه في داخل المدينة التي عندما يصلها ، يطوف على العطارين، يجمع بها المواد التي يستعملها في طقوس المقام، البخور الياوني، الحرمل، طين خاوة، علكة مرة، ورق الغار وعطور زيتية متنوعة يخلطها مع الكحول بنسب معينة لينتج منها علاجًا للنساء ، لقد قالت له رسميه بائعة الخضرة ذات يوم (بطنك راح تخيس من البيذنجان)، للمرة الخامسة يأتي إليها عندما نزل آخر مرة إلى المدينة، لقد استهوته المرأة كثيرًا رغم أنفها الأفطس، كان يجلس أمامها

عندما ينتهي من جولته في السوق من دون أي عمل، يتمعن في وجهها، يترقب جسدها المليء بالأسرار، يلف خلال جلوسه أكثر من خمس لفافات من التبغ ويبتسم لها في كل حين عندما كانت ترمق وضعه من فترة لأخرى، لكنها حين كانت تنظر إليه بعينين من غضب وتعجب، حينها ينتابه الحرج فيضطر إلى شراء كيلو باذنجان ويرحل قبل أن يقول لها: (أنا الشيخ طاهر .. عندي كلشي تردينه) .

كان أنور على رقدته حين دخل عليه طاهر القارورة بجسده المترهل، جلس قبالته يتطلع فيه بحيرة، ، أخذ ينادي عليه وهو يهز جسده ،عندما استيقظ أنور سمع أصوات لغط لأناس في خارج الغرفة، جلس على الفراش بجسد مخمور وعقل خامل وهو ينظر إلى ساعته التي شارفت على السابعة صباحًا، لقد نام فترة طويلة أحس بها لم تكن كافية لكنه أراد أن يكسب الوقت في أول الصباح ليبدأ في البحث عن أبيه، أخذ يتطلع بوجه طاهر الذي بدا جامدًا.

ـ ردت أخليك تنام لحد ما ترتاح.

ـ أريد أتمشى هسه.

ـ الريوق جاهز ، تعال ناكل.

ـ مو هسه ، أريد بس أتمشى.

أراد أن يمارس هواية السير ويطلق قدميه في البستان والحواري ودروب القرى المجاورة، أحب أن يكسب الوقت في رؤية ما خلفه وراءه طوال سنين غربته، حين خرج من الغرفة وجد أن هنالك حركة حول المقام، أناس بدأوا يتوافدون، نساء ورجال وأطفال، يتجهون نحو غرفة الضريح ، تبعهم ودخل خلفهم ، جلسوا حلقات حول المقام وهم يرتلون أدعية وكلمات بأصوات خفيفة، أخذ أنور يتطلع فيهم لكنه لم يسأل عن أي شيء بل تجاوزهم واقترب من الضريح ، وجده بنيان من الطابوق مغلف بقماشات سميكة عدة سوداء مطرزة بحبال خشنة ، اخذ يتطلع به كثيرا لكنه ما لبث وان استداروخرج إلى باحة البيت.

استوقفه باب غرفته الموصد، أحس أن الوقت غير مناسب لفتح باب جديد في الذاكرة، قبض بيده على سلسلة المفاتيح التي كانت في جيبه قبل أن يشيح بوجهه ويخرج إلى الخارج ليرى أن البستان ليس كما كان في السابق، لقد جف كل شيء فيه وساده الدمار في بعض من ارجاءه ولم يعد كما في السابق يغمره الاخضرار، حتى أن النخيل لم يعد بنفس الأعداد الكبيرة التي كانت تحيطه ، لم يتمهل كثيرا حتى رأى أن الزحف العشوائي وصل الى ما بعد تلة الرمان، اتجه صوب البيوت العشوائية وأخذ يسير في الشوارع، أحب أن يرى الناس قبل أن يأتي وقت الظهيرة، كان يتوق إلى رؤية

مدينته من جديد، الناس، الأسواق، الطرقات، أحب أن يملأ رأسه ووحدته بالضجيج المتعالي من لعب الأطفال في الشوارع، وصراخ الأمهات عليهم.

تذكر أيام صباه عندما كان يسير في الحارات التي ضمت أشباه بيوت متهالكة، ذات أسوار من صفائح الحديد، في الصباح كان يملؤها صخب الأطفال والبائعون المتجولون، في كل يوم حدث جديد تصدرها الأبواب والشبابيك المفضوحة الأسرار وكأن الناس يتباهون بفضح أسرارهم التي يسمعها الجميع، ويتباهون أيضًا بالمشاكسات والمشاكل التي سوف يعلم بأحداثها الجميع، وتأخذ حيزًا من حياتهم اليومية التي لا تخلو من المشاجرات والمشادات الكلامية المخلوطة بمسبات وشتائم يتداولها بعضهم على ألسنتهم، ولكن في وقت الظهيرة يطغى على المنازل السكون بعد أن تبعدهم حرارة الشمس اللاهبة عن الطرقات، في آخر النهار يحاولون أن يصلحوا كل شيء من خلال التراضي، ينسون كل شيء وكأنه لم يحدث، ينتهي اليوم بتناقل الأكلات البسيطة في الصحون الحديدية، عربونًا وثيقًا بصفة السماحة وتقدير الجيران، أجمل ما يكون من وقت هو في ساعات العصر الأولى، النساء تجبرهم النسائم الباردة بالجلوس على أعتاب الأبواب وممارسة الترقب والتنصت على بعضهم بعضًا الى ان يحين وقت لحظات الغروب التي تنعكس على النفوس طمأنينة محبوسة تضيف تنهدات في الأنفس، الجميع كان يستمتع في هذه اللحظات بكل ارتياح حتى

يئوون الى داخل المنازل، يودعون به يومهم الصاخب العالق منذ الصباح في الأذهان ويبدئون بترتيب أوقات الليل، يستعدون لساعات الليل الطويلة، الليل الذي تكمن فيه الزيارات وساعات السمر إما في المجالس أو في الشوارع، يقتلون به أوقاتهم، يتسامرون بالأحاديث الرتيبة التي يحاولون إشغال ليلهم بها قرب الأبواب قبل أن يذهبوا إلى مخادعهم استعدادًا ليوم جديد، كان عالمًا بسيطًا ينتهي بهمهمات ثقيلة قبل أن يبدأوا يومًا جديدًا مكررًا.

عرس سندس كان من أبرز الأحداث التي تناقلتها الأجيال من حين لآخر، كان حاضرًا دائمًا بذاكراتهم، في ذلك الوقت عندما زفوها إلى مخدع ابن عمها عنتر الغاوي صاحب العربة التي يجرها حصانان، كان قد وعد الجميع بأنها سوف تكون ليلة أشد سخونة من صيف لاهب وهو يستعرض فحولته أمامهم، كانت ليلته التي حملت كل شبق السنين، تلملم بقاياه الهرمة وتجمعها بجسده الضخم وهو يدخل مندفعًا إلى داخل بيته ذي الغرفة الواحدة، حين انفض الناس حوله بعد مراسيم العرس تجمعوا مرة أخرى وهم يسمعون الصراخ الذي أتى من بيته، بانت صرخات العروس عصيبة، أخذت ترسم الدهشة على وجوه المتسمرين جميعًا، تستفز الرجال والنساء في آن واحد، أخذوا يتمتعون بصوت آلام العروس طوال ساعات الليل الدافئ ما لبث أن هدأ كل شيء بعدها، ترقبوا سماع نفس الصرخات، ولكنهم لم يسمعوا شيئًا هذه المرة، عند

منتصف الليل علت الصرخات مرة أخرى من البيت وعادت بشكل فاضح، لم تكن هذه المرة صرخات العروس سندس إنما كانت صرخات ولولة وبكاء ونواح نساء رأوها تلفظ أنفاسها الأخيرة، كانت يداها مشدودة الوثاق بقوائم السرير الحديدية وجسدها مسجى قرب عنتر الغاوي الذي أخذ يلطم على وجهه بكفيه العريضتين.

لا يعلم لم أتت على باله روزي في هذا الوقت، تذكرها عندما كلمته بالتلفون وهي تبكي وتقول: (أنور ... بت لا أطيق آلة الجنس هذه)، كان يريد أن يكفر عن ذنبه حين لبس ملابسه وخرج مسرعا في الليل إلى المنطقة التي وصفتها له، كان قد دخل المنطقة التي دائمًا ما يسكنها الزنوج الأفارقة والعرب، وجدها تجلس على مصطبة قرب عمارة قديمة، عندما أراد أن يوقفها على قدميها لم تستطع الوقوف، كانت تجهش بالبكاء وهي تقول: (كدت أن أموت) ، أراد ان يسير بها بعيدا ، لكنه احس بوجود احد يتبعهما ، حين استدار الى الخلف ، وجد الزنجي الأسود قد هم بالإنقضاض عليه ، حاول أنور ان يتفادى ضربة من يده لكنه لم يستطع ان يصد الضربة المباغتة الأخرى التي أوقعته به على الأرض ، حاولت روزي ان تحيل بينه وبين أنور ، لكن الزنجي دفعها بعيدا قبل ان يستدير وهو يقول : (ان رأيتكم مجددا سوف سوف امارس الجنس معكم سويا).

أمضى أنور يومه منذ الصباح حتى المساء وهو يسير بين الحواري والأزقة ، جلس على أكثر من مقهى ، زار السوق المسقوف ، اتجه الى ساحة الحبوبي ، عبر جسر الزيتون ، كان الوقت يمر عليه سريعا وهو يسير مسامتعا بما رآه ، مدينته التي أحبها ، لم يتغير منها شيء سوى بعض العمارات والبيوت الحديثة ، لقد مضى على حال أنور هذا أكثر من أسبوع وهو يخرج في الصباح الباكر ولا يعود إلا عند منتصف الليل، في كل يوم، يحاول أن يصل إلى أبعد ما توصله قدماه إلى أي مكان يقف به متعبًا ويعود عند الليل متعبًا لينام، كان يختلق عذر البحث عن أبيه الغائب، يسير في الدروب الشعبية متأملًا بأن يلمحه في أحد بيوت الفقراء تتعطف عليه أو تأويه، ولكن هيهات فلم يكن لدى الفقراء شيء يعينون به أنفسهم سوى ما يتبقى من طعام يوزعونه على بعضهم بعضًا بشكل صدقات يعتقدون أنها تقربهم إلى الله.

استباح أنور خلطًا في الذاكرة لم يمهله أن يفرز الشخوص التي ترافقه دومًا على شكل أطياف، لم يكن يحمل الوقت الكافي في طرد متزاحمات من المواقف القديمة قبل وبعد توافدها عليه، فقد كانت تطارده في كل مكان، تمنى أن يجد أي احد من أصدقاء فندق المستعصم ، الأستاذ ماضي ، عبد العال الوردي ، حسين القارورة ، كان يحتاجهم بشدة في هذا الوقت بالذات ، احب ان يقول لهم انني عدت لنكمل المسير سويا .

أراد أنور أن يذهب الى بيت صديقه منشد ، تمنى أن يجده بعد طول غياب، عندما ولج في درب صغير ضيق أخذ يتأمله ويحث الذاكرة في استعادة تفاصيله، إنه يعرف هذه المنطقة جيدًا، كان قد سار بها آلاف المرات في السابق، أخذ يركز على البيوت، عندما توقف في أول الدرب، تذكر صديق الطفولة منشد الذي لم يره منذ ذلك الوقت الذي كانا معا في بغداد آخر مرة، لقد ذهب منشد ولم يعد، كان قد بحث عنه أنور في كل مكان، في الدروب والحارات، في زحام العيون وفي عصف الأصوات وظل ينتظر بالساعات فوق النخلة، تمر الطيور بقربه فلا تفضي إليه بشيء، يمر السحاب فوقه ولا ينذره بشيء، نذر بأن يذبح صخلة ابنته صباح إن رآه مرة أخرى، لم يصدق أنه غاب عنه إلى الأبد، صديق الطفولة ورفيق العنفوان منشد.

لقد كان يسكن هنا بالفعل، لا بد أن يكون الباب الحديدي الذي في المنتصف، لقد تذكر جيدًا كيف كان يأتي في السابق معه إلى بيته، ليجد أمه قد أحضرت لهم طبخة الباچه ،حين اتجه نحوه وتوقف قبالة الباب ، مضت لحظات من الصمت قبل أن يرفع أنور يده ويربت على الباب، ما هي إلا بضع دقائق حتى خرجت عليه عجوز ذات وجه رتيب، حين تطلع فيها استعاد من ذاكرته وجهها الذي كان دائمًا ما يراه بشوشًا عطوفًا مرحًا مستبشرًا، لقد تغير كثيرًا وبانت عظامه من خلف جلد مترهل، تلك المرأة التي كانت بمثابة أم له، تذكر ذلك الزمن حين كان يأتي إلى هذا البيت الذي ضم أجمل

الذكريات مع صديقه منشد، مرت لحظات صمت من الحزن الذي اختلط بالحنين قبل أن تقول العجوز :

ـ تفضل أبني شرايد ؟

كان سؤالها جديرًا بأن يتنبه له ويعود إلى واقع وجوده مع تلك العجوز التي لم يتصور أن يجدها أو أن تجده .

ـ ما عرفتيني حجيه؟

أخذت العجوز تتمعن في وجهه مليًا، لكنها فيما يبدو لم تتذكر هذا الوجه الذي بدا نصفه شبه المحروق يصعب أن تستدل من خلاله عن هوية أتت من الماضي، كانت السنين كفيلة بنسيانه، لكنه بالرغم من ذلك اقترب نحوها أكثر وقال بصوت مرتعش:

ـ أني.... أنور.

–يا أنور ... ؟

–صديق منشد ، ابن الشيخ حسين ماشين .

كانت لحظات أشبه بدقات عقارب الساعة، تنقر في صمت محاولة أن توقظ ذاكرة العجوز التي فيما يبدو انها تخاف أن توقض جرحا بداخلها ، لكنها ما لبثت وأن

أقبلت نحوه وضمته إليها وأخذت تئن، لقد عرفته بإحساسها، كيف لا وهي التي كانت تعتبره أخًا لابنها، أخذت تتحسس بيديها الأثنتين وجهه وكتفيه بتأن وهي تقول:

ـ ليش ما اجا منشد وياك؟

حينها نزل الدمع من عيني أنور الذي أخذ يراها من خلف حاجز من ماء، لم يتجرأ أن يسألها عن منشد، فقد كانت كلماتها قد صرحت عن مصيره، كأن أنور ينتظر هذا التصريح عن خبر غيابه حتى يجزم بأنه قد مات فعلًا ، مرت لحظات عصيبة على أنور وهو يتطلع بوجه العجوز ، لكنه أراد أن ينهي هذا اللقاء سريعا ويبتعد حتى لا ينهار أمامها ويزيد من عذاباتها .

أخيرًا مات منشد، لم يتحمل ما تبقى من عمره فأدرجه الزمن في صف الشهداء، مات دفاعًا عن الرئيس في حربه الدامية، مات دفاعًا عن الوهم، ربما اقتادوه مكبلًا إلى حتفه قبل أن يطلقوا عليه الرصاص، ربما أطلقوا عليه الرصاص وهو يندفع نحو موته المحتوم في المعركة الخاسرة بعد أن أطلق صرخة لم يسمعها أحد غيره، لقد ضاع دمه بين أرض النخيل أو روى الأرض الجرداء لتنبت بعدها الانكسار أو أنه امتزج بأحشاء الطين الخاثر لينبت جذورًا من العويل وأطرافًا غير شامخة تسقيها دموع رخوة، من المؤكد أنهم لم يدفنوه، تركوا جثته في البراري تتفسخ، لا يحمل معه إلا جمرة في

شفاه القلب، جزم أنور أنه ودعه قبل أن يموت في عصف ريح خاو ولوح له بمناديل مغموسة بالندم ومرارة الوصايا المنسية.

****

طقوس الصيف مرثية، صوت سندان الحداد أخذ يكسر الصمت في جو المقهى الرتيب، أحسه أنور يضرب ككرة بلياردو في الأعماق ويرتد إلى الرأس فيشطره إلى نصفين، أحدهم تكمن فيه صورة أبيه المختفي الذي تخيله أنور يسير لوحده في الظلمة، أما القسم الآخر تتزاحم فيه أصوات الناس والباعة في السوق الذي بدأت تخف به الحركة في بداية الغروب، منذ أن اصطحبه طاهرالقارورة بعد العصر الى السوق في يوم قائظ لم يتكلما كثيرا، جلسا في المقهى ساعات طويلة وهم يتفرجون على حركة الناس الثقيلة، لقد بدت الوجوه لا تحمل أي معنى، كانت تحمل كل حكايات الناس العاديين الذين يعيشون فقط لأجل العيش، لكن أنور باغت طاهر بسؤال كأنه لم يتوقعه حين التفت اليه وقال :

–حسين ابنك وين ؟.

تطلع طاهر القارورة بوجه أنور ، لم يرد في بداية الامر لكنه قال له وهو ينظر الى ما خلف زجاج المقهى .

–حسين راح وي الوادم الجديدة ، چان يريد يصير نائب بالبرلمان بعد ما رجع للعراق لكن اللي صار أنه رجع للتراب .

لقد مات حسين طاهر القارورة بسيارة مفخخة، لقد حاول تكسير القالب والخروج نحو طريق غير معبد يرسمه لنفسه، دخل العملية السياسية، رشح نفسه للانتخابات البرلمانية التي لبس فيها السياسيون الجدد الأقنعة التي تعجبهم، وذهبوا إلى حفل الانتخابات التنكرية، ذهب حسين طاهر معهم، تلاعبوا بالكلمات غير الناجحة والوعود الزائفة كالعادة، روجوا للمستقبل على شاكلة إنسان خارق، وتنكروا لذاته المهدمة، لقد فهم لعبة الديمقراطية بشكل لا يضمن سلامة الديمقراطية نفسها للوصول إلى صندوق الاقتراع، لقد فاز حسين طاهر بنسبة كبيرة أهلته على أن يكون في أعلى المراكز، ركب الموج كالطفل المهووس بلعبة الأرقام التي حاول أن يفهم تعرجاتها، لم يفهمها ولم يفك رموز معادلة البقاء في الدولة الجديدة، استهوته عملية السلطة في أوقات حاول بها أن يفرض وجوده الفارغ وراح يتملق بشكل مفضوح للشخصيات المترهلة، وبين دور الأحزاب المهترئة على أمل أن يكون في مركز أعلى بكثير من طموحه المسعور، يضمن له بناء أكثر من بيت حديث وشراء أكثر من سيارة فارهة، واغتناء أموال لا حصر لها يصرفها على لياليه الحمراء، وكانت النتيجة، لقد ركب السيارة الخطأ، أخذ يتجاوز غيره من السياسيين بسرعة وهو يسير في شارع فتح

للصوص، ولكن حين وصل إلى منتصف الطريق، كانت هناك قنبلة تنتظره، تناثرت أشلاؤه في الشارع، واختلطت أخيرًا بأشلاء الشعب المعدم، اغتالته تناحرات الزمن الجديد.

لم يكن حسين طاهر القارورة هو المقصود، كان رقمًا كغيره من بين الأرقام، لكن جشعه وشراهته هي التي أودت به إلى الموت، لم يعلم أن الطموح الحقيقي منذ الأزل باقٍ لا محالة في قلوب النابضين في الغد المشرق وهم يدفعون من وقتهم وصحتهم ودمائهم الأثمان من أجل الحرية والعدالة، لكنه اليوم هو وأشباهه كشفت عن أطماعهم الأزمان، وأصبحوا لا يساوون طلقة الرصاص التي سوف تطلق عليهم في الغد.

أخذ يتطلع حوله بالكراسي الفارغة، انتبه إلى أضواء المحلات التي بدأت تنطفئ وأعاد النظر إلى جسد طاهر المطروح في زاوية الكرسي العريض والذي بدأ شخيره يتعالى، قام أنور واتجه إلى صبي المقهى الذي أخذ يمارس عملية حسابية خلف طاولة خشبية قديمة، دفع إليه الحساب ونفض شيئًا من الغبار كان عالقًا في بنطاله ثم اتجه إلى الخارج بخطواته المعهودة من دون أن يتوقع أن يناديه أحد، لكن صبي المقهى ناداه من الخلف وقال:

ـ ما راح تأخذ صاحبك وياك ؟

لكن أنور تجاهله وخرج، أحب أن يكون لوحده، لفحه بعض الهواء الدافيء ، أغمض عينيه لبضع ثوان كانت كفيلة بأن تبعده بعيدًا عن جو الدخان، أخذ يسير بعيدًا في الدروب التي ابتلعته ، أراد ان يسير نحو البيت لوحده وهو يتمنى أن يعلم بعض الشيء عن مصير باقي أصدقاء فندق المستعصم ، ماضي الدخيل وعبدالعال الوردي، ولكن قد تأخذه الدروب في ساعات الغروب إلى مجهول توقع أنه على دراية به وهو ما يزال على يسير نحو البيت يضرب به الهواء في انتظار الذي لا يأتي، عيونه المسلطة على الأضواء البعيدة التي بدأت تشتعل لم توح له بفك طلاسم لم يعد يهتم بها أو قد أصبحت شيئًا عاديًا في حياته، أحب أن يتخلص من الذكريات ويهرب من تداعيات أفكاره المشبوبة ويمني النفس بغد أفضل أو أكذوبة يقترفها على نفسه قد تصدقها أشباح الليل الطويل.

أطلق أنور حسرة كان يعنيها قبل أن ينزل من تل الرمان ويعود إلى البيت، ولكن قبل أن يتحرك رأى شبحًا يأتي من البعيد متجهًا نحوه، لم تتضح معالمه، لم يتبين ملامحه بسهوله ساعة ما رآه يتجه نحوه، فقد كان هناك شيء أشبه بالضباب يلفه من كل ناحية، أخذ يسير بخطى ثابتة نحو أنور الذي تجمد في مكانه، يقصده هو، لم يصدق عينيه حينما بدأت تتضح شخصيته شيئًا فشيئًا، كان منظره وهو يتقدم قد استفز ذاكرته، هل ساقته الريح على حين غفلة من الأيام أم جاء مرة أخرى يحمل في كفيه

مرآة وجرحًا، إنه هو منشد مرة أخرى، عندما اقترب وامتثل أمامه بلباس عسكري ممزق اتضح من خلفه تفاصيل من جسده المنهك ، وقف أمامه وقفة صارمة وأدى له التحية العسكرية.

تضاءلت حوله جميع الاتجاهات، بدا جسده ذابلًا كذبول الأيام، لقد أصبح نحيفًا جدًا وكأنه تجرد من أعضائه واستقام كعود قصب قديم، أخذت تنبعث منه رائحة البارود، لقد خطت الانكسارات على جسده وبدا كأنه صورة على سبورة سوداء رسمت بطباشير باهتة، اشتهى أن يتحسس وجهه ويزيل عنه الغبار ويخلع عنه نظرات الإنكسار، أراد أن يراه كما في السابق ذلك الرجل القوي الذكي النشيط الجريء الوفي الماجن، لكنه أصبح أمامه الآن كجثة تسير في دروب غريبة، محنط بالمدى البعيد وكأنه مات منذ زمن سومر وأكد وبابل، هكذا تخيله حين سار نحوه بخطوات متأنية واقترب منه كثيرًا، كانت هناك طلقة في الرأس وأخرى في القلب واضحة من بين الكم الهائل من الثقوب التي توزعت في أنحاء جسده توزيعًا عشوائيًا، حاول بقدر الإمكان أن لا تفزعه خطواته أو تثير انتباهه الدموع التي تجرأ أن يحبسها في أشلاء الرماد وحنين الذاكرة التي دفنتها الريح وأقلتها السحب السوداء إلى مكان بعيد حيث يغتالها الليل أو تنتحر هناك بعيدًا عن سمائه.

ـ بعدهي الحرب ما انتهت أنور؟

لم يرد أنور عليه ولو بكلمة بل تقدم نحوه واحتضنه بشدة ، كاد أن يبكي لولا أنه تدارك ذلك بعد أن سحبه منشد من يده وأخذ يسير به نحو البستان، وقال:

ـ تعال وياي ،رايد اراويك شي .

اتجه به إلى رابية تطل على البستان، استوقفه وقال:

ـ شوف هناك .

كان هناك قبران حديثان ، كتب على كل واحدة منها اسم لم يتضح منهم شيء إلا عندما اقتربا منها، تفاجأ أنور بالأسماء عندما اقترب اكثر ، إنها أسماء أصدقاء فندق المستعصم، ماضي الدخيل وعبدالعال الوردي ، تطلع منشد بوجه أنور الذي بدا عليه الذبول ، وجد أنه لم يعد يحتمل شيئًا قد ثقل على صدره بعد أن أطلق تنهيدة يبدو انها كانت محبوسة منذ زمن طويل ما لبث وأن أمسك بيد منشد واتجه به إلى البيت، لكن منشد أستوقفه وقال :

ـ أنت تعرف بمصيرهم من زمان ، ماكو داعي تحزن؟

في هذه اللحظة، عصف سرب من الغربان بينهما حال دون أن يكمل حديثه مع منشد الذي رآه يبتعد عنه شيئًا فشيئًا وهو يومئ إليه بيده من بعيد، أخذ شكله يتضاءل إلى أن اختفى في الضباب، ها هم الأصدقاء يرحلون أيضًا، لقد تيقن من رحيلهم بعد أن

رآى منشد يبتعد عنه ،لقد آن له أن يحتفظ طويلًا بذلك الأنين المتعالي في نعاس لا يجلب النوم، وفي ذهول اليقظة المرتبكة، وفي طريق غربة الروح اللئيمة، أصبح هناك توافق كبير بين القبور والأشلاء المتناثرة وبين الموت في الغربة ، فلماذا نخلط بين الذكريات في قطافنا للعذاب بحقول محنتنا الفقيرة وبين خريف الجراح، لسنا في وعينا عندما نصدق الأنين الطويل في انعطافات الغياب.

لقد مات الأستاذ ماضي بعد عودته للوطن، هكذا سمع أنور بعد أن وقف طويلا على قبره ، كان يظن أن سنين العذاب والقهر قد انتهت بعد التحرير، لكنه اكتشف أن لا شيء تغير سوى الوجوه، لقد أعدم القائد وجاء بعده قوادون جدد يكملون مسيرة الخراب الممنهجة، قد لا نعثر على ماضي الدخيل بعد الآن يشتعل بالكون الفسيح الذي ضاقت بوجوده الآفاق، ضاع تاريخه في عواصف أعظم الخيانات، المرأة مرة أخرى تكمل المشهد الدامي وكأنها لعبت دورها على أكمل وجه منذ زمن العهود المستعصية، الحروب والمرأة، لقد قتل الأستاذ ماضي أكثر من مرة وكأنهم لا يريدون للتاريخ أن يعري حقيقتهم، ولا يودون أن تدون أسماؤهم بتاريخ معتمد،رصاصة واحدة جاءته من الخلف واخترقت جسده وأحشاءه ونفذت إلى الأمام، لقد رأى الأستاذ ماضي الرصاصة تعبر صحراء الجحود والصلافة وتستقر داخل نصب خيال المآتة الذي كان لا مبرر لوجوده في هذا المكان سوى أنه انتصب يدافع عن حقل لن يحصد

منه شيئًا، كان قد تبسم قبل أن يهوي جسده على الأرض ويتطاير الغبار من حوله، كانت رصاصة من عشيق زوجته (أبو نضال) أتته في الظهر العاري، رصاصة لا يخرجها أعظم جراح من ذاكرة الخيانة.

عندما زار أنور قبره للمرة الأخيرة، لم يجد نظارته ولا كتب التاريخ التي كانت تلازمه دومًا، جلس بقربه وأطلق الحسرات الطويلة وكأنه يهديها له وهو يرى اسمه على لوح من الحجارة، كان يريد أن يكمل عنه آخر فصول حسراته التي لم تنته، لقد أسدل آخر مشهد من مشاهد الإنصاف على التاريخ الذي ورثه رغمًا عنه، وقد ظل يدافع عنه طوال عمره في المنفى، لقد ظلت في الأعماق ذاكرته المتبخرة تتحدث إلى طلبته عن تاريخ زائف لم يكتبه إلا المنتصرون، تمنى أنور في هذه اللحظات أن يعود به الزمن ويلتقيه قبل أن يعود إلى الوطن، كان سيتوسل عند قدميه ويترجاه بأن لا يعود أبدًا.

سمع أيضا عن موت عبد العال الوردي غرقًا، لقد أكمل رحلة مسيرة موته الأول بعد أن فقد الأحبة ومستقبله والوطن أيضا ، رمى نفسه في النهر وكأنه كان ينتظر هذه اللحظات بكل حنينه وشوقه، كان يريد أن يلتقي زوجته وأبناءه عبر المياه، لم يحتمل وجوده من دونهم بعد أن كابر وصبر كثيرًا، سوف يعثرون على جسده طافيًا قرب التقاء النهرين، عند شفاه الملح في شط العرب، فوق مياه باردة المصير، لقد عرف أنور لِم لَم تأكله أسماك القرش في المحيط حين كان جسدًا طافيًا على خشبة المركب الذي

دمرته الأمواج في ذلك الوقت وهو في طريقه إلى استراليا، لقد بقي جسده مؤجلًا لمياه نهر الفرات، أنهى وجوده بإرادته ومن غير أية دماء.

بالأمس أطلقوا على أخيه رائد الرصاص؛ لأنه أراد أن يطعم الأفواه بالوطنية ويحثهم على المسير نحو الشمس، ويزرع في الصدور نبتة حب الوطن التي أخذ يسقيها من دمه، كان رائد يقول :(إن المشاعر وحدها لا تفي بالعهود في مرحلة نحن في أمس الحاجة إلى العمل الدؤوب بعهد ملزم بالتغيير بعيدًا عن العهود الفارغة، فلا طائل لتحقيق الأماني والتطلعات ونحن في معزل عن تغيير أنفسنا)، كان يقول ذلك وأكثر وهو يشرح إلى طلبته دروس الفيزياء ولم يعبأ بالوشاة والمتربصين الذين لم يمهلوه أن يكمل كلامه حين قال: (لا بد من وجود شخوص يعمدون على توظيف الطاقات من أجل العبور إلى الضفة الأخرى) لكنهم حجبوا عنه الأماني بعد أن سحبوه من الدرس الأول وأتوا به إلى البستان، وأعدموه أمام أهله، لقد مات شهيدًا وهو يدافع عن الحرية، قد نسمع ذلك في وقت كان هذا الكلام مرفوضًا، ولكن صدى صوت الحقيقة الدامغ في كل العصور لا بد أن يكون موجودًا الآن بيننا، من بعده لن يستطيع أحد أن يغير الرصاص إلى بلح.

كان أنور يجلس في المقام ساعات طوال، شارد الذهن، يفكر كثيرًا في وضع البلد الذي توقعه أفضل مما يكون بعد التحرير، لكنه صدم حين رأى كل هذا الموت

والخراب، أخذ يتساءل في نفسه، لماذا كل هذا الدمار لبلد كان المفروض منه أن يتقدم إلى الأمام لا أن يتراجع إلى الخلف، ويصبح على هذه الشاكلة من الإهمال، حكومات مفروضة وشخوص متخبطة مرفوضة، زرعت في النفوس أدوارًا من الغضب والاستهجان قد يعزوها لردة الفعل الآني، لكن المواقف لا تمت للواقع بأية صلة، فقد رآها على أنها مؤامرة مقصودة تريد تحطيم آخر معاقل الكرامة، قد يكون أنور وصل إلى نصف الحقيقة التي يعرفها جيدا ، وأبقى النصف الآخر مؤجلًا فوق مشاعل النور التي ربما يشعل ظلامها الثورة ضد الظلم، فهي شرارة في داخل الإنسان إن أوقدها سوف تلتهم المحبطين والمتقاعسين للسير نحو المجد ويحطم الخذلان.

في مغبة الأهواء تبقى المصابيح الوضاءة على علو شامخ في النفوس التي أبت أن تدخل في السلطة، فترى النازحين إلى السلطة على بعد شعرة من الجنون الممزوج بالرغبة والقدرة، تجد بعضهم قد أسقطته السماء على القمة من غير مشقة، وترى بعضهم الآخر قد يبلغه بشق الأنفس بعد أن عانى منه ما عانى من ملمات الوصول بالرغم أنه خسر الكثير، أما السواد الأعظم فهم لا يجيدون سوى التذمر والأحاديث الجانبية، لا يتحركون لا يمدون الأيادي ولا يستنفرون، يبقون في الدرك الأسفل من السلبية قابعين ينتظرون الرياح التي اعتقدوا أنها ستغير كل شيء وهم يسبحون ويدعون في صلواتهم.

ثلاث فئات هم اليوم عصارة الوضع الراهن فالعراق بعد الاحتلال المرفوض والتحرير المفروض، أصبح النفوذ غير قابل للتغيير والإزاحة، ولكن ربما تنقلب الأدوار وتتغير في الغد بغمضة عين ، فالسلطة منذ أبد الآبدين تعيد وتكرر نفسها آلاف المرات منذ بزوغ عصر الحضارات إلى يومنا هذا.

فالنوع الأول وجد نفسه من غير سابق إنذار في مركز لا يحلم به وإن هو كافح من أجل ذلك منذ الأب السابع عشر إلى اليوم، فهي هبة من أياد خفية تقحمه بالظهور من أجل أن يلعب الدور المفاجئ الدخيل، فقط لأنه كان على الطرف الآخر من الكعكة المدورة ، أما النوع الثاني، فتجد أبرز سماته الترقب لأية رياح تلوح في الأفق، يخرج من بين طيات قميصه لفافات من المال يرمي بها في طريق الهواء العاتي ويجعلها تطير إلى الأعلى ما تلبث أن تعود مرة أخرى وفي طياتها غصن أخضر من الدولارات، يسير حيث الاتجاهات الأربعة في وقت واحد والفصول الأربعة في ثوب واحد، يتلمظ، يهادن، يتملص، ويتغاضى عن كرامته وشرفه، لا يشبع رغباته وأحلامه إلا توارث الأضداد والمتناحرات والبلبلة.

ويبقى النوع الثالث مجرد رقم حبيس أفكار الغير، يسير في الدروب بغير إرادة منه، يستنشق غبار التبعية المتطاير بقليل من الإدراك، يأكل أخر ما تبقى من فتات الحيوانات في الزريبة، يلهج صدره في البلوغ الوافي غير الملموس للخرافة، ويعزيها

بكلمات قد عفا عليها الزمن من الرضا والقناعة بالأمر الإلهي والصبر والتجاهل، ويطفئ بيده آخر ما تبقى من نور العزيمة والإصرار، تختلف عنده الموازين في كل لحظة ولا يعرف إلى من يلجأ وإلى أين يذهب، ولكنه في نهاية المطاف يعزي الرذيلة بالطبيعية والرعونة بالشجاعة والفساد بالحنكة ، ولكن تبقى الأضواء الساطعة، طموح الأجيال القادمة الجادة التي ما إن ترتكز على معنى الحياة وقيمة الإنسان الحقيقية حتى تبقى على القمة وإن لم تبلغها، لقد تغيرت المفاهيم والأفكار ولم تعد التبعية الخالصة مرهونة بالقداسة التي لا تمس، فقد تكون قد بانت ملامح كذبة التراث عند بعضهم، وظل بعضهم الآخر في غمامة من الجهل والترقب.

18

أصبحت علاقة أنور بطاهر القارورة قوية، لقد أصبح صديقه الوحيد، أخذ يحبه من دون أن يصرح بذلك، كان يساعده في عمله، منذ الصباح حتى الليل في المقام ، يعمل له الخلطات ويشعل له البخور ويستمع معه إلى قصص الناس الذين أخذوا يتزايدون يومًا بعد يوم، تقصده الناس من أجل الخلاص، تبحث عن مخرج بعدما ضاقت بهم الحقيقة ،يرمون على القبر الأوراق النقدية ويبذلون الأموال من أجل الكلمات المطوية في الأوراق والمغلفة بقماش أخضر، اعتبروها الخلاص بعينه ، فما زالت الأوهام تتري على المهلهلين فيصدقونها وكأنها الحقيقة ، كما بالأزمنة الغابرة، أسطورة البركة، الزيف الأكبر، سلطان الخرافة والوجع المكنون الذي يقتاد الضعفاء إلى ظلمة الجهالة التي يستريحون لها أو ظلمة الإيمان الملبسة في زيف الديانه التي لا يبحث عنها أحد ولا يهتم لوجودها أحد، وإن كانت في كل الأحوال ضائعة لا محالة ، فقد استبدلوا العقل بالوهم والحقيقة بالزيف .

سأله أنور ذات يوم عن حكاية المدفون في هذا الضريح ، كان طاهر القارورة في أشد حالات النشاط والبهجة حين سمع السؤال اقترب من أنور كثيرا حتى كاد أن يلتصق به ثم قال بعد أن تنهد :

–منو تعتقد يكون مدفونا هنا؟

–أضن أنه عبد من عباد الله الصالحين .

أخذ طاهر يتفحص وجه أنور قبل أن يقول بنبرة ممزوجه بالمكر والدعاء والحنكة .

– أنا دفنت هنا مطي .

كان أنور يرى كل شيء حوله من دون أي ردة فعل غريبة، أخذ يجلس الساعات الطوال وهو يتابع طاهر القارورة يعمل بكل جدية على إيجاد الحلول المستعصية للناس الذين يتجمهرون حوله، طاب له المقام كما طاب له الجلوس بين الناس الذين أخذوا يتكلمون عن حياتهم بشكل فاضح، قصصهم كان يسمعها عن قرب، شكواهم، نجواهم، أدعيتهم التي لا تنقطع، هم يشددون على أن هذا المكان الذي اعتقدوا أنه سوف يخلصهم من أحزانهم ومشاكلهم هو انسب مكان لافراغ ما يلم بهم فقد وجدوا من يسمع لهم ويقترح عليهم الحلول ، لقد ربطوا عقولهم في الخارج ودخلوا بلا عقل إلى هذا المكان الذي ترتفع منه رائحة البخور.

ـ أقسمت عليك يا شريفه بسيد بردان والمعلم حرقان أبو أذان وبالموطة أم عودان.

قال طاهر القارورة ذلك وابتسم ابتسامة تكلف الكثير من الوقت لإخفائها وهو يضع يده على يد رسمية بائعة الخضرة التي استسلمت له بكل امتنان، كلمات تمنت أن

تسمعها كثيرًا، كلما علت الكلمات المبهمة كلما أحست بالارتياح، كانت تتمنى لو أن هذه الكلمات تستمر وتقرأ فوق رأسها طلاسم الكون أجمع وتعاويذ لا تنتهي وتراتيل الجن الأحمر، فقد أحست أنها سبيل الخلاص والشفاء، فحياتها أصبحت معلقة بهذه الكلمات التي أيقنت أن طاهر القارورة سوف يعيد لها زوجها الذي أخذ يجافيها.

ـ الجمال جمال الروح.

تطلع طاهر بوجهها الذي أشد ما يميزه الأنف الأفطس وشفتيها الكبيرتان بعد أن أصر على نزول العرق من جبهته لأجل إكمال الطقوس التي سوف تقلب حياة رسمية من كومة من اللحم الناشز غير المتناسق إلى زهرة في بستان زوجها الذي سوف يقطفها بليل انتصار الجن ويشمها ثم يحتضن أوراقها ورقة ورقة إلى صدره ويعصرها حتى يسكب رحيقها على فمه، قالت له وهي تصطك بأسنانها الصفراء على شفتها السفلى وقد بان بعض آثار الفجل الأخضر بين فوارق الأسنان.

ـ راح أموت من القهر، أكيد لكه حرمه غيري.

طمأنها طاهر القارورة على نحو من الجدية، سحب ورقة كتب بها بعض الخربشات ثم طواها وأسلمها إياها، أعطاها قنينة شامبو وصابونة وأيضًا أعطاها قارورة عطر حتى يستفز فيها الجزء الأنثوي، كان ذلك علاج ليل الخلاص وعودتها إلى الحياة الطبيعية، كانت رسميه تتحدث كثيرا عن حالها بالقرب من أنور الذي بدا يصغي لقصتها ، قالت

أنها عندما تزوجت بذلت له كل طاقتها وتحملت معه العوز والتعبت في تربية الأولاد، حتى أمه التي كانت تبيع البيض الفاسد، برغم كلماتها القاسية والتذمر والشتيمة تحملتها لأجله، أخته العانس التي ضبطوها مع ابن الجيران يتقابلون فوق السطوح كانت لها مثل الأخت، ابن الجيران الجربان الذي أتوا به من الحرب مبتور الأرجل لم تسلم من نظراته هو الآخر، إلا أنها كانت امرأة محافظة وشديدة لا تجرها الأهواء، أصبح زوجها لايطيق وجوده في البيت، يتعذر لأجل الهرب، لم تطالبه أكثر من قوت يومها، تركت كل شيء لأجله، لم تشتري عطرًا أو إصبع حمرة منذ زمن بعيد لاجل ان يوفرا المال حتى انها لم تصبغ شعر رأسها الذي بدا يميل الى المشيب ، تعمل منذ الصباح في بيع الخضرة حتى المساء .

ـ تصور يا شيخ طاهر أنه قام يضربني ، وعلى شنو ، لقى ابنه بايل على فراشه .

كانت تريد أن تبكي على صدر حنون، تمنت أن يضمها احد بقوة ويرجع لها بعض من كيانها بعد الجفاء ،ولكنها أجلت كل ذلك للنهاية، لا بد لها أن تشكو كل شيء في البداية وتفرغ ما بداخلها أولًا ثم تستسلم إلى طاهر القارورة الذي كان مستعدا إلى هذه اللحظات بشغف وهو يسمع صوتها يأتيه عبر الحسرات .

ـ انسحر ياشيخ ... انسحر.

أصدرت صوتًا أشبه بالأنين، أخذت أنفسها تصعد بصعوبة، ضاعت كلماتها بين الحسرات وأصبحت متقطعة وغير مفهومة، لكن طاهر ربت على كتفها بكل حنان وطمأنها، لم تعترض على يده حين أخذت تمسح على كتفها، ولم تبدِ أية ردة فعل عندما عصر ذراعها وأمسك يدها وأخذ يفركها ما لبث وان اقترب منها أكثر ثم الصق خده على خدها فيما هي بقية ساكنه ، تحمل طاهر رائحة الفجل التي تفوح منها وطبع قبلة على خدها ثم سحبها معه لغرفته بكل هدوء وأغلق الباب خلفه .

مضى على ذقن أنور شهر كامل من دون أن يحلقه، تحسس لحيته ومرر يده على شاربه الغليظ، توجه نحو المرآة ووقف قبالتها، تمعن في وجهه طويلاً، أحس أنه أكبر من ذي قبل، فكان بارزان وعينان زائغة، الشعر الأبيض يغزو فوديه ويتسلل إلى أعلى شعر رأسه بلا ترتيب، أخذ يتمعن بوجهه الذي بدأ الشيب ينحدر إلى الأسفل وأخذ ينمو بشكل متسارع وينتشر إلى أن غزا شاربه ولحيته التي أخذت تطول وهو يرى قسمات وجهه تتغير، تفطرت شفتاه وبانت التجاعيد على جبهته وأسفل عينيه، وبدا وجهه يشيخ بشكل سريع أمامه في المرآة وكأنه يرى انعكاس كهولته.

ـ لا تنتظرني، حاول أن تدخل من انعكاسات الضوء.

ذهل لسماع صوته المتحشرج يأتيه من المرآة ، تخيل أنه يأتيه الصوت من حقبة سحيقة فانية لا يدركها وهو يقول :

ـ تعصف الرياح في الشجرة عصفًا شديدًا فلا تسقط إلا ورقة صفراء واحدة، منابع القوارير تجف ولست وحدك تتحمل الآلام.

هز أنور رأسه بقوة وكأنه يريد أن يصحو من حلم غريب، لكن الرجل الكهل لم يختف من المرآة، تبسم أنور في مرارة وهو يقتفي خط طيران الذبابة التي وقعت على أنفه، لم يحاول أن ينشها بعد أن سمع الكهل يقول:

ـ في الغد لن تعود لأحضان المرايا، سوف تصبح أنت حقيقة من الماضي.

بعدها انسحب وجه الكهل بروية عن سطح المرآة إلى أن اختفى، أغمض أنور عينيه بقوة لبرهة ثم فتحهما ببطء، لكنه حين انتبه إلى المرآة مرة أخرى لم يجد انعكاس وجهه، حينها أحس بألم في صدره جعله يهوى على الأرض ويتلوى لفترة طويلة ، ما لبث وان هدأ بعد ان عانى منه الكثير ، مدد جسده وغاب في نوم عميق .

في صباح اليوم التالي خرج باكرًا، سار طويلاً وجلس طويلاً في الدروب والحواري وفي السهول البعيدة والأراضي وبين الأخاديد وعلى جرف النهر، وكأنه أراد أن يودع كل شيء لآخر مرة، تمرغ جسده في التراب واستلقى على نبت الأثل الذي أكلت نصفه الخراف، أخذ يتبول في مياه النهر وقت النهار، صرخ في الفضاء بصوت عال وتغنى بأغاني العاشقين القديمة، ركض طويلاً يسابق ظله، تقافز حول هيكل سيارة الفولكس القديمة وانحدر من تلة الرمان إلى أن وصل إلى مقبرة الصابئة الكلدان، وأخيرًا تعب

ونام على الصخور عند المطحنة، عندما أفاق، كان الليل قد خيم على المكان، أخذ ينظر القمر بعين من الأسى والحزن ما لبث وأن خاطبه بصوت مسموع.

ـ وتاليها وياك يا كمر ، تريدني أشكيلك ، لا ما راح أشتكي ، راح اكسب الرهان وانهي بأيدي كل شيء .

في طريق العودة استوقفه جسد رابض في زاوية من بيت عتيق، سلط أنور مصباحاً يدوياً كان يحمله دائماً معه على الجسد الذي بدا ساكنًا ككومة من خرق ملابس قديمة، حسبها إحدى الخيالات والأوهام، لكنه لم يقو على تجاوزها بعد أن رمت أمامه بعض القواقع والحجارة والمسامير وحبات من الفاصولياء البيضاء والشعير على جزء من ردائها الأسود ، توقع أن تتكلم أو تسأل أو تطلب منه بعض النقود، ولكن صمتها أثار في نفسه الفضول وجعله لا يتعداها بعد أن سمعها تقول :

ـ تريد أكشفلك؟

لقد انتابه هاجس بمعرفة تلك الاهتزازات التي غوشت صورته في أعماق المجهول، أراد أن يستكشف شيئًا يريحه لكنه عدل عن ذلك وقال:

ـ أني ادري بحظي ، ماكو داعي.

من دون أية كلمة، عادت ولمت أشياءها المتناثرة بيديها، هزتها بعنف ونثرتها على ردائها الأسود الممدود أمامها، لم يبد هو أية ردة فعل حين رآها تتلفظ بكلمات مبهمة لم يفهم منها شيئًا.

ـ يبان مثل خرجه بيوم الطمر، مره تجي وتروح ومره تروح وتختفي .

لم يفهم شيئًا مما قالت، لكنه لم يسأل عن التوضيح، أراد أن يتحرك ويتركها في الظلمة، ولكن قبل أن يرحل قالت له:

ـ تعال جرب ، شنو راح تخسر اكثر من اللي خسرته.

حينها استدار انور نحوها، نزل وجثا على ركبتيه ، عندما سلط ضوء المصباح عليها أصابه الذهول ، لقد أخذت الدهشة منه الوقت الطويل حين تبين من وجهها انها هي المرأة ذات العينين الزرقاوين، والوجه الذي يميل إلى اللون الزهري وشعرها الأصفر الطويل الذي يعلوه تاج مرصع بأحجار لامعة ،أخذ يتطلع بها بذهول وبالحلزونات التي طشتها على الرداء ثم قال لها بكل جدية:

ـ شنو تقول الكشفه؟

ظلت على حالها قابعة لم تتحرك، أخذت عيناها تتقد كأنها جمرتان من نار تكادان تخرجان من وجهها المتشقق، عندما ركزت بناظريها نحوه ،اهتزت الأرض من تحتها

وكأنه زلزال قد حدث ، أخذ صوت عصف رياح عاتية يأتي من الخلف ويكاد يزحزحه ، تموج كل ما حوله وكأنه لوحة مائية بدأت بالسيلان ، توقع أنور أن تتحول إلى طائر أسود يطير فجأة نحو السماء أو تتحول إلى سحلية وتختفي بأحد جحور الحائط المنخور، أو تختفي كالدخان، ولكنه التفت إليها التفاتة أثارت الرعب في نفسه حين قالت بصوت عال اخذ يعلو بالمكان أشبه بالغرغرة .

ـ ما جدامك الا تموت، جاثوم على صدرك.

بعد أن قالت ذلك ،اسود وجهها وافترش أنفها وأخذت أذنيها تطولان ونمت فجأة أنياب في فمها الذي أخذت تفتحه بقوة ، تغير لون شعرها الى الرمادي وارتفع من رأسها قرنان طويلان إلى الأعلى وتشكلا على هيئة مخروطي حديدي، حين طار رداؤها الأسود الفضفاض تبين من خلفه جسد مقزز نحيل كأنه الهيكل العظمي يكسوه جلد متقيح وقد أخذ البخار يخرج من جنباتها ومن رأسها الذي اندلق منه سائلًا هلاميًا كالصديد يبث رائحة كريهة كرائحة الروث ، تراجع أنور وتعثر مما دعاه للسقوط على الأرض بعد ذلك اختفت وكأنها لم تكن موجودة في هذا المكان وفي هذا الزمان ، تطلع حوله، وجد كل شيء ساكنًا لا يتحرك في الظلمة، هز رأسه ثم قام من سقطته واخذ يسلط المصباح اليدوي إلى مكانها ، لكنه لم يرى أثرا لها ، نفض عن ملابسه

الغبار واستعد للسير الى الأمام ، أخذ يسير بسرعة في الدرب يلتفت خلفه بين لحظة وأخرى .

أيقن أنه يسير نحو نهايته، بضع عذابات أخر سوف تهد آخر مواطن الأمل في داخله وبعدها النهاية، كانت رسالة إلى كل من لم يهمه الأمر، لقد أصبح وحيدًا عاجزًا شريدًا بلا مستقبل ولا أمل وهو يعلم أمر موته المحتوم ، سعل بشدة وهو يقبض على صدره بقوة ،احس بأن آخر مشاعل النور انطفأت حوله ، لم يعد ذلك الولد الراكض نحو الجبل الذي تمنى أن يرتقيه ويصرخ من أعلاه على الإنسان، لكنه أضاع طريق الوصول إليه بعد أن شدوا وثاقه على عمود العذاب، تمنى أن ينام نومته الأبدية، فلم يعد يطيق فشل وجوده بعد الآن.

عندما عاد إلى البيت ودخل من الباب الرئيسي، توجه إلى المقام الذي كان يضج بالناس بخطى سريعة وهو يمسك بفأس عريض إشتراه من المدينة، عندما دخل وجد بعض الشخوص تدور حول الضريح وأصوات أدعيتهم تصله وكأنها طنين الدبابير، ادار رأسه في المكان وأخذ ينظر بكل من حوله ما لبث وأن صرخ بهم جميعًا وهو يصيح بصوت عال :

ـ كلكم اطلعوا منا ، ما اريد اشوف احد بيكم هنا ، كافي وهم .

توجه إلى الجدران وأخذ يكسر كل ما وقعت عليه عينه من لوحات جدارية ، يكسر الصور المعلقه ،يمزق القماش الذي خطت عليها آيات قرآنية، الجرار، القوارير الزجاجية والشمع، أسقط جميع الرايات ، أخذ يدور بكل عفوية وغضب ، كان يحطم بهم في هستيرية وعنف في الوقت الذي هرب كل من في المكان بتخبط وصراخ ، توجه بعدها إلى الضريح الذي كان مسيج بسور حديدي، أخذ يعمل بها الفأس حتى حطم أجزاء منه، أخذ يعمل به ضربا وهو يحطم السور الذي يحاوطه ، أخذ أنور يحطم كل ما حوله ، بعدها نظر في المكان الذي ساده الهدوء، لقد فرغ من الجميع ، كان طاهر القارورة يجلس في مكان منزوٍ يمسك في مسبحة طويلة حين رأى أنور يندفع نحوه بكل شراس ويقف فوق رأسه ثم يمسكه من ياقة ثوبه وهو يقول:

ـ اريدك تطلع منا ولا كسرت راسك بهذا الفاس .

كان طاهر في حالة من الذهول حين رأى أنور يعني ما يقول وعيناه تقدح شررًا، أتكأ على عكازه ثم قام مسرعا واتجه إلى غرفته المنزوية، جمع بعض حاجياته في كيس أسود وأخذ يجره خلفه مرعوبا إلى أن خرج من الباب وقد ترك الخراب خلفه ،وجد أنور نفسه وحده في المكان المحطم ، استكان قليلًا وهو يرمي بالفأس بعيدًا، أحس بألم في صدره، أخذ يزداد كلما علت أنفاسه، سعل بشدة ، احمر وجهه ، دمعت عيناه

، أحسن بوهن جسمه مما دعاه بأن يرتمي على الأرض ويسند ظهره على الحائط وهو يرى الدمارالذي حل بالمكان.

****

كان ليلًا أقل من أن يشار له بالصحو، بل كان غير كل الأيام ضجيجًا، أخذ يسمع صفير صفائح الحديد بعد أن هبت الرياح متعاقبة، أخذت تحمل السخونة في طياتها، كان أنور مستلقيًا على فراش في ساحة البيت في ليل معتم، تمعن في السماء التي حاول أن يجد فيها شيئًا ينقذه مما هو فيه لكنه لم يجد غير القمر الذي علاه غبار أصفر حمل مرارة سماء الأيام والسنين، لم يكابر بتصديق الخذلان، لم تجلب له الرياح أي بصيص من تراض بالأعماق، أخذت تسحبه رغمًا عنه إلى عدم اللامبالاة والاستسلام، عندما أدار رأسه نحو الباحة، ارتسمت أشباح الشخوص الهلامية في كل مكان حوله، أخذت تتحرك بكل هدوء ثم تختفي، أخذ يتحسس صدره الذي بدا أشبه بجمرات لن تنطفيء ، تحسس فراشه الذي أحسه يغلي، لم يعد بعد الآن يبالي بأي شيء بعد احس ان لون دمه قد تحول الى اللون الرمادي، اختلط بلون زرقة الوجع واخضرار الأرض البور وبصفرة المرض ، رحل عنه الجميع وتركوه مرة أخرى وحيدًا بين أطياف الذاكرة المرة، أرخى جسده وكأنه يفسح مجالًا لمرضه بالخروج أمام عينيه،

الألم الرابض بين ظلمة الأوجاع، تخيله يخرج من الأرض على هيئة جسد هزيل ويجلس أمامه القرفصاء بصمت ، قال له عندما رآه يتطلع به .

ـ ليش چنت تريدني اموت بسرعه؟

كان أنور في انتظار أن يتكلم، ولكنه ظل صامتًا لم يتكلم، بعدها وقف واتجه نحوه ثم تمدد في حضنه وهو يقول :

–أنت مسودن ، أنا أريدك تروح حتى ترجع من جديد .

أدار أنور ناظريه وأخذ يتطلع في باب غرفته الذي أوصد منذ زمن بعيد، تحسس جيبه وأخرج سلسلة المفاتيح التي كان يحتفظ بها، مفتاح كبير وآخر صغير، حان الوقت بأن يفتح غرفته، حاول أن يسند يديه ويقف، ولكنه لم يستطع، فقد اشتد عليه الألم الذي أحس أنه سوف يحبس عليه الأنفاس بعد أن أخذ يسعل بشدة ، أمسك بمصباحه اليدوي وأخذ يزحف إلى أن وصل إلى الباب الذي كان مقفلاً، عندما فتحه بالمفتاح الكبير رأى السكون بكل شيء، فتح ضوء المصباح اليدوي واتجه إلى الداخل، أخذ يبحث في الظلام عن صندوق زوجته أمينة الحديدي الذي كانت تحتفظ فيه بكل أسرارها، عندما وجده بين الأغراض المتناثرة، سحبه نحوه وأخرج مفتاحًا صغيرًا وفتحه بلهفة، كانت ترتفع منه رائحة أشبه بالحلبة، وجد بين الملابس القديمة أشياءها التي كانت تعتز بها، صور قديمة بالأبيض والأسود، ومشط من الخشب،

وزيت هندي للشعر، وقلادة من الخرز ذو شذرات خضراء، وقلادة أخرى من المحار تذكر أنور أنه قد أهداها إليها عندما قدم إلى السليمانية ليراها، أساور فضية تلتف عليها خيوط متشابكة، وسلسلة وقيراطين صغيرين كانا لابنته صباح، تمعن بها كثيرًا، تأملها كما يتأمل سنين نشوة الذكريات التي توجعه ما لبث وأن ضمها على صدره، ولم يقو على حبس دموعه التي سالت على خده، عصر عينيه بقوة وهو ينتشج ، كانت رواسب الدموع عالقة على جفنيه منذ زمن بعيد، لكنه أراد أن يغلق كل شيء ويعود الى فراشه، ولكن قبل أن يعيد كل الأشياء التي حملها بيديه ويطبق الصندوق على ذكريات زوجته لمح لفافة جلدية أنيقة مربوطة بشريط أخضر لامع معقود من الأسفل ، عندما فتحها وجد كل الرسائل التي كان يبعث بها إليها وهي في السليمانية، ما زالت رائحة الورد تحتويها، كانت مصفوفة بانتظام ، تأملها واحدة واحدة، قرأ خطه وكلماته التي كان يكتبها بإحساسه ، (عشقتك بفضاء لا زرع فيه ولا مطر، وأسرجت شتات العمر بين روح الغيم، وأطلقت نور وجهك تحت ظل القوافي، يكفيني هواك بأن أعيش داخل شريانك باقي شتات عمري، يا أسطورة الغرام وليالي برد الشتاء .... حبيبتي أمينة) .

ضاعت منه النسمات في الكون الفسيح، لن يدخل أحد النور بعد اليوم في الشريان، لن يأتي أحد يعزيه في يوم انتحاب الروح، أمشاط حزينة رتبت كل دموعه، لا صوت يناديه وينقذه في بقية من نفسه، لا عويل يندب بقية الحسرات العالقة على الأيام

الخوالي، لا نداء ينتشل آخر ما تبقى من شجون، فقد فتح على نفسه بابًا من الحنين لا يندمل، سارع بحبس انفاسه التي أخذت تتضاءل حتى أنه أحس بانقطاعها تمامًا، كانت كل أطياف الشخوص التي تحاوطه تتطلع به من الخلف وهو يزحف متجهًا إلى الباحة الخلفية حيث القبور، أراد أن يودع الأحبة ، أخذ يجر جسده عنوة إلى أن وصل، رأى قبر أمه وأخيه رائد وقبر زوجته أمينة وابنته صباح أيضًا، أدار ناظريه وأخذ يتطلع في القبر الفارغ بعيون بدا عليهما الاحمرار، أخذ وجهه ينتفخ، سال لعابه، بدأ الهواء ينسحب من حوله وهو يسعل كالصفير، صوته المحبوس بدا وكأنه صوت جذع شجرة يسحب على صفيحة من حديد صدئة.

زحف نحو ألقبر الفارغ ، تتبعه الأشباح التي كانت تنظر إليه وهو يسحب جسده بكل تثاقل، ما إن وصل حتى رمى نفسه بداخله، تمدد وهو يسند ظهره على حافته، أخذ ينظر إلى أشباح الشخوص الذين مروا عليه خلال مسيرة حياته، وقفوا حوله متناثرين ووقف بعضهم صفًا واحدًا، خطفت من فوقه الفتاة الشبح ذات التاج المرصع بالأحجار اللامعة مبتسمة، كانت تبتسم وهي تتطلع به ، طار العجوز المتسول على مقربه منه وذهب إلى البعيد، تقافزت حوله عنزة ابنته صباح، لقد رأى أمه وأخاه نوار وزوجته أمينة وابنته صباح بثوبها المبلول في صف واحد، في طرف غير بعيد وقف منشد والأستاذ ماضي وحسين طاهر القارورة وعبد العال الوردي وأيضًا رأى أبن

الهورالأستاذ غافل حسين مطرود من دون ان يلبس نظارته وهو ينظر إليه بأسى ويقول (ماكو فايده من الشرده)، بينما وقفت السيدة ثريا وغسان السوري وكردينوس الطباخ وروزي والسيد دارسون الذي كان يمسك بحمالة قلبه الحديدية، من خلفهم كانت تقف راشيل بعيدًا، أخذت تلوح له بيدها من فوق التلة بملامحها الرتيبة، يعصف الهواء العالي بخصلات شعرها الأصفر ويرفع الجاكيت الأحمر إلى الأعلى وهي تقول : (وداعا أيها الوهم).

لقد دفن جميع الأحباب في قلبه المتقد ، جمع أشلاء محبته ونثرها بالسهل البسيط اليابس ، أسقط شوكة من الأحزان من فمه المنفرج، لم يعد هناك أحد يبكي على رحيله، فقد بكى عليهم بمرارة أكثر مما ينبغي، الكل رحل إلى مستقر له في ذاكرة الخلود ، أخذ يتطلع بهم جميعًا، دمعت عيناه وابتسم في نفس الوقت، أخذت أنفاسه تتعالى وهو مستلق بكل استسلام الأموات إلى المصير داخل القبر ما لبث وأن أسند رأسه على التراب ثم أغمض عينيه .

نبذة عن المؤلِّف

الاسم:

حامد ثامر المسفر

الدولة: العراق . الاقامة: اليونان

– كلية فنون جميلة جامعة بغداد

أديب وكاتب لكثير من المقالات والقصص.

– فائز بالجائزة الأولى على مستوى العراق لأفضل قصة قصيرة "خيط الدماء الأزرق".

أعمال سابقة:

– ليل المنافي_ رواية

– دخان الحكاية_ رواية

– خيط الدماء الأزرق_ قصص